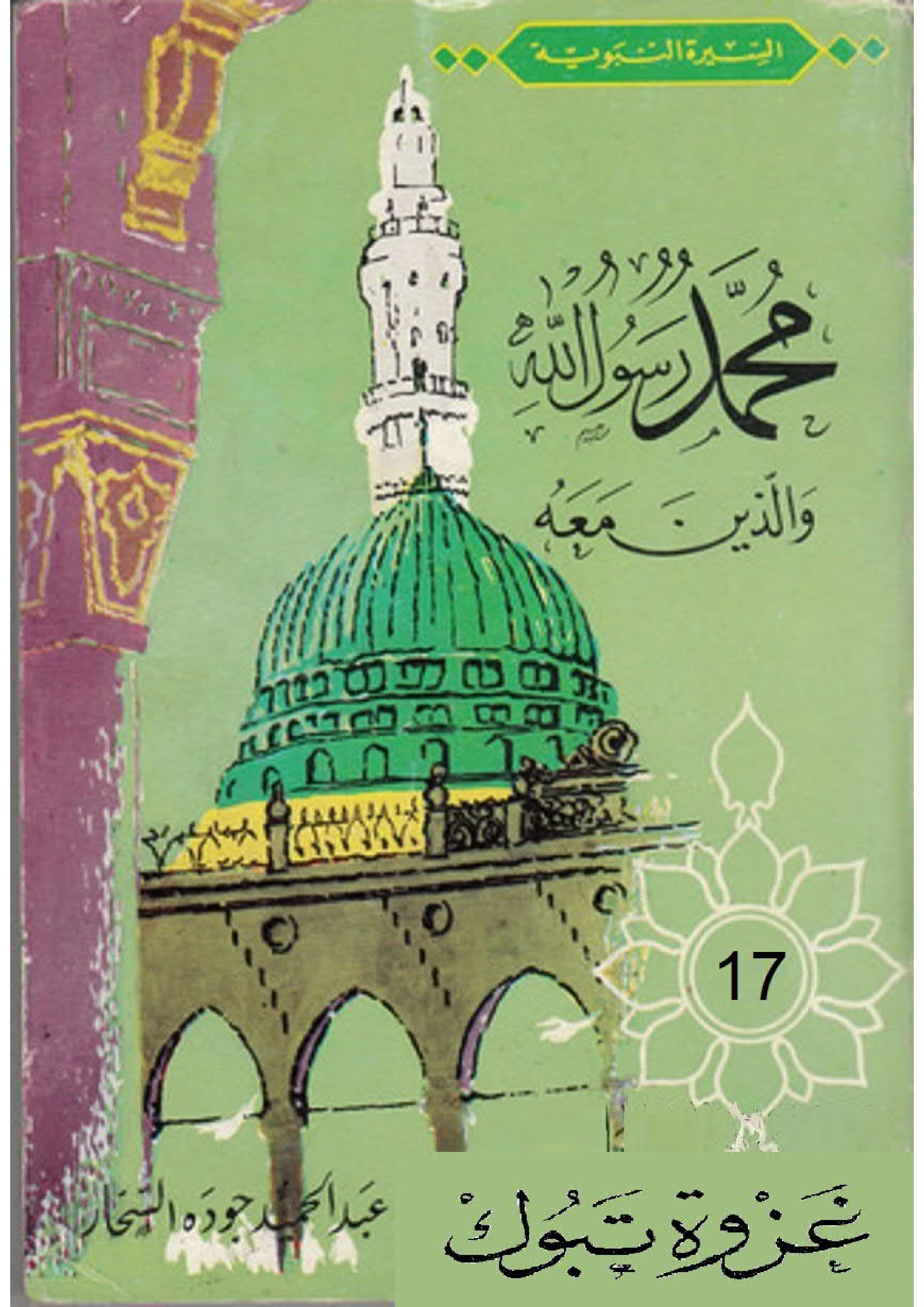

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
17
عبد الحميد جودة السحار
غزوة تبوك

السيرة النبوية



غزوة تبوك

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

(صدق الله العظيم)

١

كان قسطنطين يجوس خلال بيزنطة وقد لفها سواد الليل ، وراح النسيم يهب رخاء فينعش الأفئدة ويحرك الأخيلة ، وساد الصمت لحظات شرد فيها الخيال ، ثم ما لبث الإمبراطور أن التفت إلى رجال حاشيته وقال :

ـــ إن ربة المدينة أوحت إلىّ أن أبنى هنا مدينة عظيمة تتوارى روما منها خجلا .

وقامت الاحتفالات بمولد مدينة القسطنطينية ، وعملت السواعد القوية وأنفقت الأموال وصدرت الأوامر إلى الحكام فى أقصى الولايات لإنشاء المعاهد الفنية لتخريج صناع مهرة ينهضون بالأعمال الهندسية التى تحتاج إليها مدينة الآمال . وارتفع البناء وأقيمت أقواس النصر ، وجلبت النفائس من مدن اليونان وآسيا ، ونصب تمثال أبوللو فى وسط الميدان . ودعا الإمبراطور أعضاء السيناتو للإقامة فى مدينته العظيمة فلبى بعضهم الدعوة وهجروا روما ، وشد أغنياء الولايات الرحال إلى مدينة الإمبراطور .

وراح قسطنطين يزين معابد الآلهة ، وأصدرت دار السك الإمبراطورى ميداليات تزدان بصور جوبيتر وأبوللو ومارس وهرقل . وكان قسطنطين يتهلل بالفرح عندما يمثلونه برموز أبوللو إله النور والشعر ؛ وقد زخرت مذابح أبوللو بما قدم من قرابين ونذور .

وكانت المسيحية تتسلل إلى قلوب الرومان فإذا ما اكتشف أمرها أنزل

الأباطرة بمعتنقيها أقسى أنواع العذاب ، ونجح قسطنطين فى فتح إيطاليا . ومال قلبه إلى الدين الجديد فأصدر مرسوم ميلان ، مرسوم التسامح مع رعاياه المسيحيين ، فأعاد السلام إلى الكنيسة الكاثوليكية وأقر الحرية الدينية ، فأصبح حبيب السماء ونائب الله فى الأرض .

وأجل قسطنطين تعميده فالتعميد قضاء مبرم على الذنوب وعودة النفس إلى طهارتها الكاملة وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . إنه شعيرة لا تتكرر فراح يشبع شهواته فى حرية مطلقة وإن تظاهر بالبحث عن جوهر الحقيقة . حتى إذا ما تمدد على فراش مرضه الأخير دعا الأساقفة إلى قصر نيقوميديا لتعميده ، ثم زعم أنه سيقضى بقية حياته فى نسك يليق بتلميذ للسيد المسيح .

لم تدنس عاصمة الشرق الجديدة بعبادة الأوثان فقد رفع قسطنطين المسيحية على عرش العالم الرومانى ، فراحت روما تحاكى القسطنطينية فعمد فيها اثنا عشر ألف رجل فى سنة واحدة ، وكان الإمبراطور يمنح كل من يتحول إلى المسيحية رداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . وسار الإنجيل فى ركاب الجيوش وفى قوافل التجارة وفى السفن فانتشر فيما وراء حدود الولايات الرومانية . ورحب المتبربرون بالدين الجديد الذى اعتنقه أعظم ملك وأعظم إمبراطورية على وجه الأرض . وأصبح الصليب مقدسا بين القوط والألمان الذين انضموا تحت لواء روما .

أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة بين المسيحيين ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين العالم المسيحى ، ففى الإسكندرية قام آريوس بقول إن « كلمة الله » كان خلقا تلقائيا معتمدا على غيره ، خلقته إرادة الآب من العدم . وهذا الابن الذى صنع كل شىء قد ولد قبل العوالم ، وأن أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة إذا قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود

لم يكن أزليا بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق « كلمة الله » ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . ولقد نفخ الآب سبحانه فى ابنه الوحيد من روحه وغمره فى فيض من نور مجده وعظمته ، ولقد رأى هذا الابن — وهو صورة منظورة لكمال غير منظور — على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش ألمع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذى كان يشعه كان منعكسا عليه ، وكان يحكم العالم خضوعا لإرادة أبيه ومليكه شأنه فى ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس .

ولم يعجب ذلك الرأى كنيسة القسطنطينية فقام معارضون لآريوس يقولون إن « كلمة الله » يمتلك كل الكمال الكامن الذى لا يمكن أن ينتقل إلى غيره ، وأن الجوهر الإلـٰهى يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهى كائنات تشترك فى أنها متساوية وأبدية ، وإنه لمن التناقض أن يقال إن أيا منها لم يكن له وجود أو أن وجودها سوف ينتهى يوما ، ولقد حاول أنصار هذا الفرض الذى يبدو أنه يشكل ثلاثة آلـهة مستقلة ، أن يبقوا على وحدة « خالق الكل » الذى يبرز دوره الملهم فى شكل الدنيا ونظامها بقولهم إن هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقا دائما فى عملها وفى التطابق الجوهرى لمشيئتها .

وظهر رأى ثالث يقول بوجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الإلـٰهية فى أسمى درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة أبدية فى زمانها لا نهائية فى مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض وفى الكون كله . ومن ثم فهى تفرض نفسها على العقل الحائر باعتبارها كائنا واحدا وحيدا يستطيع فى نطاق الكياسة وفى نظام الطبيعة أن يتجلى فى أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر إليه من جوانب مختلفة . وبمقتضى هذا الفرض يسمو التثليث المادى الحقيقى ويصبح تثليثا من حيث الأسماء ومن حيث الصفات

المجردة التى لا تبقى إلا فى العقل الذى يفهمها . وهكذا لا يعود « كلمة الله » شخصا بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق إلا مجازا على العقل الأزلى الذى كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذى صنع كل شىء . ويغدو تجسيد « كلمة الله » مجرد وحى من الحكمة الإلٰهية هبط على الإنسان « يسوع » فملأ جوانب نفسه وهدى كل أعماله .

وأخذ الناس يدورون فى الدائرة اللاهوتية . وانقسمت إمبراطورية الرومان والولايات الخاضعة لها حول التثليث فرأى قسطنطين أن يضع حدا لذلك الانقسام الذى يهدد إمبراطوريته بالتصدع ، فابتدع بدعة المجامع الدينية لحسم الخلافات بين المذاهب المتناحرة ، فاجتمع مجمع نيقية وأقر المجمع مبدأ أن الآب والابن من جوهر واحد ، ووافقت على ذلك الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت . ثم تتابعت المجامع فمجمع ينبذ مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم يأتى مجمع آخر فيقبله ، ومجمع يصف أتباع آريوس بالمروق ، ومجمع آخر يكيل لهم المديح .

وجاء قسطنطيوس بعد أبيه قسطنطين فلم يستخدم سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب بل شجع الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف ، وأجج نيران المهاترات الكلامية ، فامتلأت الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج إلى اجتماعات المجالس الكنيسية ، ويعملون جاهدين على إخضاع الطائفة كلها إلى آرائهم الخاصة ، فكاد الخراب يحل بكنائسهم العامة نتيجة رحلاتهم التى كانت تستهدف البحث عن العقيدة الصحيحة .

كان قسطنطيوس معارضا للعقيدة التى أقرها مجمع نيقية ، فكان يمقت مذهب الطبيعة الواحدة فشهر سيفه لمحاربة تلك العقيدة وفرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون الإشارة إلى أنهما من مادة واحدة .

ومرت الأيام والعداوة تشتد ضراوة بين المسيحيين ، ومزقت مملكة الله الخلافات وسمت طائفة نفسها الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على من عداها اسم الهراطقة . واستمرت الخلافات بين الشرق والغرب واتسعت الهوة بين المذاهب المتنافرة المتطاحنة ، وتشعبت حتى أصبح التوفيق بينها ضربا من المحال .

وفى ذلك الوقت كانت الحنيفية التى جاء بها إبراهيم خليل الرحمن قد فسدت فى جزيرة العرب فعبد الناس الأصنام ، وقد أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل ، وحجوا إلى الأصنام ونحروا لها القرابين وقربوا الهدايا ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر ، وأحلوا وحرموا ، وكانوا يعتقدون بعبادة الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه لكن بطرق مختلفة : فرقة قالت ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا وساطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه ، وفرقة قالت : الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله . وفرقة قالت جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته ، وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطانا موكلا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

واعتنق فريق من العرب المجوسية أخذوها عن الحيرة ، فقالوا الصانع اثنان ، ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين مدركين سميعين بصيرين . وهما مختلفان فى النفس والصورة متضادان فى الفعل والتدبير ، فالنور فاضل حسن نقى طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعة منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شيء من الضرر ، والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح وقبح

المنظر ، ونفسها نفس شريرة بخيلة سفيهة منتنة مضرة منها الشر والفساد .

وكانت اليهودية فى يثرب وقد انتشرت منها إلى اليمن . وكانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وقد اجتمع على النصرانية فى الحيرة قبائل شتى من العرب ودخلت الحبشة فى المسيحية . وأراد نصارى الحبشة أن يتصلوا بنصارى الشام وأن يرفعوا الصليب على جزيرة العرب فبعث النجاشي قائده أبرهة ليقوض الكعبة بيت العرب المقدس الذى تجمع حوله كل القبائل العربية وإن اختلفت مذاهبها ، فانطلق أصحاب الفيل ليزيلوا من الوجود أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

أباد الله أصحاب الفيل لأن إرادته شاءت أن يفيض نور الهداية مرة ثانية من بيته العتيق على العالمين ، فما إن اندحر جيش المعتدين حتى ولد الهدى فى البلد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ،وانقضت أربعون سنة وأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، فقام محمد بن عبد الله يدعو قومه إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة .

وآلت مقاليد الإمبراطورية الرومانية إلى هرقل . وقد جاءه المتبصرون والعرافون ليقرءوا له طوالع عصره فقالوا له فى حزن عميق إن ملكه سيزول على يد شعب مختون . وفكر هرقل ودبر فلم يجد شعبا مختونا غير اليهود يمكن أن يهدد ملكه ، فصب عليهم سوط عذاب وأذاقهم من الاضطهاد ألوانا .

وقام محمد — ﷺ — ينذر قومه ويبلغهم رسالة ربه ، فكان صراع بين الهدى والضلال ، وكانت الهجرة وكانت الحروب بين الأنصار والمهاجرين وبين كفار مكة ، وكانت انتصارات الإسلام الباهرة ، حتى إذا ما وقع صلح الحديبية بين المسلمين وقريش أرسل — ﷺ — الرسل إلى ملوك الأرض

يدعوهم إلى الإسلام .

وذهب دحية الكلبى إلى الشام يحمل كتاب رسول الله — ﷺ — إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيه إلى الإسلام ، فقابل هرقل دحية بالترحيب وبعث معه هدايا لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن ما إن غاب دحية عن عينيه حتى عادت النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيستل منه الملك تؤرقه ، فالعرب الذين بعث الله فيهم رسولا منهم شعب مختون ، وإن النبوءة لقادرة على أن تجمع أشتات هذا الشعب ، وهى قادرة على أن تحمله إلى غزو العالم وتقويض الإمبراطوريات التى نخر فيها سوس الفساد . فبيت هرقل النية على مناصبة الأمة التى بدأت تلتف حول رسولها العداء ، وعزم على أن يطعنها طعنة قاضية قبل أن يشتد ساعدها .

وجمع هرقل الجموع ، وبلغ رسول الله — ﷺ — أن إمبراطور الروم يتأهب لغزو بلاده . إنه عليه الصلاة والسلام يمقت أن يبدأ بالعدوان وهو محب للسلام ، ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى يدهمه عدوه فى عقر داره ، فأرسل جيشا بقيادة زيد بن حارثة للقاء هرقل وكانت غزوة مؤتة ، وحارب جيش الأمراء حربا لا هوادة فيها و لم تكن القوى متكافئة ، فانصرف خالد بن الوليد بالناس . فلما أقبل بهم قافلا جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرّار ، فررتم فى سبيل الله .

فيقول رسول الله — ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وكان فتح مكة ، واتفقت كلمة العرب لأول مرة منذ أن نشأ المجتمع المكى حول بئر زمزم ، وكانت الوحدة فعادت مخاوف هرقل تقلقه ، فها هو ذا شعب مختون فتى يرفع رأسه ويتأهب ليزحف ليحتل مكانه بين العالمين . إنه الشعب

الذى تنبأ المنجمون بأن نهاية ملكه ستكون على يديه ، فراح يجمع الجموع ليطيح بذلك الشعب قبل أن تثبت أقدامه على الأرض .

وبلغ رسول الله — ﷺ — أن هرقل يتأهب ليعاود الكرة ويسير إلى يثرب ليطعن قلب الإسلام فعقد — ﷺ — العزم على أن يخرج بنفسه لتحطيم غرور الرومان وليرشد أتباعه إلى طريق الانطلاق .

٢

الحر شديد والعرق يتفصد من الأجسام ، والناس فى عسرة فقد انتشر الجدب فى البلاد . وبرقت فى النفوس بارقة أمل فقد أينعت البساتين وطابت الثمار ، فهوت أنفس الناس إلى المقام فى ثمارهم وظلالهم . وراح ـ ﷺ ـ يأتى القوم ويقول لهم إن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وإن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وإن لخم وجذام وعاملة وغسان قد خرجت معه وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء .

وندب رسول الله ـ ﷺ ـ الناس إلى الخروج وكان عليه السلام قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا ما كان من هذه الغزوة لبعد الشقة وشدة الزمن وكثرة العدو وليأخذ الناس أهبتهم ، وأمر الناس بالجهاز فراحوا يتجهزون وقد عادت غزوة مؤتة إلى الذاكرة ؛ لقد قتل فيها زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب أمراء الجيش ، وقد استطاع خالد بن الوليد أن يقفل راجعا بجيش المسلمين بعد خدعة بارعة خدع بها جيوش الرومان .

كان المؤمنون يتحرقون شوقا للقاء الأعداء ليثأروا مقتل إخوانهم ، وكان المنافقون يجاهدون لبث روح الهزيمة فى صفوف المسلمين . وبعث عليه السلام إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فإذا بالرجال الذين أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين يتدفقون على

المدينة من كل حدب ، وإذا بالصدقات تحمل من مكة ومن القبائل إلى مدينة الرسول ، وإذا بأناس يتثاقلون إلى الأرض .

وذات يوم وبينا رسول الله — ﷺ — يتجهز لغزو الروم ، قابل الجد بن قيس — أحد بنى سلمة — فقال له :

— يا جد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر ؟

— يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عُجبا بالنساء منى . وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه — ﷺ — وقال :

— قد أذنت لك .

ولامه ولده عبد الله وقال له :

— والله ما يمنعك إلا النفاق . سينزل الله فيك قرآنا .

فأخذ نعله وضرب به وجه ولده .

فأنزل الله فى الجد بن قيس : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[١] .

فقال له ولده :

— ألم أقل لك ؟

— اسكت يالكع[٢] ، فوالله لأنت أشد علّى من محمد .

وراح المنافقون يبثون سمومهم ويفحون[٣] للناس فحيح الأفاعى

---

(١) التوبة ٤٩ .

(٢) اللكع : اللئيم .

(٣) الفحيح : صوت الأفعى .

ويقولون هامسين :

ـــ لا تنفروا فى الحر .

كانوا ينسلون فى حذر ويتهامسون وهم يتلفتون حتى لا يصل همسهم إلى مسامع الرسول عليه السلام أو مسامع أصحابه المخلصين . كانوا يرجون أن ينجحوا فى إلقاء بذور الزهادة فى الجهاد فى قلوب المؤمنين دون أن يفتضح أمرهم ، ولكن الله كشفهم وأنزل فيهم : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرِّق عليهم بيت سويلم .

وانطلق طلحة والذين معه إلى الدار وأشعل فيها النار ، فانخلعت قلوب من فيها وهبوا مفزوعين يريدون النجاة فاقتحم الضَّحاك بن خليفة من البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا ، فقال الضَّحاك فى ذلك :

كادت وبيتِ الله نارُ محمد
يشيط بها الضَّحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طَبَّقت[2] كبس[3] سويلم
أنوء على رجلى كسيرا ومرفقى

(١) التوبة ٨١ ، ٨٢ .　　(٢) طبقت : علوت .

(٣) كبس : البيت الصغير .

سلام عليكـــــم لا أعــــود لمثلهـــــا
أخـــاف ومـــن تشمـــل بـــه النـــار يحرق

وأخذ عليه السلام يحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل — وهى تسعمائة بعير ومائة فرس — والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية ؛ وعند ذلك قال — ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض .

وظل من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان .

وجاء عثمان بن عفان بألف دينار فصبها فى حجر النبى — ﷺ — ، فجعل رسول الله — ﷺ — يقلبها بيديه ويقول :

— ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .. ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم . فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثانى .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، فقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف خزانتين من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله تعالى .

وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة بما عنده ، وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر .

وجاء عبد الله ذو البجادين إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ادع لى بالشهادة .

فقال — ﷺ — :

— ائتنى بلحاء (قشرة) شجرة .

فأتاه بذلك فربطه — ﷺ — على عضده وقال :

— اللهم حرم دمه على الكفار .

— يا رسول الله ليس هذا ما أردت .

— إنك إذا أخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد .

ولم يكن لعبد الله إلا بجاد واحد[1] ، فشقه نصفين فأتزر بواحد وارتدى بالآخر . وقدم المدينة وأسلم وقرأ قرآنا كثيرا وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله .

وأتاه أصحاب مسجد الضرّار فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

— إنى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

وجاء — ﷺ — سبعة أنفس من فقهاء الصحابة كانوا متشوقين للغزو فى سبيل الله ، ولكنهم كانوا فقراء لا يجدون ما يركبون فسألوه أن يحملهم ، فقال — ﷺ — :

— لا أجد ما أحملكم عليه .

---

(١) البجاد : الكساء المخطط الغليظ .

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون . ورأى العباس بكاء البكائين فتأثر غاية التأثر فحمل منهم اثنين ، وحمل منهم عثمان بن عفان ثلاثة ، وحمل ياميز بن عمرو النضرى اثنين دفع لهما ناضحا له وزود كلا منهما صاعين من تمر .

وكان هناك أناس آخرون يتحرقون شوقا للخروج مع رسول الله — ﷺ — لقتال الروم ، وكان يقعدهم عن التجهز أنهم لا يملكون ناقة ولا بعيرا ، فالشقة بعيدة والحر شديد وما يستطيع رجل أن يطوى المسافة بين يثرب وتبوك على قدميه . وكان أبو موسى الأشعرى وبعض أصحابه يجلسون مطرقين قد نزل بهم هم ثقيل ، فهم يرون إخوانهم يتأهبون للخروج بينا هم لا يجدون مطية تحملهم لينطلقوا مع رسولهم الكريم .

واتجهت الأبصار إلى أبى موسى ، فرسول الله — ﷺ — ينصت إليه وهو يرتل القرآن ترتيلا حتى إذا ما انتهى من تلاوته يقول له عليه السلام : « إنك مزمار من مزامير داود » . وطلبوا منه أن ينطلق إلى رسول الله — ﷺ — يسأله الحملان لهم :

وذهب إليه أبو موسى وقال :

— يا نبى الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم .

— والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه .

فرجع أبو موسى حزينا إلى أصحابه من منع النبى — ﷺ ، ومن مخافة أن يكون النبى عليه السلام وجد فى نفسه حيث حلف على ألا يحملهم ، وأخبرهم الذى قال النبى — ﷺ — فلم يلبث إلا سويعة إذ سمع بلالا ينادى :

— أين عبد الله بن قيس ؟

فأجابه قال :

ـــ أجب رسول الله ، النبى ـــ ﷺ ـــ يدعوك .

فلما أتاه قال عليه السلام :

ـــ خذ هذه الستة الأبعرة فانطلق بها إلى أصحابك .

وأخذها أبو موسى وانطلق بها إلى أصحابه فتهللت وجوههم بالبشر ، وسرعان ما غاضت ألوانهم لما قال أحدهم :

ـــ أغلقنا رسول الله ـــ ﷺ .

حملوه على يمين الغلق ، حلف أن لا يحملهم ثم حملهم فقالوا :

ـــ فوالله لا بارك لنا فى ذلك .

فأتوه وبثوه مخاوفهم فقال : عليه صلوات الله وسلامه :

ـــ أنا ما حملتكم ، الله حملكم .

ثم قال :

ـــ إنى لا أحلف يمينا فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير .

إنه ـــ ﷺ ـــ إنما حلف ألا يتكلف لهؤلاء حملا بقرض ، فهو لم يحنث فى قسمه . وقد أراد استثبات قاعدة على الرغم من أنه لم يحنث فى يمينه ، فقال إنه لو قدر وحلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فهو يكفر عن يمينه ويأتى الذى هو خير .

وتأهب عليه السلام للخروج ، وخلف محمد بن مسلمة الأنصارى على المدينة ، وخلف عليا كرم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم .

وأرجف بعلى المنافقون وقالوا :

ـــ ما خلفه إلا استثقالا له .

وسار رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالناس وكانوا ثلاثين ألفا وكانت الخيل عشرة

آلاف فرس . وعسكر على ثنية الوداع ، وجاء عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان فى جيش لا يقل كثيرا عن جيش المؤمنين وعسكر أسفل جيش رسول الله — ﷺ .

وصوبت أعين الشك إلى عبد الله بن أبى ، أينطلق رأس المنافقين مع رسول الله — ﷺ — ليحارب الروم ؟ أطهر الله قلبه وأضاء جوانحه بأنوار اليقين ؟ وآن أوان الرحيل فقال عبد الله بن أبى فى سخرية :

— يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنما أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال .

لم يبرأ عبد الله بن أبى من مرض قلبه . إنه لم يستطع أن ينسى يوما أن محمدا قد حرمه التاج الذى كاد الأوس والخزرج أن يضعوه على رأسه لولا هجرته عليه السلام التى قضت على كل آماله وأمانيه . وتخلف عن الخروج وهو يرجو أن يهزم الروم المسلمين هزيمة تشفى غليله الذى كان يزداد ضراوة على مر السنين .

واجتمع جمع من المنافقين فقال بعضهم لبعض :

— أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنهم غدا مقرنون فى الحبال .

وقال رسول الله — ﷺ — عند ذلك لعمار بن ياسر :

— أدرك القوم فإنهم قد احترفوا فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلتم كذا وكذا .

فانطلق إليهم عمار فقال ذلك ، فأتوا رسول الله — ﷺ — يعتذرون إليه وقالوا :

— إنما كنا نخوض ونلعب .

فأنزل الله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »[(١)] .

وجاء الضعفاء والمقلون من الأعراب ليؤذن لهم فى التخلف فأذن لهم وكانوا اثنين وثمانين رجلا ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر . وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير عذر وكانوا ممن لا يتهم فى إسلامه .

وتأهب رسول الله — ﷺ — للسير فعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر الصديق ، ورايته العظمى للزبير بن العوام ، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء .

وقطع جيش المسلمين ثلاثة أميال ثم نزل بالجرف ، وإذا بعلى بن أبى طالب قادم وهو باسر الوجه فقد بلغه ما يرجف به المنافقون ؛ إنه يحمل سلاحه وهو يريد أن ينطلق مع ابن عمه الحبيب ليحارب بين يديه كما حارب فى كل المشاهد .

ونظر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى علىّ فى استفسار فقال على :

— يا نبى الله زعم المنافقون أنك ما خلفتنى إلا استثقلتنى وتخففت منى .

— كذبوا ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك . أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟

---

(١) التوبة ٦٥ .

٣

انبسطت أشعة الشمس كأنها تبر فى الأفق الشرقى ، ثم ارتفعت ترسل اللهب فأوى الناس إلى الدور ، وخرجت طائفة إلى الحقول والبساتين تبحث عن الظل الظليل والنسيم العليل ، فقد كان اليوم شديد الحر ثقيل الهواء لكأنه كابوس على الصدور .

وجاء أبو خيثمة والعرق يتفصد منه والهواء الساخن يلفح وجهه ، وعلم أن رسول الله — ﷺ — قد خرج منذ أيام لقتال الروم فدخل على أهله ، فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردتا فيها ماء وهيأتا طعاما . فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا فتقاصرت نفسه وقال :

— رسول الله — ﷺ — فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء ؟ ما هذا بالنَّصف .

ورنا إليهما رنوة طويلة ثم قال :

— والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله — ﷺ — فهيئا لى زادا .

ففعلتا ، وأخذ سيفه ورمحه وامتطى راحلته وانطلق فى الحر الشديد يطلب رسول الله — ﷺ .

كان يعرف الطريق فيا طالما انطلق فيه إلى الشام ، ولقد خرج مع جيش

المسلمين الذى التقى بالروم فى مؤتة . إنه ليرى بعين خياله فرسان الروم على ظهور الجياد وقد تألقت فى الشمس خوذاتهم وعكست دروعهم أشعتها الوهاجة لتبهر الأبصار ، وقد رفع النسر الرومانى على رءوس الرماح يرفرف فى الهواء .

وعادت معركة مؤتة تدور فى رأسه . إنها معركة رهيبة لا يستطيع أن ينساها مهما مرت السنون . كانت بدايتها غريبة وكانت نهايتها عجيبة ؛ ثلاثة آلاف من صناديد المسلمين يخرجون لحرب أعظم جيوش الأرض قاطبة ، الجيش الذى هزم الفرس وأعاد الصليب إلى بيت المقدس ، إنه ليذكر عبد الله ابن رواحة وهو يودع الناس . وإنه ليرى فى وضوح دموعه التى سالت حتى بللت لحيته . وإن الحوار المؤثر الذى دار بين المودعين وبين ابن رواحة يرن فى وجدانه فيبهره من الأعماق :

ـــ ما يبكيك يا بن رواحة ؟

ـــ أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل فذكر فيها النار : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا »[1] . فلست أدرى كيف لى بالصَّدَر بعد الورود .

ـــ صحبكم الله دفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

لكنـنـــــى أسأل الـــــرحمن مغفـــــرة
وضربــة ذات فـــرغ تقــذف الزبــدا[2]

---

(١) مريم ٧١ .

(٢) ذات فرغ : ذات سعة ، والزبد هنا رغوة الدم .

أو طعنــــة بيــــدَى حـــرَّان مجهـــرة[1]
بحربــــة تنفـــذِ الأحشاء والكبـــــدا
حتـــى يقـــال إذا مَـــرُّوا على جـــدثى
أرشده الله مـــن غـــاز وقـــد رشدا

ورأى أبو خيثمة عبد الله بن رواحة وهو يودع رسول الله — ﷺ — ، فأصاخ السمع كأنما يتلقى من الماضى ترجيع صوت شاعر الرسول :

فثـــبت الله مـــا آتـــاك مـــن حَسَن
تثبـيت مـــوسى ونصرا كالـــذى نُصروا
إنى تفـــرست فـــيك الخير نافلـــة
الله يعلـــم أنى ثـــابت الـــبَصر[2]
أنت الـــرسول فمـــن يُحـــرم نوافلَـــه
والوجـــه منـــه فقـــد أزرى بـــه القـــدر

وقفز خيال أبى خيثمة إلى المعركة . ثلاثة آلاف من المسلمين أمام هرقل قاهر الفرس فى مائة ألف من الروم وقد انضم إليهم رجال من لخم وجُذام والقيْن وبهراء وبلى . قوى غير متكافئة .

ورأى فريق من المسلمين أن يكتبوا إلى رسول الله — ﷺ — فيخبروه بعدد عدوهم ، فإما أن يمدهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمره ، واحتلت صورة ابن رواحة صفحة ذهنه ودوى صوته فى جوانحه كأنما قد تردد بين السماء والأرض :

---

(١) مجهرة : شديدة .
(٢) فى هذا البيت إقداء ، وهو اختلاف حركة الراء من ضم إلى كسر .

— يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة .

وقال أبو خيثمة لنفسه وهو يجفف العرق المتصبب منه :

— وكانت الشهادة .

زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط فى رماح القوم ، جعفر بن أبى طالب يلتقط راية رسول الله عليه السلام — حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، ومس أذنى خيثمة ما ارتجز به جعفر قبل أن يقتل :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها
علىّ إذ لاقيتها ضرابها

وتذكر عبد الله بن رواحة بهيئته المهيبة وشجاعته الفائقة وإيمانه العميق . إنه أخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، ثم نزل وسيفه فى يده ، فتقدم فقاتل حتى قتل .

ثلاثة آلاف يقاتلون مائة ألف أو يزيدون ، فماذا كان خالد بن الوليد يستطيع أن يفعل إلا أن ينصرف بالناس !

وراح خيثمة يفكر فى العلاقة التى ساءت بين المسلمين والروم ، فالمسلمون فى أيام محنتهم فى مكة كانوا متحمسين للروم لأنهم أهل كتاب وكانوا يتمنون انتصارهم على الفرس . فلما انتصرت فارس عليهم ساء ذلك المسلمين فنزل القرآن المجيد يؤكد انتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة : « ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.فى بضع سنين لله

الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ؛ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »[1] . وكانت سخرية من قريش . وكان رهان بين أبى بكر الصديق وأمية بن خلف ، وتصرمت الأيام وكانت الهجرة وكانت غزوة بدر وكان انتصار المسلمين المبين وجاءت الأنباء بانتصار الروم على الفرس وسادات قريش صرعى فى القليب ، ففرح المؤمنون بنصر الله وخروا للأذقان سجدا .

وأرسل — صلوات الله وسلامه عليه — رسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام ، فقال فى دهاء : « لو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقيه » . إنه عرف صدق النبى — ﷺ — وإنما شح بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام .

إنه بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة جمع الجموع بعد سنتين ليسير إلى يثرب ليقضى على النهضة التى انبعثت بها قبل أن يستفحل أمرها وتهدد سلطانه ..ولكن رسول الله عليه السلام بعث إليه صفوة جنوده ليحاربوا بالإيمان جحافل الرومان الذين كانت قلوبهم هواء ، وكانت غزوة مؤتة وكان أن قتل أمراء الجيش بعد أن أثخنوا الجيش الرومانى بالجراح .

كانت معركة رهيبة انتشرت أنباؤها فى القدس وفى حمص وفى القسطنطينية ، بل وقرع خبرها أبواب روما ، وأحس هرقل أن سمعة جيشه باتت فى الميزان . مائة ألف أو يزيدون عجزوا عن أن يقضوا على ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجمع هرقل الإمبراطور الذى يزهو بنصره على الفرس آلاف الجنود والفرسان ليضرب العرب ضربة قاضية تعيد إليه هيبته ، ولكن رسول

---

(١) الروم ١ — ٥ .

الله — ﷺ — ندب الناس للخروج فخرجوا يطوون الصحراء فى القيظ الشديد ليهاجموا الذين يتأهبون للعداوة ، فالهجوم خير وسيلة للدفاع .

وخطر على قلب خيثمة قول رسول الله — ﷺ : « نُصرت بالرعب » . فرفَّت على شفتيه بسمة رضا . إن خبر خروج رسول الله عليه السلام بنفسه لحرب الروم سيصل إلى هرقل وسينزل الرعب فى قلبه وسيزلزله من الأعماق . سيهزم الجمع قبل أن يشهر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى وجوههم السلاح .

ورأى خيثمة رجلا على الطريق فحث راحلته حتى لحق به ، فقال :

— من ؟ عمير بن وهب !

— نعم .

— إلى أين ؟

— خرجت فى طلب رسول الله .

— الصحبة يا عمير .

— الصحبة .

٤

جيش المسلمين يسرى فى معبد الله . الشمس حامية ترسل لهيبها والعرق ينبثق من الأجسام وشنن الماء ترفع إلى الأفواه فتطفئ الظمأ وقتا قصيرا ثم سرعان ما يعود إلى الحلوق الجفاف . ورسول الله ـ ﷺ ـ يطوى الأرض طيا فهو يريد أن يصل إلى تبوك قبل أن يتم هرقل استعداده للقاء .

وهبت الرياح ساخنة تشوى الوجوه ، وتلفت المسلمون فلم يجدوا إلا ظل الصخور التى كانت تبعث حرارتها لكأنما كانت ألسنة نار ، وكانت الأرض كأتون ملتهب تلسع الأقدام . وأراد كثير من الرجال أن ينقضوا من على رواحلهم ولكنهم كانوا يرون رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مستويا على ناقته وما كان شابا وما كان حتى فى منتصف عمره ، فكانوا يتماسكون ويتحملون قسوة الحر الشديد ، فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

ثلاثون ألفا من الرجال يتحركون وقد صار هدفهم حدود الدولة الرومانية ، وتخلف أبو ذر الغفارى فقالوا لرسول الله ـ ﷺ :

ـ تخلف أبو ذر .

ـ دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، و إن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ومر رسول الله ـ ﷺ ـ بالحِجر ديار ثمود فسجى ثوبه على رأسه

واستحث راحلته وقال :

ـــ لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم .

ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئا وألا يتوضئوا به للصلاة ، ثم ارتحل بالناس وانطلق حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها ناقة صالح ، وقلب وجهه فى السماء وأخبر عليه السلام أصحابه أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة وقال :

ـــ من كان له بعير فليشد عقاله .

ونهى الناس فى تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه أخوه ، فخرج شخص وحده لحاجته فخنق ، وخرج آخر فى طلب بعير له ند فاحتمله الريح ، فأخبر بذلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؟

واستخلف على عسكره أبا بكر الصديق يصلى بالناس واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر فكان يطوف فى أصحابه على العسكر ، ثم أصبح الناس ولا ماء معهم فتوجهت الأبصار إلى السماء فإذا هى زرقاء صافية . وارتفعت الشمس ترسل أشعتها الحامية فتململ الناس وراحوا يحتمون بظل الصخور ، وسرعان ما نفثت الصخور حرارتها فانبثق العرق من الأجسام وجفت الحلوق وأخذ الناس يلهثون من الظمأ وكاد يلحق بهم البوار ، فقد حصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم . فقاموا إلى إبلهم ينحرونها ويشقون أكراشها ويشربون ماءها ويجعلون ما بقى على أكبادهم . وراح أبو بكر الصديق ينظر إلى الرجال من بين الدموع التى ترقرقت فى عينيه ، أيموت الناس عطشا ورسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فيهم ؟!

وذهب أبو بكر إلى رسول الله عليه السلام وقال :

ـ يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيرا ، فادع الله لنا .

ـ أتحب ذلك ؟

فدعا فأرسل الله سحابة فمطرت فأخذ الناس يستقبلون المطر بوجوههم وقد تهللت أساريرهم وارتفعت الأصوات بشكر الله وقد فتحت الأفواه لاستقبال الغيث المنهمر وملئوا شننهم واحتملوا ما يحتاجون إليه . ومر رجل من الأنصار بآخر متهم بالنفاق فقال له :

ـ ويحك قد ترى .

فقال المنافق دون خجل :

ـ سحابة مارة .

وقال آخر لمنافق آخر :

ـ ويحك هل بعد هذا شيء ؟

ـ إنما مطرنا بنوء كذا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذّبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾(١) .

وتباطأ جمل أبي ذر لما به من الإعياء والتعب فتخلف عن الجيش ، فقال الناس لرسول الله ـ ﷺ :

ـ يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره .

ـ دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم . وإن يك غير ذلك فقد

---

(١) الواقعة ٨٢ ـ ٨٥ .

أراحكم الله منه .

وانطلق الجيش وأبو ذر يحاول أن يستنهض بعيره فذهبت ، محاولته أدراج الرياح ، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله — ﷺ — ماشيا فأدركه نازلا فى بعض المنازل . ونظره شخص يمشى فقال :

— يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كن أبا ذر .

فلما تأمله القوم قالوا :

— يا رسول الله هو والله أبو ذر .

فقال رسول الله — ﷺ :

— رحم الله أبا ذر . يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده .

وسار جيش المسلمين حتى لاحت أرباض تبوك وأبو خيثمة وعمير بن وهب يغذان السير ليلحقا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولاحت لأعينهما جماعة المسلمين فالتفت أبو خيثمة إلى عمير وقال :

— إن لى ذنبا فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله — ﷺ .

وتخلف عمير وتقدم أبو خيثمة ، ورأى الناس رجلا يتقدم فقالوا :

— هذا راكب مقبل .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كن أبا خيثمة .

— يا رسول الله هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— أولى لك يا أبا خيثمة .

وارتجف أبو خيثمة فرسول الله يتوعده ويهدده ، وسرعان ما استعاد رباطة جأشه فراح يخبر رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ — خيرا ودعا له بخير .

وأنشد أبو خيثمة :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا
أتيت التى كانت أعفَّ وأكرما

وبايعتُ باليمنى يدى لمحمد
فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما

تركت خضيبا فى العريش وصرمة
صفايا كراما بُسرها قد تحمَّما[1]

وكنت إذا شك المنافق أسمحت
إلى الدين نفسى شطره حيث يمما[2]

وأسدل الليل أستاره ولم يبق على تبوك غير تلك الليلة ، فالتفت عليه السلام إلى بلال وقال له :

— اكلأْ لنا الفجر .

وذهب — صلوات الله وسلامه عليه — لينام ونام أصحابه ، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه . وظل عليه السلام نائما فلما استيقظ نظر إلى الأفق الشرقى فوجد أن الشمس قد ارتفعت قيد رمح ، فذهب إلى حيث كان بلال وقال له :

---

(١) الخضيب : المخضوبة ، والصرمة : جماعة النخل ، وصفايا : كثيرة الحمل ، والبسر : التمر قبل أن تطيب .

(٢) أسمحت : انقادت ؛ وشطره : نحوه وقصده .

— ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر ؟

— يا رسول الله ذهب بى مثل الذى ذهب بك .

وصلى رسول الله — ﷺ — وصلى الناس ثم ركبوا ، فجعل بعضهم يهمس إلى بعض :

— ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟

فقال النبى — ﷺ — :

— ما هذا الذى تهمسون دونى ؟

— يا رسول الله بتفريطنا فى صلاتنا .

— أما لكم فى أسوة حسنة ؟ ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجىء وقت أخرى .

وبلغ رسول الله — ﷺ — تبوك بعد سبعة أيام من خروجه من يثرب ، وكان عليه السلام قد أشرف على الستين وكان أكثر رجال الجيش قوة وحيوية ، وتقع تبوك على حدود الدولة الرومانية وهى واحة خضراء خصبة ، الحدائق تمتد على مدى البصر والأشجار باسقة والسكان يقابلون الذين قطعوا الفيافى والقفار لحرب الروم بالترحاب ، فقد عرف عن المسلمين العدل والإحسان بينا كان الناس يقاسون الأمرين فى ظل الرومان قساة الأكباد .

وراح الجنود يعالجون أقدامهم المكدودة المجروحة بعد أن ألقى الله الرعب فى قلوب الرومان فانسحبوا إلى الشام وقد آثروا السلامة ، ففى غزوة مؤتة فعل ثلاثة آلاف مسلم بهم الأفاعيل فهل يغامرون بتجربة أخرى أمام ثلاثين ألفا الموت إليهم أحب من الحياة ، و على رأسهم رسول الله — ﷺ ؟

ذاب الجيش الرومانى و لم يظهر لهرقل أثر ، فبعث رسول الله — ﷺ —

كتائب خفيفة إلى المناطق المجاورة ، فجاء يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء وهى قرية بالشام وأهل أذرُح ، فعرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية فقبل يوحنا أن يدفع الجزية لرسول الله وأهدى له بغلة بيضاء . فكساه رسول الله — ﷺ — بردا وكتب له — ﷺ — ولأهل أيلة كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل البر وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يجوز ماله دون نفسه وإنه لطيبه لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوه ماء يرونه ولا طريقا يريدونه من بر ولا بحر » .

وكتب — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد . وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين » .

وسجا الليل ونام الناس وراح عبد الله بن مسعود يتقلب فى نومه ، وأحس حركة خفيفة ففتح عينيه فرأى شعلة نار فاتبعها ينظر إليها ، فإذا رسول الله — ﷺ — وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات بالحمى وإذا هم قد حفروا له ورسول الله — ﷺ — فى حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه وهو يقول :

— أدليا إلىّ أخاكما .

فأدلياه إليه فلما هيأه لشقه قال :

— اللهم قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه .

فقال عبد الله بن مسعود فى نفسه :

— ياليتنى كنت صاحب الحفرة !.

(غزوة تبوك)

٥

دعا رسول الله ــ ﷺ ــ خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكا عليها وكان نصرانيا ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لخالد :

ــ إنك ستجده يصيد البقر .

فخرج خالد فى خمسمائة فارس من فرسان المسلمين حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين رآه وهو على سطح له ومعه امرأته . كانت الليلة مقمرة صائفة وقد خرجت البقر الوحشية تمرح فى ضوء القمر أمام الحصن ، فقالت امرأة أكيدر :

ــ هل رأيت مثل هذا قط ؟

ــ لا والله .

ــ فمن يترك هذه ؟

ــ لا أحد .

فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه يطاردون البقر ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ــ ﷺ ــ فأخذته وقتلوا أخاه . وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ــ ﷺ .

وقدم رجل بالقباء على رسول الله ــ ﷺ ــ فجعل المسلمون يلمسونه

بأيديهم ويتعجبون منه ، فقد كانوا قوما يعيشون عيشة بسيطة لا يعرفون بذخ العيش ولا فاخر الثياب فما كانت الدنيا تغرهم وما كانوا يقدرونها فوق قدرها ، فما هي إلا دار ممر لدار مقر وقد جعلوا همهم الآخرة .

وقدم خالد بأكيدر على رسول الله — ﷺ — فاستقبله عليه السلام بالترحاب وهش له وبش ، فاطمأن أكيدر بعد أن أفزعه قتل خالد لأخيه حسان ، وعرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية ، فقبل أكيدر الجزية وحقن دمه ثم خلى سبيله .

ومرت الأيام ورسول الله — ﷺ — فى تبوك و لم يظهر لجيش الروم أثر ، فاستشار — ﷺ — أصحابه فى مجاوزتها فقال له عمر :

— إن كنت أُمرت بالسير فسر .

فقال — ﷺ — :

— لو أُمرت بالسير لم أستشركم فيه .

— يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا .

كان خالد قد ساق أمامه ألفى بعير وثمانمائة شاة لما جاء بأكيدر ، وقد أهدى لرسول الله عليه السلام بعض أهل الكتاب هدايا كثيرة . وأهداه بعضهم جبنة فدعا بسكين فسمى الله وقطع وأكل ، ثم انصرف — ﷺ — قافلا إلى المدينة .

وسرى جيش المسلمين بالليل وكان أبو رهم الغفارى قريبا من رسول الله — ﷺ — وألقى الله عليهم النعاس ، فطفق أبو رهم يستيقظ وقد دنت راحلته من راحلة رسول الله — ﷺ — فيفزعه دنوها منه مخافة أن يصيب رجله عليه السلام فى الغرز ، فطفق يحوز راحلته عنه حتى غلبته عينه فى بعض الطريق وهم

فى بعض الليل ، فزاحمت راحلته راحلة رسول الله ـ ﷺ ـ ورجله فى الغرز ، فما استيقظ إلا بقوله عليه السلام :

ـ حَسٌّ .

ـ يا رسول الله استغفر لى .

كانوا لا يحبون أن يوقظوه عليه السلام فمن يدرى قد يكون يتلقى وحى ربه ، وكانوا يتركونه إذا نام حتى يستيقظ ، فخشى أبو رهم أن يكون قد أساء إليه بإيقاظه فقال له عليه السلام فى بساطة :

ـ سر .

فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يسأله عمن تخلف من بنى غفار فيخبره به ، فقال وهو يحاوره :

ـ ما فعل النضر الحمر الثُّطاط (صغير نبات شعر اللحية) ؟

فحدثه بتخلفهم .

ـ فما فعل النضر السود الجعاد القصار ؟

ـ والله لا أعرف هؤلاء منا .

ـ بلى ، الذين لهم نعم بشبكة شدخ (ماء لأسلم من بنى غفار) .

فتذكرهم أبو رهم ولم يذكرهم حتى ذُكِّر أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فيهم ، فقال :

ـ يا رسول الله أولئك رهط من أسلم ، حلفاء فينا .

ـ ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطا فى سبيل الله : إن أعز أهلى علىّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم .

واجتمع رأى من كان معه ـ ﷺ ـ من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا أن

ينكثوا برسول الله — ﷺ — فى العقبة التى بين تبوك والمدينة ، فقالوا :

— إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى .

فأخبر الله تعالى رسوله بذلك . فلما وصل الجيش العقبة نادى مناد لرسول الله — ﷺ :

— إن رسول الله — ﷺ — يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ؛ واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع .

فسلك الناس بطن الوادى وسلك رسول الله — ﷺ — العقبة ، فلما سمع المنافقون بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة ، وأمر — ﷺ — عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، فأمر — ﷺ — حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه . فبينا رسول الله — ﷺ — يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم وقد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله — ﷺ — حتى سقط بعض متاعه ، فغضب رسول الله — ﷺ — وصرخ بهم فولوا مدبرين وحذيفة يضرب بمحجن معه وجوه رواحلهم ويقول :

— إليكم .. إليكم يا أعداء الله .

فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس ، فرجع حذيفة يضرب الناقة فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم ؟

— لا . كان القوم ملثمين والليلة مظلمة .

ونزل رسول الله — ﷺ — عن راحلته فأوحى إليه وراحلته باركة ، فقامت تجر زمامها فلقيها حذيفة فأخذ بزمامها وجاء إلى قرب رسول الله — ﷺ — فأناخها ثم جلس عندها ، حتى قام النبى — ﷺ — فأتاه بها فقال عليه السلام :

ـــ من هذا ؟

ـــ حذيفة .

ـــ إنى مسر إليك سرا فلا تذكرنّه . إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان . وعد جماعة من المنافقين . وظل حذيفة صاحب سر رسول الله مطبقا فمه ، فلما توفى رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان عمر بن الخطاب فى خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقاده إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر ، وإن انتزع يده ترك الصلاة عليه .

وأصبح رسول الله ـــ ﷺ ـــ فجاء إليه أسيد بن حضير فقال :

ـــ يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادى ؟ فقد كان أسهل من سلوك العقبة .

ـــ أتدرى ما أراد المنافقون ؟ إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة فيزحمونى فيطرحونى منها . إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم .

ـــ يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا ، فإن أحببت بيّن بأسمائهم ، والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم .

ـــ إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم .

ـــ يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب .

ـــ أليس يظهرون الشهادة ؟

ثم جمعهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ سرا وأخبرهم بما قالوا وما أجمعوا عليه فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يحلفون بالله

ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾[1] .

وظل سر هذا الرهط بين رسول الله — ﷺ — وحذيفة صاحب سره عليه السلام . وتأهب الناس للانطلاق إلى المدينة فقال — ﷺ :

— إن بالمدينة لأقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم .

— يا رسول الله وهم بالمدينة ؟

— نعم . حبسهم العذر .

(١) التوبة ٧٤ .

٦

كان أبو عامر الراهب من الأوس وكان فى قومه شريفا مطاعا ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح . فلما اجتمع قومه على الإسلام أبى إلا الكفر والفراق لقومه ، فخرج إلى مكة ومعه بضعة عشر رجلا مفارقا للإسلام ولرسوله ـ ﷺ ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق .

إنه أتى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة ، فقال :

ـ ما هذا الدين الذى جئت به ؟

ـ جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

ـ فأنا عليها .

ـ إنك لست عليها .

ـ بلى ، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها .

ـ ما فعلتُ ولكن جئت بها بيضاء نقية .

ـ الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا .

ـ أجل فمن كذب ففعل الله تعالى به .

وجاء أبو عامر الفاسق مع قريش يوم خرجت لغزو المسلمين عند ماء بدر وهو يرجو أن يستأصل رسول الله ـ ﷺ ـ وصحبه . إنه كان يعد قريشا

أن لو لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان .

فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعُبدان أهل مكة ، فنادى :

ــ يا معشر الآوس أنا أبو عامر .

ــ فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

ــ لقد أصاب قومى بعدى شر .

ثم قاتلهم قتالا شديدا ثم رماهم بالحجارة ، وهزمت قريش و لم يدب اليأس فى قلب الفاسق بل راح يؤجج نار العداوة فى قلوب سادات قريش ، فلما افتتح رسول الله ــ ﷺ ــ مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف بعث إلى بعض أصحابه من الأوس فقال لهم :

ــ ابنوا لى مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة .

وخرج أبو عامر الفاسق ، وخرج معه علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وكنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفى ، ودخلوا على هرقل ملك الروم وراحوا يزينون له غزو محمد قبل أن يستفحل أمره وقبل أن يسير إلى الشام يفتحها كما فتح مكة .

وراح حزام بن خالد وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن الأرعد وعباد بن حنيف وحارثة وجارية وابناه مجمع وزيد ونبتل بن حارث ولحاد بن عثمان ووديعة بن ثابت يبنون مسجدا إلى جوار مسجد قباء ، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ــ ﷺ ــ فقالوا :

ــ إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

كان رسول الله — ﷺ — يتجهز لغزوة تبوك فقال لهم :

— إنى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

وانطلق عليه السلام إلى تبوك وقال الذين بنوا المسجد تنفيذا لأوامر أبى عامر الفاسق مستهزئين بمسجد قباء :

— نصلى فى مربط حمار ! لا لعمر الله .

كانت أرض مسجد قباء لامرأة كانت تربط فيه حمارها ، فراحوا يسخرون . فلما بنى مسجد ضرار صرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا بذلك المسجد ، فكان به تفريق للمؤمنين فكان المنافقون يجتمعون فيه ويعيبون النبى — ﷺ — يستهزئون به .

وانقضت أيام تبوك وأقبل رسول الله — ﷺ — حتى نزل بذى أروان ، محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، فجاءه الذين بنوا مسجد ضرار وطلبوا منه أن يأتيهم ليصلى فيه . فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم فأوحى إليه : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفُن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تَقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم »[١] .

---

(١) التوبة ١٠٧ — ١١٠ .

فدعا رسول الله — ﷺ — مالك بن الدخشم ومعن بن عدىّ وعامر بن يسكر والوحشى قاتل حمزة وقال لهم :

— انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه .

فخرجوا ، وانطلق مالك وأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم دخلوا المسجد وفيه أهله فحرّقوه وهدموه وتفرق عنه أهله .

كان ذلك بين المغرب والعشاء ، فلما حان أوان صلاة العشاء ارتفع صوت المؤذن من مسجد قباء ، فذهب الناس إلى المسجد الذى أسس على التقوى وصلوا فيه خلف رسول الله — ﷺ .

ومات أبو عامر الفاسق فى الشام فاختصم فى ميراثه إلى قيصر علقمة بن علاثة وكنانة بن عبد ياليل ، فقال قيصر :

— يرث أهل المدر أهلُ المدر .

فورثه كنانة بن عبد ياليل بالمدر دون علقمة .

وأمات الله الكاذب طريدا غريبا وحيدا .

٧

الرجال والولدان فى الطرقات ينتظرون قدوم رسول الله ــ ﷺ ، والنساء على أسطح الدور وفرح القلوب قد انعكس على الوجوه . ولاح النقع فى الأفق فارتفعت هتافات الترحيب وانطلقت من الحناجر أهازيج النصر المبين ، فجيوش الروم قد تقهقرت إلى الشام وآثرت الفرار على أن تلقى محمدا ــ ﷺ ــ وجنده من المؤمنين .

وتقدم رسول الله ــ ﷺ ــ وقد أطرق رأسه خضوعا لله رب العالمين ، فما إن لمحه الناس حتى هرعوا إليه يسلمون عليه فكان يرد تحياتهم فى ترحيب ، وخف الأطفال يتعلقون بركابه بل ركب بعضهم أمامه وخلفه ، ولا غرو فهو أبو هذه المدينة التى أحبها وأحبته .

ومد عليه السلام بصره إلى المدينة فقال :

ــ هذه طابة أسكنّيها ربى ، تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولما رأى جبل أحد قال :

ــ هذا أحد جبل يحبنا ونحبه .

كان صاحب قلب كبير وسع الناس ووسع كل ما وقعت عليه عيناه من خلق الله .

واستمر رسول الله ــ ﷺ ــ فى سيره والناس من حوله يهللون حتى بلغ المسجد فنزل عن راحلته ، وصلى فى مسجده ركعتين بعد أن عانق على بن أبى

طالب الذى تركه فى المدينة وأصر على بقائه بها لما عاد عبد الله بن أبى بن سلول بأصحابه وأبى الخروج إلى تبوك ، فلم يكن من الحكمة أن يترك ابن أبى وحده ليفسد الناس فى غيبة رسول الله — ﷺ .

ودخل رسول الله — ﷺ — بيت فاطمة وألقى السلام على الزهراء والحسن والحسين وقبل أمامة بنت زينب الحبيبة ، ثم راح يدور على نسائه .

وجلس رسول الله — ﷺ — فى مسجده فجاءه رهط من المنافقين وجعلوا يحلفون ويعتذرون فقبل رسول الله — ﷺ — منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله واستغفر لهم ، ولكن الله أنزل فيهم : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لِم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلَّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون »(١) .

وأحس كعب بن مالك عرق الخجل يتفصد من كل جسمه . إنه ما تخلف عن رسول الله — ﷺ — فى غزوة غزاها قط ، ولكنه كان قد تخلف عنه فى

---

(١) التوبة ٤٢ — ٤٨ .

غزوة بدر وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله — ﷺ — إنما خرج يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد .

ولقد شهد مع رسول الله — ﷺ — العقبة ودافع عنه يوم أحد دفاع المستميت ، وكان له كظله عليه السلام فى غزوة الخندق ، وتأهب المسلمون لغزوة تبوك ولم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه فى تلك الغزوة ، وما اجتمعت له راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة .

وكان رسول الله — ﷺ — قلما يريد غزوة يغزوها الا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة . فغزاها رسول الله — ﷺ — فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا واستقبل غزو عدد كثير ؛ فجلَّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله — ﷺ — كثير لا يدونهم حافظ فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحى من الله .

وغزا رسول الله — ﷺ — تلك الغزوة حين طابت الثمار وأُحبت الظلال ، فتجهز رسول الله وتجهز المسلمون معه ، وجعل كعب بن مالك يغدو ليتجهز معهم فيرجع ولم يقض حاجة فيقول فى نفسه : أنا قادر على ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتمادى به حتى شمَّر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله — ﷺ — غاديا والمسلمون معه ولم يقض كعب من جهازه شيئا فقال : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدا بعد أن فصلوا ليتجهز فرجع ولم يقض شيئا ، ثم غدا فرجع فلم يقض شيئا ، فلم يزل يتمادى به حتى أسرعوا .

وتفرّط[1] الغزو فهم أن يرتحل فيدركهم — وليته فعل — فلم يفعل ، وجعل إذا خرج فى الناس بعد خروج رسول الله — ﷺ — فطاف فيهم يحزنه

---

(١) تفرط الغزو : أى فات وسبق .

أنه لا يرى إلا رجلا مطعونا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

و لم يذكره رسول الله — ﷺ — حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك :

— ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بنى سلمة :

— يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عِطفيه .

فقال معاذ بن جبل :

— بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرا .

فسكت رسول الله — ﷺ .

وبلغ كعب بن مالك أن رسول الله — ﷺ — قد توجه قافلا من تبوك ، فحضره حزنه فجعل يتذكر الكذب ويقول :

— بماذا أخرج من سخطة رسول الله — ﷺ — غدا ؟

وراح يستعين على ذلك كل ذى رأى من أهله ، فلما قيل إن رسول الله — ﷺ — قد أشرف قادما ذهب عن كعب الباطل وعرف أنه لا ينجو منه إلا بالصدق ، فأجمع أن يصدقه .

وقدم رسول الله — ﷺ — وجلس للناس ، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وجاء كعب بن مالك فسلم عليه ، فتبسم رسول الله — ﷺ — تبسم المغضب ثم قال له :

— تعاله .

فجاءه يمشى حتى جلس بين يديه فقال له :

ـــ ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟

ـــ إنى يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد علىّ فيه إنى لأرجو عقباى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك .

فقام وسار معه رجال من بنى سلمة فاتبعوه فقالوا له :

ـــ والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ـــ ﷺ ـــ لك .

فوالله ما زالوا به حتى أراد أن يرجع إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيكذب نفسه . ثم قال لهم :

ـــ هل لقى هذا أحد غيرى ؟

ـــ نعم . رجلان قالا مثل مقالتك وقيل لهما مثل ما قيل لك .

ـــ من هما ؟

ـــ مرارة بن الربيع العمرى من بنى عمرو بن العوف ، وهلال بن أبى أمية الواقفى .

ذكروا له رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصمت حين ذكروهما له . وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لأصحابه :

— لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم .

فأعرض عنهم رسول الله — ﷺ . إنه حرمان عام وألم ممض وعذاب نفسى فقد حرمت على الثلاثة الراحة النفسية ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم حتى تنكرت لهم أنفسهم والأرض فما هى بالأرض التى كانوا يعرفونها .

خمسون ليلة مضت والرجال الثلاثة يقاسون الإعراض ، فاستكان مرارة ابن الربيع وهلال بن أبى أمية وقعدا فى بيوتهما ، وأما كعب بن مالك فكان أشب القوم وأجلدهم فكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ولا يكلمه أحد ، ويأتى رسول الله — ﷺ — فيسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فيقول كعب فى نفسه :

— هل حرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟

ثم يصلى قريبا منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل كعب على صلاته نظر إليه وإذا التفت نحوه أعرض عنه ، حتى إذا طال ذلك عليه من جفوة المسلمين مشى حتى تسور جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمه وأحب الناس عليه فسلم عليه فوالله ما رد عليه السلام فقال :

— يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟

فسكت . فعاد فناشده فسكت عنه . فعاد فناشده فسكت عنه . فعاد فناشده فقال :

— الله ورسوله أعلم .

ففاضت عينا كعب بن مالك ووثب فتسور الحائط ثم غدا إلى السوق ، فبينا هو يمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنه من نبط الشام ممن قدم بالقمح يبيعه بالمدينة يقول :

— من يدل على كعب بن مالك ؟

فجعل الناس يشيرون له إليه حتى جاءه فدفع إليه كتابا من ملك غسان فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيعة ، فالحق بنا نُواسِك » .

قال كعب حين قرأها :

— وهذا من البلاء أيضا . قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىّ رجل من أهل الشرك .

فعمد كعب بالكتاب إلى تنور فأحرقه ، فأقام الرجال الثلاثة على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتى كعبا فقال :

— إن رسول الله — ﷺ — يأمرك أن تعتزل امرأتك .

— أطلقها أم ماذا ؟

— لا ، بل تعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبيه بمثل ذلك ، فقال كعب لامرأته :

— الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله — ﷺ — فقالت :

— يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟

— لا ، ولكن لا يقربنك .

— والله يا رسول الله ما به من حركة إلىّ ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا وقد تخوفت على بصره .

فقال لكعب بعض أهله :

— لو استأذنت رسول الله لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

— والله ما أستأذنه فيها ، ما أدرى ما يقول رسول الله — ﷺ — لى فى ذلك إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثوا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لهم خمسون ليلة من حين نهى رسول الله — ﷺ — المسلمين عن كلامهم ، ثم صلى كعب الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتهم قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه ، وقد كان ابتنى خيمة فى ظهر سلع فكان يكون فيها ، إذ سمع صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته :

— يا كعب بن مالك أبشر .

فخر كعب ساجدا وعرف أن قد جاء الفرج .

آذن رسول الله — ﷺ — الناس بتوبة الله على الثلاثة حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشرونهم وركَّض رجل إليه فرسا وسعى ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءه الذى سمع صوته يبشره نزع ثوبيه فكساهما إياه بشارة والله ما يملك يومئذ غيرهما ، وانطلق أناس نحو صاحبيه مبشرين .

واستعار كعب ثوبين فلبسهما ، ثم انطلق يتيمم رسول الله — ﷺ ، وتلقاه الناس يبشرونه بالتوبة يقولون :

— لِيَهنك توبة الله عليك .

حتى دخل المسجد ورسول الله — ﷺ — جالس وحوله الناس ، فقام إليه طلحة بن عبيد الله فحياه وهنأه ، ووالله ما قام رجل إليه من المهاجرين غيره ، فلما سلم على رسول الله — ﷺ — قال له ووجهه يبرق من السرور :

ـــ أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

ـــ أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

كان رسول الله إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، قال وقد أشرق وجهه :

ـــ بل من عند الله .

فلما جلس كعب بين يديه وقد غمره البشر قال :

ـــ يا رسول الله إن من توبتي إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .

ـــ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .

ـــ إنى ممسك بسهمى الذى بخيبر ... يا رسول الله . إن الله قد نجانى بالصدق وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت .

وأنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[1] .

وكان عويمر العجلانى مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى غزوة تبوك ، فلما عاد إلى داره وجد امرأته خولة بنت عمه قيس حبلى وإنه ما قربها منذ أربعة أشهر . فأتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان فقال :

ـــ كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فيقتلونه أم كيف

---

(١) التوبة ١١٧ ، ١١٨ .

يصنع ؟ سل لى رسول الله ـ ﷺ .

فأتى عاصم النبى ـ ﷺ ـ فسأله ، فكره النبى عليه السلام تلك المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ـ ﷺ ، فسأله عويمر فقال له عاصم :

ـ لم تأتنى بخبر .

وراح الغيظ ينهش صدر عويمر فقال :

ـ والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك .

فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال :

ـ يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا إن تكلم جلدتموه وإن قتله قتلتموه أو سكت سكت على غيظ .

وقذف زوجه بشريك بن سحماء ابن عمه وقال :

ـ وجدته على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر .

ـ اتق الله فى زوجتك وابنة عمك ، فلا تقذفها بالبهتان .

ـ يا رسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر .

ودعا ـ ﷺ ـ بالمرأة وقال لها :

ـ اتقى الله ولا تخبرينى إلا بما صنعت .

ـ يا رسول الله إن عويمر رجل غيور ، وإنه يأتى وشريكا يطيل السهر ويتحدث . حملته الغيرة على أن قال ما قال .

فدعا عليه السلام شريكا وقال له :

ـ ما تقول ؟

ـ يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ اللهم افتح .

وجعل يدعو فأنزل الله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم و لم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾(١) .

فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن ينادى الصلاة جامعة ، فلما صلى العصر واجتمع الناس قال ـــ ﷺ ـــ لعويمر :

ـــ قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا ، فاذهب فأت بها .

وجاء عويمر وخولة وبدأ اللعان فقال عويمر :

ـــ أشهد بالله أن خولة زانية وإنى لمن الصادقين ... أشهد بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وإنى لمن الصادقين ... أشهد بالله أنها حبلى من غيرى وإنى لمن الصادقين ... أشهد بالله أنى ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنى لمن الصادقين ... لعنة الله على عويمر إن كان من الكاذبين .

ثم أمره بالقعود وقال لخولة :

ـــ قومى .

فقامت فقالت :

ـــ أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمر لمن الكاذبين .. أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين .. أشهد بالله إنى لحبلى منه وإنه لمن

---

(١) النور ٦ ـــ ١٠ .

الكاذبين .. أشهد بالله أنه ما رآني قط في فاحشة وإنه لمن الكاذبين .

وتلكأت ونكصت وتفصد العرق منها وزاغت عيناها حتى ظن أنها ترجع ، فقد تذكرت أنه — ﷺ — قال لها إن اللعنة موجبة للعذاب فى الآخرة وعذاب الدنيا أهون ، ثم خطر لها أنها ستفضح قومها سائر الأيام فقالت وهى تكاد أن تنهار :

— إن غضب الله على خولة إن كان من الصادقين ..

ففرق رسول الله — ﷺ — بينهما ، قال له :

— لا سبيل لك عليها .

ووضعت خولة غلاما كان بضعة من شريك ، فقال — ﷺ — :

— لولا ما سبق فى كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن .

٨

أذن بلال فانسكب صوته فى آذان المسلمين ، كأنه السحر ففتحت أبواب الدور وخرج الناس فى عماية الصبح إلى مسجد الرسول . وألقى عثمان بن عفان نظرة إشفاق على زوجه أم كلثوم ثم هبط ليصلى الفجر خلف رسول الله ـــ ﷺ .

كانت أم كلثوم ذابلة اللون قد نال منها الوهن فتمددت فى فراشها تصيخ السمع ، فصوت بلال يداعب أذنيها ويوقظ روحها فتحاول أن تنهض لكن الجسد ضعيف لا يقوى على النهوض ، وبلغ مسامعها تكبير المصلين فاغرورقت عيناها بالدموع وشرد خيالها ليعيد إلى ذهنها الماضى البعيد . إنها ترى دارهم فى مكة والطاهرة سيدة نساء قريش حاضنة الإسلام تداعبها فى عطف شديد . وملأت صفحة رأسها صورة خديجة فرقت رقة جعلت عبراتها تسيل على خديها ، وداعب خيالها ذلك اليوم الذى حفر فى أغوار نفسها : رأت أباها العظيم يوم أن عاد من غار حراء يرتجف وأمها تغمره بعطفها وحنانها حتى سكن روعه ، وآمنت به خديجة وصدقت بما جاءه من الله ، وشهدت هى وأخواتها شهادة الحق ، إنها لتتذكر أول يوم ثمن فيه وقد أشرقت أفئدتهن بنور اليقين ، إنهن لم تغمض لهن عين من شدة الانفعال وإن أم أيمن كانت تسألهن عن ذلك الحدث العظيم فكن يهمسن لها بما سمعن من رسول الله ـــ صلوات الله عليه ـــ وخديجة أم المؤمنين .

أم أيمن ! لقد استشهد زوجها زيد فى مؤتة واحتضن رسول الله — ﷺ — ابنهما أسامة . إنه حب رسول الله عليه السلام . وتذكرت أم كلثوم أنها لم تعقب وأن عثمان يشتهى أن يكون له نسل من النبى ، فأختها رقية وضعت فى دار الهجرة طفلها عبد الله بن عثمان ولكن عبد الله مات طفلا بنقرة من ديك فملأ جوانحها أسى ، فهى تحس أن روحها تكاد أن تفارق جسدها و لم تنجب لعثمان ما يربط الأسباب بينه وبين نبيه الحبيب .

وطوى خيالها السنين فعادت إلى تلك الأيام التى كان أبوها عليه السلام يدعو الناس فيها سرا إلى دين الله . إنها ترى فى وضوح أبا بكر الصديق وقد جاء إلى دارهم ومعه عثمان بن عفان ، لقد خفقت أفئدة كل من فى الدار سرورا ، وداعب خيالها فى ذلك اليوم أمنية أن يأتى أبو لهب إلى أبيها لينطق شهادة الحق فأختها رقية تحت عتبة بن أبى لهب ، وهى ترقب زفافها إلى أخيه عتيبة ، ولكن العداوة اشتدت بين أبيها وبين عمه أبى لهب ، وقد أججتها أم جميل حمالة الحطب وقالت لولديها :

— رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد .

و لم يستطع أعداء الدين الجديد أن يقفوا فى سبيله ، فرأوا أن يشغلوا أباها ببناته فقالوا :

— إنكم قد فرّغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن .

فمشوا إلى أبى العاص بن الربيع فقالوا له :

— فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .

كان أبو العاص يحب زينب ، إنه لا يطيق فراق ابنة الخالة وإنه إذا بعد عنها راح يقرض الشعر يشكو بعادها ، فقال :

— لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

ومشوا إلى عتبة بن أبى لهب فقالوا له :

ــ طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت .

ــ إن زوجتمونى بنت إبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص فارقتها .

وزوجوه بنت سعيد بن العاص وإن أم كلثوم لترى أختها رقية وقد عادت إلى دار أبيها حزينة ، وإنها لترى أمها خديجة وقد استقبلتها بين أحضانها .

وتذكرت عتيبة فغامت صفحة وجهها بسحابة كدر ، فلم يكتف عتيبة بأن طلقها بل ذهب إلى أبيها وأهانه على الملأ فدعا عليه النبى ــ ﷺ ــ أن يسلط الله عليه كلبا من كلابه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه وهم نيام حوله .

إن عتبة ومعتب ابنى أبى لهب أسلما يوم فتح مكة ؛ جاء بهما العباس إلى أبيها فشهدا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله . ففيم كانت عداوة السنين وكفاح الحق ؟ إنها إرادة الله ولا راد لمشيئته فقد أنزل سبحانه وتعالى : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾(١) . كتب الله على أبى لهب الشقاء فما كان له أن يسلم وجهه لله ، وقد مات على الكفر ليصلى النار الكبرى التى لا يموت فيها ولا يحيى .

وطفت على ذهنها ذكريات زواج عثمان من رقية . لقد تهللت خديجة بالفرح لذلك الزواج ولكن الكفار أبوا أن يعرف ذلك الزواج الاستقرار ، فالحكم عم عثمان أذاقه من العذاب ألوانا حتى هاجر عثمان ورقية بدينهما إلى

---

(١) سورة المسد .

الحبشة .

ورأت نفسها فى شعب أبى طالب تقاسى مع أمها الحبيبة وأختها فاطمة الزهراء أهوال الحصار . إنها كانت تتلوى من الجوع وكانت ترى الأسى المرتسم على وجه أبيها الحبيب فتربو آلام نفسها على آلام الجوع ، وانقضت سنوات المقاطعة الثلاث وقد خلفت فى النفوس والأجسام آثارا ، فقد لحق بأمها الحبيبة البوار فماتت بعد أن عادت إلى بيتها فى مكة .

وأخفت أم كلثوم وجهها براحتيها : إنها لا تحتمل رؤية خديجة أم المؤمنين وهى تجود بأنفاسها ، فأبوها النبى القوى لم يحتمل أن يحضر موتها ، إنها كانت تناديه وهو واقف بباب حجرتها لا يجرؤ على الدخول فدموعه تغلبه وقلبه يتمزق من الأسى .

ورأت الدار من بعدها موحشة خلاء وإن كانت هى والزهراء وأم أيمن يذهبن ويجئن فى أرجائها . إنها دار بلا روح ، سراج بلا زيت ، قلب بلا حب . وزاد فى وطأة الأحزان أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يدخل الدار شاردا يتلفت فى أرجائها لكأنما يبحث عن وزيره الذى مضى .

وتقلبت أم كلثوم فى فراشها وندت من بين شفتيها آهة خافتة كأنما كانت ذوب نفسها ، وأسبلت جفنيها على عينيها من الضعف ولكن الصور ظلت تترادف على خيالها ، فرأت رقية وقد رفت روحها على شفتيها وهتافات النصر يوم بدر تدوى فى الخارج ، إنها انزوت فى ركن تسح الدموع بينا أكبت الزهراء على مضجع أختها تبكى ، وإنها لترى أباها الثاكل يدخل الغرفة وفى وجهه آيات الحزن ، ويذهب إلى الزهراء ويرفعها من فوق أختها يمسح دموعها بطرف ثوبه .

ورأت « أم عياش » خادم النبى تدعوها للقاء أبيها عليه السلام ، وترى

نفسها تذهب إلى النبى الكريم . إنه يخبرها أنه سيزوجها عثمان بن عفان . وصمتت وكان السكوت علامة الرضا ، فزوجها من عثمان على مثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها .

وانتقلت من بيت أبيها الملاصق للمسجد إلى بيت عثمان على بعد خطوات من مسجد الرسول ، إنها تسمع أذان بلال وابن أم مكتوم. وكثيرا ما كان يأتى لزيارتها الحسن والحسين وأمهما الزهراء ورسول الله ـــ ﷺ وهو يحمل على ذراعه أمامة بنت زينب ، ويمشى بين يديه على بن أبى العاص بن الربيع ، فقد كانت زينب تشكو النزيف الذى كان يعاودها مذ نخس هبار بن الأسود بعيرها وهى فى طريقها من مكة إلى المدينة فألقاها على أديم الصحراء فأسقطت وأهراقت الدماء .

ورأت نفسها وقد خرجت مع زوجها عثمان لما خرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ بمن معه من المهاجرين والأنصار يريدون العمرة . إنها لتذكر ما قال عليه السلام لسفراء قريش الذين جاءوا يسألونه ما الذى جاء به . إنه قال : إنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت .

دعا أبوها عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به ، فقال :

ـــ يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

وجاهدت أم كلثوم لتفتح عينيها ولكن جفنيها ظلا مسبلتين ، وكانت ترى الأحداث بعين بصيرتها . إنها ودعت زوجها فى ذلك اليوم وداعا حارا وابتهلت إلى الله من أعماقها أن يحفظه ، وباتت قلقة أرقة وإذا فى معسكر

المسلمين زئير وزمجرة وغضب . وألقت سمعها إلى الأصوات الغاضبة فبلغ أذنيها أن عثمان قد قتل .

أنهارت كما ينهار الجدار وأحست نارا تشوى كبدها ، وذاقت مرارة الترمل وحر المصيبة فما كان فى القوم مثل عثمان الرجل الذى تستحى منه ملائكة السماء ، وبكت و لم يرقأ لها دمع ، وسمعت أباها وهو يقول حين بلغه أن عثمان قد قتل :

ــ لا نبرح حتى نناجز القوم .

فثارت الدموع حارة فى عروقها وودت لو تستطيع أن تخرج من خبائها لتبايع رسول الله تحت الشجرة على الموت ، ولكن البيعة كانت للرجال .

وأتى رسول الله ــ ﷺ ــ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل ، فدخل البشير عليها يزف إليها البشرى فاستشعرت راحة وإن ظل قلبها يخفق فى شدة ، ووقفت بباب خيمتها تنتظر أوبة رجلها .

وأتى عثمان واستقبله النبى ــ ﷺ ــ بالترحاب ، وراح المسلمون يسألونه عما كان من قريش وهى ترنو إليه من بعيد فى حب عميق ترجو أن يطير إليها ليريح قلبها الولهان ، فهى تحبه بكل عواطفها .

و لم تستطع أم كلثوم أن تطلق عنان خيالها للذكريات البهيجة . إنها تلتقط أنفاسها من ثقب أبرة وذكريات الموت تلح عليها . إنها ترى زينب وقد لفظت آخر أنفاسها ورسول الله ــ ﷺ ــ يذرف الدمع وهو صامت ، ثم يدور على عقبيه ويغادر غرفتها مطرقا .

وأجهشت أم كلثوم بالبكاء . جاهدت ضعفها لتذرف آخر دمعة لا جزعا من الموت فقد كانت على يقين من أنها على الحق المبين ، بل إشفاقا على أبيها حليف الأحزان الذى كان يقبر فلذات كبده فلذة بعد فلذة .

ودخلت عليها أم عياش فألفتها فى النزع الأخير ، فأرسلت إلى الرجال فى المسجد فأسرع عثمان إلى داره فإذا بأم كلثوم تعالج سكرات الموت ، فراح ذو النورين يناديها فى وجد وهو مشفق عليها وعلى نفسه . كان يفزعه أن ينقطع بموتها نسبه برسول الله — ﷺ .

وجاء رسول الله — ﷺ — وأبو بكر الصديق وعمر وعلى وبعض الأنصار . ودخل عليه السلام على ابنته وهى تلتقط آخر أنفاسها فدمعت عيناه ولم يتحرك لسانه بما يغضب الرب ، فقد كان للبشرية أسوة حسنة .

وجاءت أسماء بنت عميس وكانت زوجة جعفر بن أبى طالب ، فلما استشهد جعفر فى مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق . وجاءت صفية بنت عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار . وغسلتها أسماء وصفية وأم عطية وقال لهن الرسول :

— اغسلنها وترا ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك .

وأعطاهن إزاره لتكفن فيه ، وحمل جثمان أم كلثوم إلى المسجد فأجهشت نساء الرسول بالبكاء ، وبكت الزهراء على أختها الغالية . وصلى رسول الله — ﷺ — على ابنته ومن خلفه أصحابه يغالبون دموعهم .

وانطلقت الجنازة إلى البقيع ووضعت أم كلثوم فى قبرها . ونزل فى حفرتها على بن أبى طالب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد . وأراد أناس أن ينزلوا معهم فقال — ﷺ :

— لا ينزل فى قبرها أحد قارف أهله الليلة . أفيكم أحد لم يقارف أهله الليلة ؟

فقال أبو طلحة :

— أنا يا رسول الله .

— انزل .

وقبرت أم كلثوم وعثمان بن عفان غارق فى حزنه تجرى دموعه على خديه ، وعاد الناس من البقيع وقد غشيهم حزن عميق ، ورأى رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان وهو يسير مطرقا وفى وجهه وله ، فدنا منه وقال :

— لو كانت عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان .

٩

قدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف فأعاد إلى الناس الذكريات عن عروة بن مسعود الثقفى سيد بنى ثقيف وزعيم الطائف الذى كان يحسب أن ثقيفا لا ترد له طلبا .

إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ حاصر الطائف وكان عروة غائبا عنها ، كان يتدرب على استعمال المنجنيق فى أرض غير أرضه . فلما انصرف عليه السلام عن الطائف عاد عروة إلى أهله وألقى إليهم سمعه ، فإذا به يحس أنوار اليقين تملأ فؤاده فخرج يتبع أثر رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم . وسأل رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إنهم قاتلوك .

ـــ يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم .

كان عروة فيهم محببا مطاعا ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم . فلما أشرف لهم على عِلِّية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة :

ـــ ما ترى فى دمك ؟

قال فى صوت واه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة :

ـــ كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فىَّ إلا ما فى

الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله — ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم .

فدفنوه معهم ، وقال رسول الله — ﷺ :

— إن مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه .

وقدم أبو مليح بن عروة وقارب بن سواد على رسول الله — ﷺ — حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعهم على شىء أبدا ، فأسلما فقال لهما رسول الله — ﷺ :

— تولَّيا من شئتما .

فقالا :

— نتولى الله ورسوله .

وكان أبو سفيان بن حرب خالهما ، وكان — ﷺ — خبيرا بالنفوس . إنه يعلم أن أبا سفيان بن حرب يحب الفخر وأن يكون له من الأمر شىء ، فقال لهما :

— وخالكما أبا سفيان بن حرب .

فقالا :

— وخالنا أبا سفيان بن حرب .

وأصبح وليهما الله ورسوله وأبا سفيان بن حرب .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا تفكر فى الإسلام الذى انتشر فى مكة وفى ربوع أرض العرب ، فساور القلق زعماءهم وساداتهم وراحوا يقلبون الرأى فى رءوسهم وما كان ذلك كافيا ، فعزموا على أن يتشاوروا بينهم ليستقروا على أمر .

وكان عمرو بن أمية أخو بنى علاج مهاجرا العبد ياليل بن عمرو لشىء كان

بينهما ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه إن عمرو بن أمية يقول لك اخرج إلىّ ، فقال عبد ياليل للرسول :

ـــ ويلك ! أعمرو أرسلك إلىّ ؟

ـــ نعم وها هو ذا واقفا فى دارك .

ـــ إن هذا الشيء ما كنت أظنه ، لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك .

فخرج إليه فلما رآه رحب به ، فقال له عمرو :

ـــ إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا فى أمركم .

واجتمع سادات ثقيف يديرون قداح الرأى بينهم ، وقال بعضهم لبعض :

ـــ أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سِرب[1] ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ؟!

فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ رجلا كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان من سن عروة بن مسعود وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة . فقال :

ـــ لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا .

فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد

---

(١) السرب : المال الراعى وهو أيضا الطريق والنفس .

دهمان أخا بنى يسار ، وأوس بن عوف أخا بنى سالم بن عوف ، ونُمير بن خرشة بن ربيعة أخا بنى الحارث . فخرج بهم عبد ياليل وهو سيد القوم وصاحب أمرهم ، و لم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه .

فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة ألَفوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب أصحاب رسول الله — ﷺ ، وكانت رِعيتها نوَبا على أصحابه — ﷺ . فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين ووثب يشتد ليبشر رسول الله — ﷺ — بقدومهم عليه . ولقى أبو بكر الصديق المغيرة بن شعبة قبل أن يدخل على رسول الله — ﷺ — فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم رسول الله — ﷺ — شروطا ويكتتبوا من رسول الله — ﷺ — كتابا فى قومهم وبلادهم ، فقال أبو بكر للمغيرة :

— أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله — ﷺ — حتى أكون أنا أحدثه .

فدخل أبو بكر على رسول الله — ﷺ — فأخبره بقدومهم عليه . ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فهو ثقفى وإن إسلام ثقيف لأحب إليه من حمر النعم فراح يعاونهم على إنزال ما معهم عن ظهور الإبل ويعلمهم كيف يحيون رسول الله — ﷺ — فأبوا إلا أن يحيوه — ﷺ — بتحية الجاهلية .

وضرب عليه السلام عليهم قبة فى ناحية مسجده ، وراح خالد بن سعيد ابن العاص يمشى بينهم وبين رسول الله — ﷺ — فلم يأتوا ليعلنوا على الملأ إسلامهم دون قيد أو شرط بل كانت لهم شروط وما كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليقبلها .

كان الطعام يأتيهم من عند رسول الله — ﷺ — فكانوا لا يطعمون حتى

يأكل منه خالد ، فقد كانوا يخشون الغدر وما كانوا على صواب فإنهم وإن كانوا لم يعلنوا إسلامهم بعد ، فهم عند أحلم الناس وأوفى الناس وأصدق الناس .

سألوا رسول الله — ﷺ — أن يدع لهم الطاغية وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله — ﷺ — ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة فسنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى .

كانوا يرتجفون فرقا من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . أتصبح اللات فى غمضة عين أثرا بعد عين وقد كان العرب قبل مبعث محمد — صلوات الله وسلامه عليه — يقسمون بها ويقدمونها على كل الآلهة ؟! إنهم فزعوا يوم جاء أبرهة ليهدمها وأرسلوا معه من يقوده إلى الحرم لينقذوا إلاهتهم الحبيبة ، فضحوا ببيت الله الحرام فى سبيل بقائها ، أيتركون أصحاب محمد يدكونها على أعين الناس ؟

وكثرت المشاورات والتقمت الأفواه الآذان واشتد الجدل وراح المغيرة بن شعبة يؤكد لهم أن اللات إن هى إلا صخرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، وأن لا فرق بينها وبين العزى ومناة وقد أصبحتا كأمس الدابر ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، واستمر خالد بن سعيد يغدو بينهم وبين رسول الله — ﷺ — فأبى رسول الله — ﷺ — عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها .

وسألوه عليه السلام أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى

دين لا صلاة فيه .

فقالوا :

ـــ يا محمد فسنؤتيكها وإن كانت دناءة .

كانوا فى ناحية المسجد فكانوا يسمعون القرآن ويرون الناس إذا صلوا ، وكانوا يغدون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ كل يوم ويخلفون عثمان بن أبى العاص عند أسبابهم . كان عثمان يلقى سمعه إلى القرآن فيحس أنوار اليقين تنير فؤاده وكان يمد عينيه إلى المصلين فتهفو نفسه إلى أن يقف معهم خلف الرسول الأمين . فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبى ـــ ﷺ ـــ يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، وإذا وجد النبى ـــ ﷺ ـــ نائما ذهب إلى أبى بكر الصديق . وكان يكتم ذلك عن أصحابه فأعجب ذلك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأحبه ، وقال أبو بكر لرسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يحدثه عن عثمان بن أبى العاص :

ـــ يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

واجتمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ ووفد ثقيف ، وجلس خالد بن سعيد بن العاص ليكتب ورسول الله عليه السلام يملى عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى رسول الله إلى المؤمنين : إن عِضاه وجّ[1] وصيْد حرام لا يعضد ، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيُبلغ به النبى . محمد رسول الله) .

وصاموا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما بقى من رمضان فكان بلال يأتيهم

---

(١) عضاه : جمع عضاهة وهى الشجرة العظيمة ، ووج : موضع ناحية الطائف .

بفطورهم وسحورهم من عند رسول الله — ﷺ ، حتى إذا ما تأهبوا للانصراف قالوا :

— يا رسول الله أمر علينا رجلا يؤمنا .

فأمر عليهم عثمان بن أبى العاص .

كان عثمان من أحدثهم سنا ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن . وقد أهله ذلك لأن يكون إماما لقومه ، فالإسلام لا ينظر إلى السن ولا إلى لون البشرة ولا إلى القرابة فلا فضل لأحد فيه على أحد إلا بالتقوى .

وجاء رسول الله — ﷺ — ليودع وفد ثقيف وليبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم اللات ، فتقدم أبو مليح بن عروة يسأل رسول الله — ﷺ — أن يقضى عن أبيه عروة بن مسعود دينا كان عليه من مال اللات . فقال رسول الله — ﷺ :

— نعم .

وشجع ذلك قارب بن الأسود أن يسأل رسول الله — ﷺ — أن يقضى دين الأسود من مال اللات كما قضى دين عروة ، وقد كان عروة والأسود أخوين لأب وأم ، فقال قارب لرسول الله — ﷺ :

— وعن الأسود يا رسول الله فاقضه .

— الأسود مات مشركا .

فقال قارب :

— يا رسول الله لكن يَصِل مسلما ذا قرابة ، إنما الدين على وأنا الذى أطلب به .

فأمر رسول الله — ﷺ — أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من

مال الطاغية ، وراح — ﷺ — يوصى عثمان بن أبى العاص ويقول :
— يا عثمان تجاوز فى الصلاة واقدُر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة .

وتوجه وفد ثقيف إلى بلادهم راجعين وفيهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة ، فرسول الله — ﷺ — ما بعثهم إلا لأن لهم صلة بالقوم ؛ فأبو سفيان خال بنى عروة بن مسعود والمغيرة من القوم ، فإذا أراد السفهاء أن يتحرشوا بهما فسيجدان من يمنعهما . وعادت المخاوف تؤرق الوفد فلن يقبل السفهاء والنساء والذرارى هدم اللات وهم ينظرون ، فقال قائل منهم :

— أنا أعلمكم بثقيف . اكتموا إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمدا — ﷺ — سألنا أمورا عظيمة أبيناها عليه . سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .

فلما جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا :

— جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف وداًن له الناس وعرض علينا أمورا شدادا ، أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .

— والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبدا .

— أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال ورموا حصنكم .

فمكثت ثقيف يومين تتهيأ للقتال وترميم الحصون ، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم فقالوا :

— والله ما لنا من طاقة فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل .

— لقد أجبناه وأسلمنا .

— لم كتمتمونا ؟

— أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان .

وأراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان لهدم اللات فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال :

ــ ادخل أنت على قومك .

فتقدم المغيرة بن شعبة وحوله قومه خشية أن يرمى كما رمى عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرا مكشوفات الرءوس يبكين على الطاغية فما منهنْ إلا من جاءت إليها فى المسرات وفى الملمات لشكرها على ما أعطت ، أو للابتهال إليها لتطيل أيامها على الأرض .

وانهارت الدموع من مآقيهن وقلن :

لِتبكين دُفاع أسلمها الرُّضاع

لم يحسنوا المِصاع

إنهن يبكين « دُفاع » اللات التى كانت تدافع عنهم ، فقد أسلمها اللئام الذين لم يحسنوا الضرب بالسيوف فى سبيل الربة ، وسرن والهات ينتظرن أن تحدث معجزة تنقذ الربة بنت الله من أيدى المعتدين .

وتقدم المغيرة وكسر بابها فأحس الناس كأنما قد خلع أفئدتهم من صدورهم ، وراح يصعد على الصنم وقد تعلقت به الأعين يرقبون ما ينزل به من عقاب فإنه وقر فى ضمائرهم أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك ، وأراد المغيرة أن يسخر من ثقيف فقال لأصحابه :

ــ لأضحكنكم من ثقيف .

فألقى نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها ، فصاح الذين لم يشرق الإسلام فى صدورهم فى فرح :

ــ أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، والله لا يستطيع هدمها .

وارتج الطائف بالصياح والسرور ، وذاع الخبر وانتشر انتشار الريح وقال

الناس :

ــ إن اللات قد صرعت المغيرة .

وطار النبأ إلى الدور وإلى الحصون وإلى الحقول ، فجاء الناس مهطعين يتدافعون بالمناكب وللات يهللون وأقبلوا على المغيرة يقولون :

ــ كيف رأيت يا مغيرة ؟! دونكها إن استطعت ، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها .

فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم :

ــ يا خبثاء والله ما قصدت إلا الهزء بكم .

ــ دونكها إن استطعت .

ــ قبحكم الله ، إنما هى لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه .

وصعد المغيرة يضربها بالفأس فراحت تتناثر والنساء ينظرن فى حسرة ويقلن فى أسف وحزن :

ــ واها لك . آها لك !.

وسوى المغيرة الصنم بالأرض ولكن سادن اللات أبى أن يعترف بأن اللات إن هى إلا حجارة ، فقال ليعيد الثقة فى الربة التى تزعزعت فى قلوب من كانوا مؤمنين بها قبل أن يقضى معول المغيرة على أوهامهم :

ــ ليغضبن الأساس فليخسفن بهم .

وراح المغيرة يهدم الأساس الذليل ، فما غضب ولا ثار ولا خسف بأعدائه الأرض ، وأخذ مال اللات وحليها فانصرفت النسوة وقد أطرقن رءوسهن ، فقد كن عائدات من مأتم الوهم الكبير الذى عاش عليه آباؤهم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وعبدوا حجارة بعد أن فسد دين أبيهم إبراهيم خليل

الرحمن .

وذهب المغيرة يحمل مال اللات وحليها إلى أبى سفيان وقال له :

— إن رسول الله — ﷺ — قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود دينهما .

فقضى أبو سفيان دين عروة بن مسعود ودين أخيه الأسود ، ودخلت ثقيف فى دين الله فلم يكن قوم من العرب أصح إسلاما منهم .

١٠

قال جبريل للنبى ـــ ﷺ :

ـــ إن النجاشى توفى فصل عليه .

وذاع فى دور النبى صلوات الله وسلامه عليه أن النجاشى قد مات فثارت فى نفوس أهل البيت الذكريات ، فشردت أم سلمة بنت زاد الركب أم المؤمنين فرأت نفسها مع زوجها أبى سلمة بن عبد الأسد بن هلال قد خرجا مع عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وجماعة من المسلمين قاصدين الحبشة فرارا من اضطهاد قريش .

إنها ما كادت تستقر هناك حتى جاءت الأنباء أن أهل مكة قد أسلموا . كانت فى شوق إلى العودة إلى مرتع الصبا والشباب فانطلقت هى وزوجها إلى المراكب مع المنطلقين من المسلمين إلى مكة الحبيبة الوطن الغالى الذى تهوى إليه أفئدتهم جميعا ، وراحوا يتعجلون الأيام حتى إذا ما بلغوا مرفأ مكة نزلوا إلى الأرض الحبيبة وقد خفقت قلوبهم وجدا وخفوا إلى رواحلهم وانسابوا فى معبد الله ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل منهم أحد فيها إلا بجوار أو مستخفيا .

إنها تتذكر أنها وزوجها قد دخلا فى جوار أبى طالب بن عبد المطلب فأم أبى سلمة برّة بنت عبد المطلب ، فكان على أبى طالب أن يحميهما كما يحمى ابن أخيه محمدا ـــ ﷺ ـــ وإن كانا مسلمين ، فالعصبية فى قريش كانت أقوى

من الدين .

وطاف بذهنها عثمان بن مظعون ، إنه دخل بجوار من الوليد بن المغيرة فلما رأى عثمان ما فيه أصحاب رسول الله — ﷺ — من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد قال :

— والله إن غدُوِّى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— يا أبا عبد شمس وَفت ذمتك ، لقد رددت إليك جوارك .

— لم يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى .

— لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره .

— فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى .

— صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فقال لبيد :

— ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

قال عثمان :

— صدقت .

قال لبيد :

ــ وكل نعيم لا محالة زائل .

ــ كذبت . نعيم الجنة لا يزول .

قال لبيد :

ــ يا معشر قريش والله ما كان يُؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم :

ــ إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وعظم ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

ــ أما والله يا بن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

ــ بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

ــ هلم يا بن أخت إن شئت فعد إلى جوارك .

ــ لا .

وخطر على قلبها ما كان من أمر زوجها ، فأبو سلمة لما استجار بأبى طالب مشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا له :

ــ يا أبا طالب لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فما لك ولصاحبنا تمنعه منه ؟

ــ إنه استجار بى وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى .

فقام أبو لهب فقال :

ـــ يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون توثّبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

ـــ بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

إنها لتذكر أنها كانت وزوجها فى أوائل المهاجرين إلى الحبشة ، وأن أبا سلمة كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، فإن قريشا آذته بعد أن قدم من الحبشة ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا ، إنه حملها على بعيره وحمل معها ابنه سلمة ثم خرج بها يقود بها بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا :

ـــ هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوها منه يكاد كبدها أن ينفطر . وغضب عند ذاك بنو عبد الأسد ، رهط أبى سلمة فقالوا :

ـــ لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابنها سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسها بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجها أبو سلمة إلى المدينة ففرّق بينها وبين زوجها وبين ابنها .

سنة أو قريبا من سنة كانت تخرج فيها كل غداة فتجلس بالأبطح فما تزال تبكى حتى مر بها رجل من بنى عمها ـــ أحد بنى المغيرة ـــ فرأى ما بها فرحمها فقال لبنى المغيرة :

ـــ ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لها :

ــ الحقى بزوجك إن شئت .

ورد بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ابنها ، فارتحلت بعيرها ثم أخذت ابنها فوضعته فى حجرها ثم خرجت تريد زوجها بالمدينة وما معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة . إنه كان على الكفر وكانت بيده مفاتيح الكعبة ، وإن صوته ليرن فى أذنيها الساعة لكأنما قد عاد الزمن عشر سنوات :

ــ إلى أين يا بنت أبى أمية ؟

ــ أريد زوجى بالمدينة .

ــ أوما معك أحد ؟

ــ لا والله . إلا الله وبُنَىَّ هذا .

ــ والله ما لك من مترك .

إن ذلك الحديث قد حفر فى أغوار نفسها ، وإنها لترى عثمان بن طلحة بعين بصيرتها وهو يأخذ بخطام البعير فينطلق معها يهوى بها ، وغمغمت :

ــ فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه .

إنه إذا بلغ المنزل أناخ بها ثم استأخر عنها ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرها فحط عنه ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى عنها إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرها فقدمه فرحَله ثم استأخر عنها وقال :

ــ اركبى .

فإذا ركبت واستقرت على بعيرها أتى فأخذ بخطامه فقادها حتى ينزل بها ، فلم يزل يصنع ذلك بها حتى أقدمها المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقُباء قال :

— زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وظلت أم سلمة تحملق فى سقف حجرتها فى بيت رسول الله — ﷺ — ثم قالت :

— والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ذكريات كثيرة أثارها نبأ موت النجاشى فى وجدان أم سلمة ، وفى الحجرة المجاورة كانت أم حبيبة أم المؤمنين تعود بذاكرتها إلى أيام الحبشة . إنها تزوجت عبيد الله بن جحش بعد أن أسلم — وكان قد دخل فى النصرانية من قبل — وقد فرت معه بدينها إلى الحبشة ، فقابل هناك الرهبان فارتد إلى النصرانية وكان يمر بأصحاب رسول الله — ﷺ — وهم هناك من أرض الحبشة فيقول :

— فقَّحنا وصأصأتم[1] .

إنها ظلت على دينها ، فلما مات عبيد الله بأرض الحبشة رأت رؤيا تفتحت لها كل آمالها ، سمعت فى النوم هاتفا يهتف بها « يا أم المؤمنين » . فطار خيالها إلى المدينة حيث كان الرسول — ﷺ — ؛ إنها بشرت بأنها ستصبح ذات يوم زوجا لنبى الإسلام عليه السلام .

وأطرقت تصيخ السمع إلى الماضى البعيد ، إنها تسمع الساعة أبرهة جارية النجاشى وهى تزف إليها البشرى فيبدو على وجهها انفعالات البشرى لكأنما تسمعها لأول مرة :

---

(١) أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر و لم تبصروا بعد . وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر صأصأ لينظر . وقوله فقح : فتح عينيه .

— أرسل رسول الله — ﷺ — إلى مولاى ليزوجه إياك ، وإن مولاى يسألك أن توكلى من يزوجك .

— وكلت خالد بن سعيد بن العاص .

— وخفق قلب أم حبيبة بين جنبيها وشكرت الله على أن اصطفاها زوجة لنبيه ، فإنها نعمة كبرى أن تصبح أم المؤمنين ، وعادت إلى ذاكرتها ما قالته لها أبرهة بعد أن تمت الخطبة :

— أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمدا رسول الله وآمنت به وحاجتى إليك أن تقرئيه منى السلام ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر .

إن رسول الله — ﷺ — يراه عليها وعندها فلا ينكره .

وأهاج نبأ موت النجاشى ذكريات الحبشة فى وجدان أم حبيبة ، وخرج النبأ من دور النبى — ﷺ — إلى دور المهاجرين والأنصار ، وفى دار أبى بكر الصديق راحت زوجه أسماء بنت عميس تجرى وراء ذكرياتها ، إنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب . وما كاد المسلمون يستقرون بها حتى أرسلت قريش خلفهم عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد بن المغيرة ذلك الذى أرادت قريش دفعه لأبى طالب ليكون بدلا عن النبى — ﷺ — إذا قتلوه .

وراحت تتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه رسول النجاشى إلى المسلمين يطلبهم ، لقد علموا بما كان من عمرو ومن عمارة فقد قدما إلى النجاشى هدية وأهدوا لعظماء الحبشة هدايا ليرد من جاء إليه من المسلمين وإن جعفرا قال لأصحابه :

— أنا خطيبكم اليوم .

عاد جعفر إليها بعد أن قابل النجاشى متهلل الوجه وراح يقص عليها ما كان من هزيمة عمرو وصحبه . إنه قال لها إنه سار والذين معه من المسلمين فى ردهاتِ القصر حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح وقال :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

فقال النجاشى :

— نعم . يدخل بأمان الله وذمته .

ودخل جعفر وأصحابه فإذا بعمرو بن العاص عن يمين النجاشى وعمارة ابن الوليد عن يساره ، فقال جعفر :

— السلام عليكم ورحمة الله .

فقال عمرو بن العاص للنجاشى :

— ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك ؟

فقال النجاشى :

— ما منعكم أن تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أُحيَّا بها ؟!

فقال جعفر :

— إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

— ولم تفعل ذلك ؟

— لأن الله أرسل فينا رسولا وأمرنا إلا نسجد إلا لله عز وجل ، وأخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام . فحييناك بالذى يحيى به بعضنا بعضا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

فقال عمرو بن العاص :

— إنهم يخالفونك فى ابن مريم ولا يقولون إنه ابن الله جل وعلا .

قال :

ـــ فما تقولون فى ابن مريم وأمه ؟

قال جعفر :

ـــ نقول كما قال الله عز وجل روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء .

فقال النجاشى :

ـــ يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون . أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل .

وأهاج نبأ موت النجاشى ذكريات أيام الحبشة فراحت تنثال على رأس أسماء بنت عميس التى استشهد زوجها العزيز فى مؤتة ، فتزوجها أبو بكر الصديق من بعده ، فما كان المسلمون يتركون أزواج الشهداء دون عائل فقد كانوا يعلمون أن النساء فى حاجة إلى الزوج حاجتهم إلى الطعام والشراب .

ونكأ خبر موت النجاشى جرح قلب عمرو بن العاص . إن سادات قريش بعثوه وعمارة بن الوليد إلى النجاشى ليطلبا منه أن يسلمهما المسلمين الذين فروا إلى أرضه : إنه أخذ معه زوجه وكان عمارة رجلا جميلا فتن امرأته وهوته . إنه يحاول أن يطرد أشباح الماضى عن رأسه ولكن الذكريات راحت تلح عليه ، إنه يرى نفسه وهو فى السفينة وإلى جواره امرأته وعمارة بن الوليد يقبل نحوهما وهو يترنح ، وإنه ليسمع صوت عمارة وهو يقول له فى صوت أشبه بفحيح الأفاعى :

ـــ مر امرأتك فلتقبلنى .

ويدوى فى السكون صوته كقرع الطبول :

ـــ ألا تستحى ؟

إنه يرى عمارة وهو يتقدم نحوه ويراه وهو يحمله ويلقى به فى البحر ، وإن صوته وهو يصيح يرن فى أعماق ذاته . إنه ناشد أصحاب السفينة أن ينقذوه

وناشد عمارة أن يأخذ بيده ، إنه ليرى الأيدى وهى تمتد إليه وتنتشله من اليم ، وأغمض عينيه حتى لا يرى ما كان ولكن الصور ظلت تتتابع فى خياله رغم أنفه ، والأصوات تسرى فيه كالهمس وكزمجرة البحر مرات وهو يتلوى من الآلم يود لو يجد شيئا يشغله عن تلكم الأفكار التى تعذبه وتضنيه .

— قبلى ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه .

وغطى وجهه براحتيه ومسح جبينه لعله يمحو ما فى رأسه من خيالات ؛ ولكن الذكريات راحت تتدفق دون انقطاع . إنهم أتوا أرض الحبشة وهو لا يستطيع أن ينسى ما كان فى السفينة ولا بد أن يثأر لما لحقه من إهانة .

إنه مكر بعمارة وراح الحديث الذى دار بينهما فى ذلك اليوم يتفجر فى أعماقه :

— أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال ، فتعرض لزوجة النجاشى لعلها أن تشفع لنا عنده .

— أفعل .

وخيل إليه أن صوت عمارة كان كسوط يلهب حواسه ، وأخذ يقنع نفسه أن ذلك كان منه قبل أن يُسلم وأن الإسلام يجب ما قبله ، ولكن شبح عمارة كان يأخذ بتلابيبه ؛ إنه جاء إليه يخبره أن زوجة النجاشى أهدت إليه من عطرها ، وهو يرى نفسه وهو ينسل إلى النجاشى ويقول له :

— إن صاحبى هذا صاحب نساء وإنه يريد أهلك ، وهو عندها الآن .

فبعث النجاشى فإذا عمارة عند امرأته فقال :

— لولا أنه جارى لقتلته ، ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل .

— ألقاه النجاشى فى الأدغال مع الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت .

وهز عمرو بن العاص رأسه ليطرد ما فيه من صور ، ولكن مكره بعمارة بن الوليد استمر يلاحقه . لقد أثلج صدره فى ذلك اليوم لما حمل عمارة إلى رءوس الجبال فإذا بذلك الفرح ينقلب إلى وخز يخز ضميره كلما تذكر أحداث الحبشة ، وبعث فى عين ذاته شعره الذى خاطب به عمارة لكأنما نشر من قبر سحيق :

إذا المرء لم يتـــرك طعامـــا يحبـــه
ولم ينـــه قلبـــا غاويـــا حـــيث يممـــا
قضى وطـــرا منـــه وغـــادر سبـــة
إذا ذكـــرت أمثـــالها تملأ الفمـــا

وأهاج خبر موت النجاشي ذكريات الحبشة فى وجدان عمرو بن العاص ، ولم ينثن طيف عمارة بن الوليد عنه فى اليقظة وفى المنام .

وعاد عمرو بن أمية الضمرى بخياله إلى تلكم الأيام التى بعثه فيها رسول الله ـ ﷺ ـ إلى النجاشي فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلمٌ أنت ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى . فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى) .

ويرى عمرو بن أمية الضمرى نفسه وهو يسير فى ردهات قصر النجاشي ومن

حوله كبار موظفى القصر وقد زينت الجدران بـرءوس الأسود والنمور والغزلان ، وفرشت الأرض بجلود فاخرة ، حتى إذا بلغ باب قاعة العرش نادى :

ـــ بالباب عمرو بن أمية الضمرى رسول محمد رسول الله .

ـــ مرحبا بك . ادخل .

ويرى نفسه وهو يتقدم مرفوع الرأس ويلقى على النجاشى تحية الإسلام فيرد عليه بتحية الإسلام ويرحب به ويجلسه عن يمينه ويتلقى منه كتاب رسول الله ـــ ﷺ . فما ينتهى منه حتى يسارع باستدعاء كاتبه العربى ويملى عليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر . سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إلـٰه إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفروقا . إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا . وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت إليك بابنى إرها بن الأصحم بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك يا رسول الله) .

إنه يرى بخياله النجاشى وهو يختم الكتاب بخاتمه ووجهه خاشع وقد انعكس عليه الإيمان العميق ، ويراه وهو يطوى الكتاب فى انفعال ثم يقدمه إليه فى أدب جم ويسأله أن يقرىء رسول الله ـــ ﷺ ـــ السلام .

وعاش عمرو بن أمية لحظات فى الوليمة التى أولمها النجاشى فى قصره لما زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ، ورأى

نفسه وهو يخرج من الحبشة ومعه جعفر بن أبى طالب وأصحابه وأم حبيبة أم المؤمنين فى سفينتين حتى قدموا مرفأ المدينة ، ثم ركبوا الظهر إلى المدينة فوجدوا رسول الله — ﷺ — بخير مع من خرج إليه ، وأقامت أم حبيبة حتى قدم رسول الله فدخلت عليه .

ذكريات كثيرة أثارها خبر موت النجاشى فى رءوس الذين هاجروا إلى الحبشة فى الهجرتين ، وأفكار تطوى الزمن فيمتزج الماضى بالحاضر فى وجدان أناس صنعوا تاريخ حقبة من أهم حقب الإسلام ، وحوار ظل مشبوبا إلى أن أمر رسول الله — ﷺ — أصحابه أن يحضروا وصَفَّهم ثم تقدم رسول الله — ﷺ — وقال لهم :

— إن الله أمرنى أن أصلى على النجاشى وقد توفى فصلوا عليه .

١١

وهن عظم عبد الله بن أبى بن سلول واشتعل رأسه شيبا و لم يخب حقده على رسول الله ــ ﷺ ــ بل اشتد مرض قلبه فهو لا يفتأ يذكر أن محمدا عليه السلام قدم المدينة لما كان هو سيد أهلها ، لا يختلف عليه فى شرفه فى قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله على رجل من أحد الفريقين غيره .

كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاء محمد بن عبد الله مهاجرا إلى يثرب وهم على ذلك ، فلو أن هجرة رسول الله ــ ﷺ ــ تأخرت شهرا أو بعض شهر لكان أول ملك على يثرب ، ولنعم بالسيادة وعز الملك وجاه السلطان .

انصرف قومه عنه إلى الإسلام فامتلأ قلبه ضغينة ، ورأى أن رسول الله ــ ﷺ ــ استلبه ملكا فراح يكيد لرسول الله ــ صلوات الله عليه ــ سرا وجهرا . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق .

مرض سعد بن عبادة فركب رسول الله ــ ﷺ ــ إليه على حمار فوقه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد خلفه ، فمر بعبد الله بن أبى وهو فى ظل مزاحم أُطُمه وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله ــ ﷺ ــ استحيا من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ثم جلس قليلا ، فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل وذكّر بالله وحذر ، وبشر وأنذر ، وهو ساكت لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله ــ ﷺ ــ من مقالته قال :

ـــ يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ؛ فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدِّثه إياه ومن لم يأتك فلا تفتَّه به ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه .

فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين :

ـــ بلى فاغشَنا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمُك لا تزل
تذل ويصرعك الذين تُصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه
وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع

وقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله ابن أبى ، فقال سعد بن عبادة :

ـــ والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا تكرهه .

ـــ أجل .

ثم أخبره بما قال ابن أبى فقال سعد :

ـــ يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا .

وظل التاج يتخايل لابن أبى كلما أمد الله رسوله بنصره ، فلم يكن يفرح بنصر المؤمنين بل كان يصاب بحزن ثقيل إذا مست المسلمين حسنة ، إنه كاد يموت غما لما تم النصر للمسلمين ببدر ، وزاد قلبه مرضا لما جمع رسول الله ـــ

ﷺ ـــ يهود بنى قينقاع فى سوقهم وقال لهم :

ـــ يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

ـــ يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

كان يهود بنى قينقاع حلفاء ابن أبى فكان يتحرق شوقا إلى أن تنشب الحرب بين محمد عليه السلام وبين اليهود ، وكان يمنى النفس بانتصار اليهود على عدوه ، وعادت الأمانى تداعبه بأن وضع التاج على رأسه قد دنا ، فلما أنزل الله تعالى فى يهود بنى قينقاع : « قل للذين كفروا ستُغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار[١] . ازدادت رغبته فى نصر اليهود على المسلمين . فلو تحقق ذلك لتزعزع إيمان المؤمنين بقرآن محمد ، ولسهل عليه أن يطرد ذلك الذى جاء ليسلبه ملكه .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ـــ ﷺ ، فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ، فكاد قلب ابن أبى أن ينفطر و لم يستطع أن يكتم عواطفه فقال :

ـــ يا محمد أحسن فى موالىّ .

فأبطأ عليه رسول الله ـــ ﷺ ، فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أرسلنى .

---

(١) آل عمران ١٢ ، ١٣ .

وغضب رسول الله — ﷺ — حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال :

— ويحك ! أرسلنى .

— لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

ولم يشأ رسول الله — ﷺ — أن يحدث انقساما فى مجتمعه الجديد الذى كان ينمو مع الأيام ، فقال :

— هم لك .

كان عبد الله بن أبى يتلمس الأسباب ليطعن الإسلام طعنة قاتلة ، ولكن رسول الله — ﷺ — كان يفوت عليه تدبيره وكان يغفر له إساءاته ويرفق به ، فقد جاء الله برسوله إلى المدينة وأهلها ينظمون الخرز لابن أبىّ ليتوجوه ملكا عليهم .

رأى ابن أبىّ يوم أحد أن يقيم المسلمون بالمدينة وأن يدعوا عدوهم يدخل عليهم ويقاتلوه فيها ، لا لأنه كان يؤمن بأن ذلك فى مصلحة المسلمين بل لأنه كان يرى أن انكسار المسلمين فى المدينة فيه سحق لقوتهم ، وأن هزيمتهم لو وقعت ستكون قاضية ، فلما استقر الرأى على الخروج لم يخضع لرأى الأغلبية بل قال :

— أطاعهم وعصانى ، ما يدرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟

ووجد سببا لينخذل عن رسول الله لعل رجوعه بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والرّيب يفت فى عضد جيش المسلمين ، فتتحقق هزيمتهم التى كانت شغله الشاغل ومحور تفكيره وتدبيره .

إنه كان يظهر الطاعة والرضا ويضمر العداوة والبغضاء ، فإذا جلس

رسول الله — ﷺ — يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله بن أبى فقال :
— أيها الناس ، هذا رسول الله — ﷺ — بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا .

فلما عاد رسول الله — ﷺ — من أحد قام عبد الله بن أبى ليعطى من طرف لسانه للمسلمين حلاوة ويلج فى النفاق ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا :

— اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .

فخرج يتخطى الرقاب وهو يقول :

— والله لكأنما قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال :

— مالك ؟ ويلك !

— قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى لكأنما قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

— ويلك ! ارجع يستغفر لك رسول الله — ﷺ — .

— والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

كان يظهر الإيمان بلسانه وكان الكفر يملأ قلبه ، وكان يعيش على أمل أن ينتصر حلفاؤه من اليهود على رسول الله — ﷺ — وأن يقضى على الإسلام فى المدينة ، فيعود إليه نفوذه ويعود إليه التاج الذى سلبه إياه محمد بن عبد الله يوم أن هاجر إلى يثرب .

وغدر يهود بنى النضير ودبروا قتل رسول الله — ﷺ — لما ذهب إليهم ، فقد خلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

كان رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدا فقالوا :

ـــ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟!

فصعد أحدهم ليلقى عليه صخرة ، فأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة وكانت الحرب بين المسلمين وبين بنى النضير .

وراح عبد الله بن أبى بن سلول يعض أصابعه من الغيظ ، فلو أن الصخرة قد هوت على محمد بن عبد الله لأراحت اليهود وأراحته من الرجل الذى سلبه التاج وسلبه قلوب الناس حتى قلب ابنه عبد الله .

وتحصن بنو النضير من رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى الحصون وحاصرهم رسول الله عليه السلام ، ورأى ابن أبى أن يشد أزر اليهود فهم أمله الأخير ، فبعث إلى اليهود أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وقذف الله فى قلوب بنى النضير الرعب وسألوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يجليهم ويكف عنهم . وخرج بنو النضير إلى خيبر وإلى الشام و لم يحرك عبد الله ابن أبى ساكنا . إنه كان يخشى بطش المسلمين وإنه يريد الدنيا ليحقق أحلامه الأرضية ، فكان دمه غاليا يخشى أن يهدر قبل أن يحقق الوهم الذى استولى على لبه ، وهو أن يصير ملكا على الأوس والخزرج جميعا .

وكان بين الحين والحين ينفس بلسانه عن حقده الدفين ، فقد قاتل رسول الله ـــ ﷺ ـــ بنى المصطلق ونصر الله رسوله ، فلما جاء الليل تزاحم الناس على الماء فتشابك أجير عمر بن الخطاب وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج ثم اقتتلا ، فصرخ الجهنى :

ـــ يا معشر الأنصار .

وصرخ أجير عمر :

ــ يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبى فقال :

ــ أوَقد فعلوها ؟ لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأُول : سمِّن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ــ هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وبلغ رسول الله ــ ﷺ ــ ما قال كبير المنافقين ، فلما علم ابن أبى أن رسول الله قد بلغه ما قال مشى إليه فحلف بالله إنه ما قال ولا تكلم بما بلغ نبى الإسلام عليه السلام . فأنزل الله قرآنا يكذبه فأوجع ذلك قلب ابنه عبد الله ، فأتى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ يا رسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَ بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار .

ــ بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وأحسن رسول الله ــ ﷺ ــ صحبته ، ولكنه لم يستطع أن يبرأ من مرض قلبه فإنه خاض فى حديث الإفك وراح يرمى عائشة أم المؤمنين بالفاحشة ويوسع الأرض إذاعة بما افتراه ليزلزل كيان رسول الله ــ ﷺ ــ

وليقوض أركان ذلك الدين الذى كان الصخرة التى تتحطم عليها آماله ، وعاش أياما وهو يتهلل بالفرح ولكن الله أنزل براءة عائشة من فوق سبع سموات وتوعد الذين جاءوا بالإفك بعذاب عظيم .

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس أن يتجهزوا للخروج لقتال الروم ، فخرج عبد الله بن أبى فى رجال من قومه وضرب على حدة عسكره أسفل من عسكر رسول الله — ﷺ — ولم يكن خروجه ليؤيد المسلمين بل لتثبيط هممهم ، فراح يوسوس لهم لا تنفروا فى الحر . فلما أبى المسلمون إلا أن ينفروا فى الحر ابتغاء مرضاة الله تخلف عبد الله وهو يرجو أن يضرب الروم المسلمين ضربة قاصمة ليعود إليه المجد والتاج ، فلما جاء الحق وظهر أمر الله كاد يموت من الغم لولا بقية من أمل فى أن تأتى الأيام بما يشتهيه .

ولم تحقق الأيام أمانيه ، إنه ناء بأحقاد قلبه فسقط فى فراشه ليلتقط أنفاسه فلم يشخص ببصره إلى السماء يلتمس من ربه المغفرة ويتوب إليه من وسوسات نفسه الأمارة بالسوء ، ولكنه عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه على رأس الأوس والخزرج للحج . إن رجاله قد ناموا معه فى رحالهم بعد أن حجوا وما درى أن بعضهم قد واعدوا محمد بن عبد الله ليقابلوه عند العقبة . إنه ما انقضى ثلث الليل حتى خرجوا من رحالهم لميعاد ابن عبد الله يتسللون تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة .

آه لو انكشف أمرهم فى تلك الليلة لقضى على الفتنة قبل أن يشتد عودها ، ولما ضاع منك الملك والتاج ، إنهم دبروا أمرهم وبايعوا محمد بن عبد الله على نصره ، فلما أصبح الناس غدت عليهم جلَّة قريش حتى جاءوهم فى منازلهم فقالوا :

— يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من

بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فقال فى ثقة :

ـــ ان هذا أمر جسيم ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته كان .

وأحس وهو فى فراش الموت مرارة فى فمه ، إن غروره قد قتله . كان على ثقة بمكانته فى قومه وما خطر له على قلب أن ناسا من قومه يدبرون أمرا وراء ظهره ، فقد اختاروه طائعين ليكون لهم ملكا وإنهم يتأهبون لتتويجه ، فلو أن بادرة من الشك خامرته لفحص عن الأمر ولعرف حقيقة ما كان بين محمد بن عبد الله وبين النقباء الاثنى عشر عند العقبة ، ولأخمد جذوة الثورة قبل أن تتأجج وتأتى على آماله وأمانيه .

وانبعثت من جوفه ضحكات ساخرة ، وترادفت على رأسه صور انتصارات رسول الله ـــ ﷺ ـــ فزادت آلام نفسه فجعل يضرب رأسه بكف واهنة ليطرد الأفكار المضنية التى تعذبه وتلهب روحه بسياط أشد قسوة من النار .

ورأى عبد الله بن عبد الله بن أبى أن أباه فى النزع الأخير ، فنزل به حزن ثقيل لأن أباه يموت منافقا و لم يشرح الله للإسلام صدره ، فغدا يتوسل إلى أبيه أن يتوب إلى الله توبة نصوحا وأن يسأله المغفرة ، ولكن أباه لج فى عناده فأشاح بوجهه عن ابنه الذى أشرق قلبه بأنوار اليقين .

وخرج عبد الله بن عبد الله بن أبى يعدو إلى حيث كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وسأله فى انفعال شديد أن يستغفر لأبيه ، كان ـــ ﷺ ـــ يحب عبد الله وكان يعرض عن إساءات أبيه فهو لا ينسى أنه حرمه الملك والسلطان . فراح يستغفر لابن أبى فأحس ابنه عبد الله كأن كابوسا انزاح عن صدره .

و لم يطل فرح الابن فقد أنزل الله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[1] فأطرق عبد الله ونياط قلبه تتمزق ، فهو يحب أباه بكل خلجة من خلجات نفسه وهو يرجو له أن يتطهر من نفاقه قبل أن يلقى ربه ، ولكن الأب أصر على الكفر والعصيان إرضاء لغروره وكبريائه .

ومات عبد الله بن أبى بن سلول و لم ييأس ابنه عبد الله بل ظل متعلقا بأمل ، فلعل صلاة رسول الله — ﷺ — على أبيه تشفع له عند ربه ، فأتى رسول الله عليه السلام وقال له :

— أعطنى قميصك حتى أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له .

فأعطاه عليه السلام قميصه ، ثم قال :

— آذنى حتى أصلى عليه .

وكفنه عبد الله بن أبى فى قميص رسول الله — ﷺ — وحان أوان الصلاة على أبيه ، فقام إليه فلما وقف يريد الصلاة عليه ، جذبه عمر بن الخطاب وتحول حتى وقف فى صدره فقال له :

— يا رسول الله أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى بن سلول القائل كذا يوم كذا والقائل كذا يوم كذا ؟

وراح يعدد أيامه ورسول الله — ﷺ — يتبسم حتى إذا أكثر عمر قال عليه السلام :

— يا عمر أخّر عنى ، إنى قد خيرت فاخترت ، قد قيل لى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ فلو أعلم أنى

---

(١) التوبة ٨٠ .

قد زدت على السبعين غفر له لزدت .

ثم صلى عليه رسول الله — ﷺ — ومشى معه حتى قام على قبره حتى فُرغ منه ، فعجب عمر لنفسه ولجرأته على رسول الله — ﷺ — والله ورسوله أعلم ، وظل يؤنب نفسه فما كان إلا يسيرا حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾(١) فأفرخ روع عمر ونزلت على قلبه السكينة وحمد الله رب العالمين .

وكلم عمر رسول الله — ﷺ — فيما فعل بعبد الله بن أبى ، فقال عليه السلام :

— وما يغني عنه قميصي وصلاتى من الله ! والله إنى كنت أرجو أن يُسلم به ألف من قومه .

---

(١) التوبة ٨٤ .

١٢

آن أوان الحج وقد رفرف الإسلام على مكة ؛ الكعبة قد طهرت من الأصنام لما جاء الحق وزهق الباطل ، وقريش تصلى لله رب العالمين ولكن بعض القبائل التى لم تعتنق الإسلام كانت على شركها وكانت توقر البيت العتيق وتحج إليه ، فسيجتمع المسلمون والمشركون فى بين واحد وفى وقت واحد ، وسيلبى كل فريق بتلبيته وإنه لأمر لا يستقيم ولا يتساوق مع ما ينبغى أن يكون فى أول بيت وضع للناس ليكون منارة للتوحيد .

كان التوحيد هو الأصل وقد جاء الشرك لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وقد أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل لعبادة الله وحده ، فإن كان الناس قد أشركوا بربهم وعبدوا آلهة مع الله ، فقد جاء الإسلام ليعيد ملة إبراهيم وليطهر بيت الله من الأصنام والأوثان للطائفين والقائمين والركع السجود .

وعاد البيت الحرام سيرته الأولى ، عاد منارة للتوحيد فأصبح حج المشركين البيت وإقامة شعائرهم فيه شيئا غير مقبول ولا يساغ ، وكان بعض فقراء المشركين من الرجال والنساء يطوفون بالبيت عرايا لأن الحمس من قريش قالوا إنه لا يجوز الحج فى ملابس اقترفت فيها الخطايا وكانوا يبيعون الحجاج ثيابا جديدة ، فالذين كانوا لا يملكون ثمن الثياب كانوا يخلعون ما عليهم ويطوفون بالبيت كما ولدتهم أمهاتهم ؛ وإنه لشىء يتنافى مع كرامة الإنسان وما جاء الإسلام إلا ليحفظ للناس كرامتهم .

وبات الأمر يحتاج إلى تشريع ليكون بيت الله خالصا لله ، ولكن للمشركين عهدا بينهم وبين رسول الله — ﷺ — أن لا يُصَد عن البيت أحد جاءه ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام . وكانت هناك عهود بينه عليه السلام وبين قبائل من العرب إلى آجال مسماة .

كانت رغبة رسول الله — ﷺ — أن يحج البيت وقد تطهر من الشرك والمشركين ومن العراة الذين يثيرون اشمئزاز كل ذى ذوق سليم ، فبعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين .

واجتمع المسلمون والمشركون فى أسواق مجنة وذى المجاز وعكاظ ، وقام شعراء المسلمين ينشدون الشعر فى محاسن الإسلام ، وجعل القراء يتلون القرآن فرفرف الإسلام على الأسواق و لم يعد هناك شك أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أين اليوم من الأمس ؟ فاليوم يهرع الناس ليلقوا السمع إلى خطباء المسلمين بينا كان محمد عليه السلام لما أمره ربه بتبليغ رسالته يخرج إلى الأسواق يعرض نفسه على القبائل فلا يجد منهم إلا الإعراض المبين .

وأنزل الله على عبده : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسولُهُ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا و لم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون * وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم * أم حسبتم أن تُتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون * ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾[1] .

---

(١) التوبة ١ — ١٨ .

وراح رسول الله — ﷺ — يتلو على المسلمين فى مسجده ما أنزل عليه من ربه ، فقالوا :

— يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر الصديق .

فقال عليه السلام :

— لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى .

ثم دعا على بن أبى طالب فقال له :

— اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

فخرج علىّ كرم الله وجهه على ناقة رسول الله — ﷺ — العضباء . حتى أدرك أبا بكر بالطريق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

— أأمير أم مأمور ؟

— بل مأمور .

ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية . وراح الرجال الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام يرنون إلى المسلمين فى عجب وإعجاب ، وأخذ بعضهم يصغى إلى كلام الله فيستشعر كأن أنوارا من السماء تنسكب فى عين ذاته وفى أعماق وجدانه ، وبذرت فى قلوب بعض القبائل فكرة شد الرحال إلى مدينة الرسول للإصغاء إلى حكمته وإعلان الإسلام والتسليم لله .

وجاء يوم النحر وقد اجتمع الناس جميعا فى منى فقام علىّ بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله — ﷺ — فقال :

— أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ،

ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كلُّ قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله — ﷺ — عهده إلى مدته فهو له إلى مدته .

إن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله — ﷺ — وخلافه . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله — ﷺ — ولا عداوته ، رأت قبائل العرب أن تبعث إليه — صلوات الله وسلامه عليه — الوفود لتدين له وتعلن إسلامها .

وأحس حسان بن ثابت شاعر الرسول أن قريشا بعد إسلامها قد تستحوذ على المجد كله . فراح حسان بعدد أيام الأنصار مع النبى — ﷺ — ويذكر مواطنهم معه فى أيام غزوه :

ألستُ خير معدّ كلِّها نفرا
ومعشرًا إن هموا عمُّوا وإن حصلوا

قوم همُ شهِدوا بدرا بأجمعهم
مع الرسول فما آلوا[١] وما خذلوا

وبايعوه فلم ينكُث به أحدٌ
منهم ولم يَك فى إيمانهم دخل[٢]

---

(١) ما ألوا : ما قصروا . ويروى : « ما آلوا » بالمد ، أى ما أبطئوا .

(٢) دخل : فساد .

ويـوم صبَّحهـم فى الشِّعب مـن أحـد
ضرب رصين[١] كحرِّ النـار مشتعـلُ
ويـوم ذى قَـرَد يـوم استثـار بهم
على الجياد ، فما خامـوا ومـا نكلـوا[٢]
وذا الـعشيرة جاسوهـا[٣] بخيلهـم
مـع الـرسول عـليها البـيض والأسَل
ويـوم ودّان أجلـوا أهلـه رَقَصا[٤]
بالخيـل حتـى نهانـا الحزنُ والجبـل
وليلـةً طلبـوا فيها عدوَّهـمُ
لله والله يجزيهم بما عملـوا
وغـزوةً يـوم نجد ثم كان لهم
مـع الـرسول بها الأسلاب والنَّفَـل
وليلـة بحُنين جالـدوا معـه
فيها يعَلُّهـم[٥] بـالحرب إذ نَهلـوا
وغـزوة القـاع فرَّقنـا العـدوَّ بـه
كما تُفـرَّق دون المشرب الـرُّسل

(١) رصين : ثابت محكم .
(٢) خاموا ونكلوا : جبنوا عن هيبة وفزع
(٣) جاسوها : وطئوها ، والبيض : السيوف . والأسل : الرماح .
(٤) الرقص : ضرب من المشى ، وهو الخبب . والحزن : ما ارتفع من الأرض .
(٥) يعلهم : أى يكررها عليهم ، من العلل ، وهو الشرب الثانى . النهل : الشرب الأول .

ويـــوم بُويــعَ كانـــوا أهـــل بيعتــــه
على الجلاد فـــآسَوه ومـــا عَدَلـــوا
وغـــزوة الفتـــحِ كانـــوا فى سريَّتـــه
مُرابـطين فمـا طـاشوا ومـا عَجِلـوا
ويـــوم خـــيبر كانـــوا فى كتيبتـــه
يمشون كلهـــم مُستـبسل[1] بطـــل
بالبـــيض تَــرْعش فى الأيمان عاريـــة
تعـوَجّ فى الضرب أحيانـا وتعتـــدل
ويـــــوم سار رسول الله مُحتسِبــــا
إلى تبـــوك وهـــم راياتـــه الأوَل
وساسة الحرب إن حـــربٌ بـــدَت لهم
حتـى بـدت لهم الإقبـال والقَفـل[2]
أولـــئك القـــوم أنصار النبـــى وهـــم
قومـــــى أصير إليهم حين أتَّصل[3]
ماتـــوا كرامـــا ولم تُنـــكَث عهودهـــم
وقتلهـــم فى سبيـــل الله إذ قُتِلـــوا

وقال حسان بن ثابت أيضا :

كنـــا ملـــوك النـــاسِ قبـــل محمـــد
فلمـــا أتى الإسلام كان لنـــا الـــفضل

---

(١) مستبسل : موطن نفسه على الموت .
(٢) القفل : الرجوع .
(٣) حين أتصل : حين أنتسب .

وأكرمنا الله الذى ليس غيرَهُ
إلٰهٌ بأيام مضت ما لها شَكْل[١]

بنصر الإلٰه والرسول ودينه
وألبسناه اسما مضى ما له مثْل

أولئك قومى خيرُ قوم بأسْرهم
فما عُدَّ من خير فقومى له أهل

يَربُّون[٢] بالمعروف معروف من مضى
وليس عليهم دون معروفهم قفل

إذا اختُبطوا[٣] لم يُفحشوا فى نديِّهم
وليس على سؤالهم عندهم بُخْل

وإن حاربوا أو سالموا لم يُشبَّهوا
فحربهم حتفٌ وسِلمهم سَهْل

وجارُهم مُوف بعلياء بيته
له ما ثوى فينا الكرامةُ والبذل

وحاملهم موف بكل حمالة[٤]
تحمَّلَ لا غرم عليها ولا خَذلُ

وقائلهم بالحق إن قال قائل
وحملهم عَودٌ[٥] وحكمهم عَدل

---

(١) شكل : مثل .
(٢) يربون : يصلحون .
(٣) اختبطوا : قصدوا فى مجلسهم .
(٤) الحمالة : ما يتحمله الإنسان من غرم فى دية .
(٥) عود : قديم متكرر .

ومنـــا أمير المسلـــمين حياتـــه
ومـن غَسَّلتـه مـن جنابتـه الـرُّسل(١)

وقال حسان بن ثابت أيضا :

قومـــى أولـــئك إن تسألى كـرام إذا الضيـف يومـا ألم(٢)
عظـام القـدور لأيسارهـم يكبُّـون فيها المسِن السَّنـم
يـؤاسون جارهـم فى الغنـى ويحمـون مولاهـم إن ظُلِـم
فكانـوا ملـوكا بـأرضيهم ينـادون عضبا بأمـر غشم(٣)
ملوكا على الناس . لم يمُلَكوا من الدهر يوما كحل القسم(٤)
فأنبـوا بعـاد وأشياعهـا ثمود وبـعض بقايـا إرم(٥)
بيثرب قـد شيـدوا فى النخيـل حصونـا ودجِّـن فيها النعَـم(٦)
نـواضح قـد علَّـمتها اليهو د(عل) إليك وقـولا هلـم(٧)
وفيما اشتهوا مـن عصير القطـا ف(٨) والعيش رخوا على غيرهم

(١) أمير المسلمين : يعنى سعد بن معاذ . ومن غسلته : يعنى « حنظلة » الذى غسلته الملائكة حين استشهد يوم أحد . والرسل هنا : الملائكة .

(٢) ألم : نزل .

(٣) غشم : من الغشم ، وهو أسوأ الظلم .

(٤) يريد بحل القسم : فترة قصيرة .

(٥) فأنبوا : فأنبئوا ، فخفف الهمزة ، وإرم : هى عاد الأولى .

(٦) دجن فيها النعم : اتخذت فى البيوت ، والداجن : كل ما ألف الناس كالحمام والدجاج ونحو ذلك ، والنعم : الإبل والبقر والغنم .

(٧) النواضح : الإبل التى يستقى منها الماء ، وعل : زجر تزجر به الإبل ، وهلم : أقبل .

(٨) القطاف : اسم لما يقطف من العنب وغيره .

فسرنـــــا إليهم بأثقالنـــــا   على كل فحل هجان قَطِـم(١)
جنبنـــا بهن جيـــاد الخيـــو   ل قد جللوهـا جلال الأدم(٢)
فلمـــا أناخـــوا بجنبــي صِرار   وشدوا السروج بلى الحزم
فمـــا راعهـــم غير معـــج الخيـــو   ل والزحف من خلفهم قد دهم(٣)
فطـاروا سراعـا وقـد أفزعـوا   وجئنـا إليهم كـأسد الأجـم
على كل سلهبـة(٤) فى الصبـا   ن لا يشتكـــــن نحول السأم
وكل كميت مطـار الفــؤاد   أمين الفصوص كمثل الزلم(٥)
عليـه فـوارس قـد عـــودوا   قراع الكمـاة وضرب البهم(٦)
ملـوك إذا غشمـوا فى البـــلا   د لا ينكلـــون ولكـــن قـدم
فأبنـــا(٧) بساداتهم والـــنساء   وأولادهــــم فيهم تقـــتسم
ورثنـــا مساكنهم بعدهــــم   وكنـا ملـوكا بها لم نـــرم(٨)
فلمـــا أتانـا الـرسول الرشيـ   ـد بـالحق والنـور بعـد الظلـم
قلنـــا صدقت رسول المليـك   هلـــم إلينـــا وفينـــا أقـــم
فنشهـــد أنك عبـــد الإلـٰــه   أرسِلت نـــورا بديـــــن قيم

---

(١) الهجان : الأبيض . وقطم : هائج يشتهى الضراب .

(٢) جنبنا : قدنا ، وجللوها : غطوها ، والأدم : الجلد .

(٣) معج الخيول : سرعتها ، ودهم : جاء غفلة على غير استعداد .

(٤) سلهبة : الفرس الطويلة .

(٥) مطار الفؤاد : ذكى الفؤاد ، والفصوص : مفاصل العظام ، وأمين الفصوص : قويها ، والزلم : القدح .

(٦) الكماة : الشجعان ، والبهم : الأبطال الشجعان .

(٧) أبنا : رجعنا .

(٨) لم نرم : لم نتحول .

فإنـا وأولادنـا جنّـة | نقـيك وفى مالنـا فاحتكـم
فنحـن أولـئك إن كذبـوك | فنـاد نـداء ولا تحتشم
ونـاد بما كـنت أخفيتـه | نـداء جهـارا ولا تكـتتم
فسار الغـواة بأسيافهـم | إليـه يظنـون أن يخترم[١]
فقمنـا إليهم بأسيافهـم | نجالـد عنـه بغـاة الأمم
بكـل صقيـل لـه ميعـة | رقيق الذباب عضوض خذم[٢]
إذا مـا يصادف صم العظـا | م لم يـنب عنها ولم ينثلـم
فـذلك مـا ورثتنـا القـرو | م مجدا تليـدا وعِـزًّا أشم[٣]
إذا مـر نسل كفـى نسلـه | وغادر نسلا إذا مـا انـفصم[٤]
فمـا إن مـن النـاس إلا لنـا | عليـه وإن خـاس فضل النعـم

---

(١) يخترم : يهلك .

(٢) له ميعة : أى له صقال يشبه الماء فى صفائه ، والذباب : حد طرف السيف ، وخذم : قاطع .

(٣) القروم : السادة ، والتليد : القديم ، والأشم : المرتفع .

(٤) انفصم : انقطع وانقرض .

١٣

أتم الناس الحج المؤمنون والمشركون ، ودخلت السنة التاسعة من الهجرة وبدأت وفادات العرب على رسول الله ـــ ﷺ ، وذلك أن العرب إنما كانوا ينتظرون فتح مكة وإسلام هذا الحى من قريش . فلما فتح الله عز وجل على رسوله ـــ ﷺ ـــ مكة وأسلم من أسلم من قريش ، وفدت عند ذلك وفادات العرب من كل قبيلة وجهة ودخلوا فى دين الله أفواجا .

وإن وفود القبائل أو وفود بعض رجال من القبائل على رسول الله ـــ ﷺ ـــ لم ينقطع مذ جهر بدعوته فى مكة إلى أن تدفقت الوفود على المدينة فى عام الوفود ، فأبو ذر الغفارى قدم ـــ ومعه أهل غفار ـــ على النبى ـــ ﷺ ـــ وهو بمكة فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة ، وكان يؤمهم خُفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى وكان سيدهم ، وقال بقيتهم :

ـــ إذا قدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ أسلمنا .

فقدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة فأسلم بقيتهم ، وجاءت أسلم فقالوا :

ـــ يا رسول الله إخواننا ، نسلم على الذى أسلموا عليه .

كانت غفار إخوان أسلم فلما أسلمت غفار أسلموا ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله .

وقدم ضماد بن ثعلبة الأزدى مكة ، وهو رجل من أزدشنوءة كان صديقا

للنبى — ﷺ — فى الجاهلية ، وكان يتطيب ويرق فسمع سفهاء الناس يقولون :

— إن محمدا مجنون .

فقال :

— آتى هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى .

فلقى محمدا — ﷺ — فقال :

— إنى أرق من هذه الرياح وإن الله يشفى على يدى من يشاء ، فهلم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

— تالله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلم يدك أبايعك على الإسلام .

فبايعه رسول الله — ﷺ — وقال له :

— وعلى قومك ؟

— وعلى قومى .

فبعث رسول الله — ﷺ — سرية فمروا بقوم ضماد ، فقال صاحب الجيش للسرية :

— هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟

فقال رجل منهم :

— مطهرة .

ردوها عليهم فإنهم قوم ضماد .

وقدم قيس بن مالك بن سعد بن مالك على رسول الله — ﷺ — وهو بمكة فقال :

— يا رسول الله لأومن بك وأنصرك .

— مرحبا بك ، أتأخذونني بما فيّ يا معشر همدان ؟

— نعم بأبي أنت وأمي .

— فاذهب إلى قومك فإن فعلوا فارجع أذهب معك .

فخرج قيس إلى قومه فأسلموا وتوجهوا إلى القبلة ، ثم خرج بإسلامهم إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— قد أسلم قومي وأمروني أن آخذ .

كان ذلك قبل الهجرة وما كان الله قد أذن لرسوله بالهجرة ، فقال رسول الله — ﷺ :

— نِعم وافد القوم قيس .. وفَيت وفيّ الله بك .

ومسح بناصيته وكتب عهده على قومه همدان .

وقدم مكة الطفيل بن عمرو الدوسي وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا ، فمشى إليه رجال من قريش يحذرونه من أن يلقى السمع إلى محمد — ﷺ — لأن قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجه ، فما زالوا به حتى أجمع على ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، فأبى الله إلا أن يسمعه بعض القرآن فقال فى نفسه :

— واثكل أمي ! والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى عليّ الحسن مع القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ وإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

وذهب إلى النبى — ﷺ — فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ،

فأسلم الطفيل بن عمرو وأسلمت دوس بإسلامه .

وقدم على رسول الله — ﷺ — وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وسألوه — ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة — فلما فرغوا من مسألته — ﷺ — دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم :

— خيبكم الله من ركب ! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم !

فقالوا لهم :

— سلام عليكم لا نجاهِلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

فأنزل الله تعالى قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ۞ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾[١] .

ووفد على رسول الله — ﷺ — بعد الهجرة وقبل فتح مكة تسعة رهط

---

(١) القصص ٥٢ — ٥٥ .

من بني عبس فكانوا من المهاجرين الأولين ، منهم ميسرة بن مسروق والحارث ابن الربيع وقنان بن دارم وبشر بن الحارث بن عبادة وهدم بن مَسعدة وسباع ابن زيد وأبو الحصن بن لقمان وعبد الله بن مالك وفروة بن الحصين بن فضالة ، فأسلموا فدعا لهم رسول الله — ﷺ — بخير وقال :

— ابغوني رجلا يَعشركم أعقد لكم لواء .

فدخل طلحة بن عبيد الله فعقد لهم لواء وجعل شعارهم : يا عشرة .

وقدم ثلاثة نفر من بني عبس على رسول الله — ﷺ — فقالوا :

— إنه قدم علينا قوم فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواش هي معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فلم يِلتكم من أعمالكم شيئا ولو كنتم بصمد[1] وجازان[2] .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبي — ﷺ — وثب رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له فرّاص فحطمه ، ثم وفد إلى النبي — ﷺ — بعد الهجرة فأسلم وقال :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى ... وخلفت فراصا بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته ... كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه ... أجبت رسول الله حين دعاني
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا ... وألقيت فيها كلكلي وجراني[3]

---

(١) صمد : اسم ماء للضباب .

(٢) جازان : موضع في طريق صنعاء .

(٣) الكلكل : الصدر ، والجران : باطن العنق . فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل ألقى جرانه على الأرض .

فمن مبلغ سعد العشيرة أنني   شربت الذى يبقى بآخر فان

وجاء إلى المدينة من جهينة عمرو بن مرة الجهنى ، وكان لهم صنم وكانوا يعظمونه وكان عمرو سادنه ، فلما سمع رسول الله — ﷺ — كسره وخرج حتى قدم على النبى — ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاءه به عليه السلام من حلال وحرام ، فقال :

شهدت بأن الله حق وأننى   لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساقى الإزار مهاجرا   إليك أجوب الوعث بعد الدكادك[١]
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا   رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وقدم على رسول الله — ﷺ — نفر من مزينة منهم خزاعى بن عبد نُهم فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة منهم فيهم بلال بن الحارث والنعمان ابن مُقرِّن ، وما دار بخلد النعمان أنه سيحارب الفرس وأنه سيستشهد فى نهاوند . ثم خرج خزاعى إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان بن ثابت وقال له :

— اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلغ خزاعيا رسولا   بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو   وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكان خيرا   إلى خير وآداك[٢] الثناء
فما يعجزك أو ما لا تطقه   من الأشياء لا تعجز عداء

---

(١) الدكادك : أرض فيها غلظ .

(٢) آدى الشىء : كثر ، وآداه ماله : كثر حتى ثقل عليه .

وعداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

ـــ يا قوم ! قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

ـــ فإنا لا ننبو عليك[١] .

فأسلموا ووفد منهم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ أربعمائة وذلك فى شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ الهجرة فى دارهم وقال :

ـــ أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

فرجعوا إلى بلادهم وقد دفع رسول الله ـــ ﷺ ـــ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل .

وجاء أفضل وافد إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ قدم ضمام بن ثعلبة من أهل نجد إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أصحابه . وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أصحابه فقال :

ـــ أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أنا ابن عبد المطلب .

ـــ أمحمد ؟

ـــ نعم .

ـــ يا بن عبد المطلب ! إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجد فى نفسك .

ـــ لا أجد فى نفسى فاسأل عما بدا لك .

---

(١) ننبو عليك : لا نمتنع عما تريده منا .

ــ أنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟

ــ اللهم نعم .

ــ فأنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

ــ اللهم نعم .

ــ فأنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلى هذه الصلاة الخمس ؟

ــ نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

ــ فإنى أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قوم بنى سعد بن بكر فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به :

ــ بئس اللات والعزى !

ــ مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !.

ــ ويلكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل

عليه كتابا فاستنقذكم به مما كنتم فيه . وإنى أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم فى حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة رأسهم مسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف ، فنزلوا شعب سَلع فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمر لهم بأحمال التمر فقالوا :

— يا محمد ! لا نعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل عددا ، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .

وقدم الأشعريون وهم قبيلة كبيرة باليمن على رسول الله — ﷺ — وهم خمسون رجلا ، منهم أبو موسى الأشعرى ومنهم رجلان من عك ، وقدموا فى سفن فى البحر وخرجوا بمرفأ مكة ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون :

غـدا نلقـى الأحبـة   محمـــدا وحزبـــه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله — ﷺ — فى سفره بخيبر ، فلقوه — ﷺ — فبايعوه وأسلموا . فقال رسول الله — ﷺ — :

— الأشعرون فى الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله — ﷺ — رجل من بنى سَليم يقال له قيس بن نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله . ودعاه رسول الله — ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :

— قد سمعت برجمة الروم وهينمة فارس وأشعار العرب وكهانة الكاهن وكلام معاول حِمير، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم، فأطيعونى وخذوا بنصيبكم

منه .

ووفد رجل منهم يقال له قُدد بن عمار على النبى — ﷺ — وعاهده على أن يأتيه بألف من قومه على الخيل ، وأنشد يقول :

شددت يمينى إذ أتيت محمدا ... بخير يد شدت بحجزة مئزر

وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه ... وأعطيته كف امرىء غير أعسر

وإن امرأ فارقته عند يثرب ... لخير نصيح من معد وحمير

ثم أتى قومه فأخبرهم الخبر وكان عام الفتح ، فخرج معه تسعمائة وخلف فى الحى مائة . وأقبل يريد النبى — ﷺ — فنزل به الموت فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه وهم عباس بن مرداس وأمره على ثلاثمائة وجبَّار بن الحكم وأمره على ثلاثمائة والأخنس بن يزيد وأمره على ثلاثمائة وقال :

— إيتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى .

ثم مات فمضوا حتى قدموا على رسول الله — ﷺ — فقال :

— أين الرجل الحسن الوجه الطويل اللسان الصادق الإيمان ؟

— يا رسول الله ! دعاه الله فأجابه .

وأخبروه خبره فقال :

— أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم ؟

— خلف مائة فى الحى مخافة حرب[1] كان بيننا وبين بنى كنانة .

— ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شيء تكرهونه .

فبعثوا إليها فأتته بالهدّة بين مكة والطائف ، وقال بنو سليم لرسول الله — ﷺ :

---

(١) الحرب مؤنثة وقد تذكر إذا أريد بها القتال .

ــ اجعلنا فى مقدمتك واجعل لواءنا أحمر وشعارنا مُقدَّم .

ففعل ذلك بهم ، وكان فى القوم غاوى بن عبد العزى وكان يخدم صنما لبنى سليم ، فرأى يوما ثعلبين يبولان عليه فقال :

أرب يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم شد عليه فكسره ، وأتى النبى ــ ﷺ ــ فقال له :

ــ ما اسمك ؟

ــ غاوى بن عبد العزى .

ــ أنت راشد بن عبد ربه .

فأسلم وحسن إسلامه وشهد الفتح ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ خير بنى سليم راشد .

وعقد له على قومه .

وكانت الخنساء الشاعرة قد قدمت على رسول الله ــ ﷺ ــ مع قومها من بنى سليم فأسلمت معهم وكان عليه السلام يستنشدها ويعجبه شعرها فكانت تنشده وهو يقول :

ــ هيه يا خناس !

ويومى بيده .

وقدم عمير بن أقضى فى عصابة من أسلم فقالوا :

ــ لقد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك ، فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتنا ، فإنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر فى الشدة والرخاء .

فقال ــ ﷺ :

ــ أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها .

وكتب رسول الله ـ ﷺ ـ لأسلم ، ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن ساحل البحر والسهل كتابا فيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى ، وكتب الصحيفة ثابت بن قيس وشهد أبو عبيدة وعمر بن الخطاب .

وقدم رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجذامى ثم أحد بنى الضبيب على رسول الله ـ ﷺ ـ كتابا فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله ، فمن أقبل ففى حزب الله ومن أبى فله أمان شهرين) . فأجابه قومه وأسلموا .

وبعث فروة بن عمرو بن نافرة الجذامى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ رسولا بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء واسم رسوله مسعود بن سعد وهو من قومه ، فقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ كتابه وقبل هديته وأجاز رسوله باثنتى عشرة أوقية ونش . والونش نصف أوقية ، وكتب إلى فروة جواب كتابه .

وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه فحبسوه عندهم ، فقال فى محبسه ذلك :

طرقت سليمى موهنا[١] أصحابى ... والروم بين الباب والقروان

صد الخيال وساءه ما قد رأى ... وهممت أن أغفى وقد أبكانى

لا تكحلن العين بعدى أثمدا[٢] ... سلمى ولا تدين للإتيان

ولقد علمت أبا كبيشة أننى ... وسط الأعزة لا يحص[٣] لسانى

---

(١) الموهن : بعد منتصف الليل .

(٢) الأثمد : حجر للكحل .

(٣) يحص : يقطع .

فلئن هلكت لتفقدن أخاكم ... ولئن بقيت لتعرفن مكانى
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى ... من جودة وشجاعة وبيان

فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم بفلسطين يقال له عفراء قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها ... على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل(١)
على ناقة لم يضرب الفحل أمها ... مشذبة أطرافها بالمناجل

ولما قدموه ليضربوا عنقه قال :

أبلغ سراة المؤمنين بأننى ... سلم لربى أعظمى ومقامى

كانت وفود القبائل تقدم على رسول الله — ﷺ — مذ أمره الله أن ينذر قومه إلى أن فتح الله على رسوله مكة ، فلما تم فتح مكة وخرج رسول الله — ﷺ — لغزو الروم وبلغ تبوك وألقى الله فى قلوب الروم الرعب فانسحبوا دون أن يلقوا رسول الله — ﷺ — تدفقت وفود القبائل إلى المدينة فى السنة التاسعة من هجرته عليه السلام ودانت له القبائل ، وأنزل الله على عبده : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾(٢) . وقد سميت تلك السنة بعام الوفود .

---

(١) الرواحل فى الأصل الإبل : ويريد بإحدى الرواحل الخشبية التى صلب عليها .
(٢) سورة النصر .

التذييـــل

مات موسى عليه السلام وقد بلغ مائة وعشرين سنة ، و لم تكل عينه ولا ذهبت نضارته كما تقول توراة المنفى . وقبل أن يموت لم ينس الذين كتبوا التوراة أن يصعدوه إلى الجبل ليرى الأرض الموعودة : « وصعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبُّو إلى رأس الفسجة الذى قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالى وأرض أفرايم ومنسَّى (ابنى يوسف) وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى ، والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال له الرب : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، ودفنه فى الأجواء فى أرض مؤاب مقابل بيت فغور ، و لم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

بهذا الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية تنتهى الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود . وإذا درسنا هذا الإصحاح بإمعان نجد رواية تاريخية كتبها كاتب التوراة لا يمكن أن تكون وحيا ، فالكاتب يقول : فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، وهذا الخبر وكل ما بعده حتى نهاية الإصحاح هو قرار من الكاتب ، فلا يعقل أن موسى عليه السلام قال بعد موته : « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات و لم تكل عينه

ولا ذهبت نضارته ، فبكى بنو إسرائيل موسى فى عربات مؤاب ثلاثين يوما ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى .

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو إسرائيل وعمل كما أوصى الرب موسى .

و لم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون وجميع عبيده و كل أرضه ، وفى كل اليد الشديدة و كل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل » .

واضح أن عجُز الإصحاح الرابع والثلاثين من إنشاء الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، وواضح أن الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود والمفروض أنها قد نزلت على موسى قد أعيد كتابتها فى عصر السبى فدس فيها الذين كتبوا التوراة فى المنفى كثيرا من أساطير البابليين والفراعنة ، وخططوا لعودتهم إلى فلسطين فجعلوا الرب يسرف فى الحديث عن الأرض التى أقسم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يجعلها ميراثا لذريتهم . و لم يكتفوا بذلك بل جعلوا الرب ينزل فى سحابة ويعيد الوعد لموسى والذين معه ، وإن كثرة حديث الرب عن أرض الميراث يثير الشك ، بل يؤكد أن تلك الأقوال قد وضعها أحبار اليهود على لسان الرب ، فليس من المعقول ولا المقبول أن يكرر الرب وعده فى كل إصحاح من إصحاحات سفر التثنية . ويا ليته يذكر ذلك الوعد لأن بنى إسرائيل كانوا سامعين مطيعين بل لأنهم كانوا فاسقين !

وهنا حقائق ولا ريب فى الأسفار الخمسة المفروض أنها أوحيت إلى موسى ولكنها حقائق مزجت بأساطير الشعوب وأحلام الأحبار وأطماع الكهان .

وإن دارس الإنجيل يلحظ أن السيد المسيح لم يستشهد بإصحاح من

إصحاحات التوراة ، بل كان يقول : قال موسى ... وأنا أقول ... فما جاء فى تلك الأسفار ليس وحيا سماويا بل ما وقر ى الأذهان وفى الصدور مما أوحى إلى موسى عليه السلام ، وقد كتب بأقلام أناس تشربوا عادات البابليين والمصريين القدماء ، وقد فاضت أفئدتهم بالحقد على البشر جميعا لما هم فيه من ذل وهوان .

وبعد الأسفار الخمسة يستمر الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى تسجيل تاريخ بنى إسرائيل ، إنهم لا ينسون الأرض الموعودة ، وإن ربهم لا يتوانى لحظة عن ذكر تلك الأرض وإعادة الوعد كأنما قد فرغ من شئون الأرض والسماء و لم يعد له من شأن غير ذلك الوعد الذى قطعه على نفسه إكراما لهؤلاء العصاة الذين قال عنهم لموسى عليه السلام إنهم سينسون كل ما فعله لهم ويعبدون سواه .

وها هو ذا الرب يخاطب يشوع ويعيد له الوعد كأنما يشوع لم يكن مع موسى عليه السلام يوم قال الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب نزل فى سحابة وأعاد الوعد إلى موسى وإلى قومه : « وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم .. » . إصرار عجيب من الرب كأنما كل ما يعرف من الأرض هى هذه المنطقة ، بل إصرار عجيب من الذين كتبوا التوراة بأيديهم . إنهم يكررون بمناسبة وبلا مناسبة نفس الوعد بنفس الألفاظ بنفس الحدود ليستقر فى الوجدان أن رغباتهم مشيئة إلـٰهية ينبغى أن تطأطئ لها

الرءوس وأن تطاع .

ويرسل يشوع بن نون جاسوسين فينطلقان إلى بيت زانية اسمها راحاب ويضطجعان هناك . وإن ما يثير الدهش أن التوراة تنظر إلى الاضطجاع مع زانية نظرة لا استنكار فيها ؛ فيهوذا أبو اليهود جميعا يضطجع مع زوج ابنه وهو يحسبها زانية ، ثم يرسل من يسأل الناس عنها دون مبالاة ، وجاسوسا يشوع ابن نون — ومن المفروض أنهما من مؤمنى بنى إسرائيل — يذهبان إلى زانية ويضطجعان هناك . وإن البابليين كانوا لا يرون عيبا فى التسرية بالبغايا بل كانوا يحترمون البغايا لأنهن كن كعشتار إلـٰهة اللذة وقد أخذ الذين كتبوا التوراة فى المنفى عن البابليين احترام البغايا واحترام الذين يمارسون الزنى معهن !

هل يعقل أن إلـٰها غيورا يذكر الاضطجاع مع البغايا دون أن يغضب أو يثور ؟ لو أن عشتار هى التى أوحت مثل ذلك القول لصدقناه ، أما رب غيور مثل يهوه رب موسى عليه السلام فلا يعقل أنه يوحى بمثل ذلك الدنس ويرضى عنه .

ويروى كاتب سفر يشوع كيف حمل الكهنة تابوت العهد ، وكيف انحسرت مياه الأردن لما لمست أقدامهم الماء ، وكيف حمل اثنا عشر رجلا من أسباط إسرائيل — رجلا من كل سبط — حجارة من قاع النهر تذكارا لبنى إسرائيل لانفلاق المياه أمام تابوت عهد الرب . ونسى الذى يكتب هذا الإصحاح أنه يكتب وحيا فقال : ونصب يشوع اثنى عشر حجرا فى وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملى تابوت العهد ، وهى هناك إلى هذا اليوم » .

ويأمر الرب يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوان وأن يختن بنى

إسرائيل لأن الذين ولدوا فى التيه لم يختنوا . وهذا أمر محير فقد جعل الرب الختان عهدا بينه وبين بنى إسرائيل وأمرهم أن يختنوا أولادهم فى اليوم السابع من مولدهم ، فهل تعذر على بنى إسرائيل أن يختنوا أولادهم ؟ وإذا كان رجال الحرب لم يختنوا أكانوا يعيشون بلا عهد بينهم وبين ربهم ؟! إن الرب الذى تصوره الذين كتبوا التوراة فى المنفى يهتم جدا بالختان ، حتى إنه يقول بعد أن يتم ختان الرجال : « اليوم قد دحرجت عنهم عار مصر » .

وعلموا الفصح وانقطع المن عنهم لما أكلوا من غلة الأرض ، ثم حملوا تابوت العهد وداروا به حول المدينة سبع مرات فى سبعة أيام : « ... وكان فى اليوم السابع أنهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات . فى ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات ، وكان فى المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة . فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب ، راحاب الزانية فقط تحيا ، هى وكل من معها فى البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما ، وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تُحرَّموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلة إسرائيل محرمة وتكدروها . وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدسا للرب وتدخل فى خزانة الرب . فهتف الشعب وضربوا بالأبواق ، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافا عظيما فسقط السور فى مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » .

إنها أمنية الذين كانوا فى الأسر . إنهم لا يريدون أن يخوضوا حربا للعودة إلى فلسطين بل يتمنون أن ينفخ الكهنة فى الأبواق السبعة وأن يهتف الشعب هتافا عظيما فيجد نفسه فى أرض فلسطين . أمنية ليست عزيزة على الرب

ولكنها ليست من سنته ، فإن الله ينصر من ينصره . فالمسلمون قد حاربوا الكفار يوم بدر وأبلوا بلاء حسنا فأيدهم الله بنصره : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾(١) . ودارت معركة رهيبة لا هوادة فيها يوم أحد بين المسلمين وقريش وقد محص الله فيها الذين آمنوا واتخذ منهم شهداء . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾(٢) . ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾(٣) .

إن المؤمنين حقا يقاتلون ويجاهدون ويستشهدون ويصبرون حتى يأتى النصر من عند الله ، أما أن تسقط أسوار المدن إذا ما نفخ فى الأبواق وصاحت الأصوات صيحات مدوية فإنه وهم الحالمين .

ويعود الذين كتبوا التوراة إلى الشكوى من الرب عندما ينكسرون فى معركة مثلما فعلوا لما أمرهم موسى أن يقاتلوا أعداءهم : « ... وهربوا أمام أهل عاى ، فضرب منهم أهل عاى نحو ستة وثلاثين رجلا ولحقوهم من أمام الباب إلى شاريم وضربوهم فى المنحدر . فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء . فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا ترابا على رءوسهم . وقال يشوع : « آه يا سيد الرب ، لماذا عبَّرت هذا الشعب الأردن تعبيرا لكى تدفعنا إلى يد الأموريين ليبيدونا . ليتنا ارتضينا وسكنا فى عبر الأردن . أسألك يا سيد . ماذا أقول

---

(١) آل عمران ١٢٣ .

(٢) آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) آل عمران ١٤٦ .

بعد ما حول إسرائيل قفاه أمام أعدائه . فيسمع الكنعانيون وجميع سكان الأرض ويحيطون بنا ويقرضون اسمنا من الأرض . وماذا تصنع لاسمك العظيم » .

كلام لا يمكن أن يصدر عن رجل يوحى إليه ، إنه كلام رجل ليس له عزم وليست له ثقة فى ربه ، وإنه نفس ما قيل فى البرية . ألا يزال بنو إسرائيل فى شك من ربهم حتى بعد معجزة عبور الأردن ؟! لقد كان الشك فى قلوب الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وقاد يشوع بنى إسرائيل لحرب عاى وتظاهر بالهزيمة فخرج جميع رجال عاى فى أثر بنى إسرائيل ، وكان هناك كمين من بنى إسرائيل خلف المدينة فدخل الرجال المدينة وأحرقوها كما أمرهم الرب — بزعمهم — وقتل بنو إسرائيل جميع سكان عاى وصلبوا ملكها . وبنى يشوع مذبحا للرب إلٰه إسرائيل . ويقول الذين كتبوا التوراة إن ذلك المذبح بنى « كما أمر موسى عبد الرب بنى إسرائيل ، كما هو مكتوب فى سفر توراة موسى » . ولا يوجد فى التوراة سفر باسم سفر توارة موسى ولعلهم يقصدون سفر اللاويين فهو السفر الذى وصف الرب لموسى فيه — حسب زعمهم — كيفية بناء المذبح .

« ولما سمع جميع الملوك الذين فى عبر الأردن فى الجبل وفى السهل وفى كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان — الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحِوِّيون واللبوسيون — اجتمعوا معا لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد » .

وتنشب حروب بين بنى إسرائيل وبين ملوك المنطقة ، ويرمى الرب أعداء بنى إسرائيل بحجارة عظيمة من السماء ويسلط عليهم البرد ، ثم يكلم يشوع

الزب « يوم أسلم الرب الأموريين أمام بنى إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومى على جيعون ويا قمر على وادى أيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس ذلك مكتوبا فى سفر يا شر ... » .

وننقب فى التوراة عن سفر ياشر فنكتشف أن ليس له وجود ، فهل كان هناك سفر بهذا الاسم ثم رفع ؟ وماذا كان يحوى ذلك السفر ؟. ومن ذا الذى رفعه ولماذا رفعه ؟ أسئلة ليس لها جواب .

وينطلق يشوع بن نون يفتح المدن ويقتل الرجال ويشعل فى المدن النيران باسم الرب إلٰه إسرائيل : « فلا تكون عليهم رأفة بل يبادوا كما أمر الرب موسى » .

ولا يختلف الإصحاح الثانى عشر من سفر يشوع عن البلاغات الحربية ، فهو يذكر الملوك الذين انتصر عليهم بنو إسرائيل فى تفصيل : « وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع وبنو إسرائيل فى عبر الأردن غربا من بعل جاد فى بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير ، وأعطاها يشوع لأسباط إسرائيل ميراثا حسب فرقهم . فى الجبل والسهل والعربة والسفوح والبرية والجنوب الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون — ملك أريحا واحد — ملك عاى التى بجانب بيت إيل واحد . ملك أورشليم واحد . ملك حبرون واحد . ملك يرموث واحد . ملك ... » .

أليس هذا بلاغا حربيا وليس بوحى سماوى ، إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا ولا شك يتلذذون وهم يكتبون سفر يشوع ، فالزهو بقوة الآباء ونصر الله يشع من بين السطور . كانوا يحلمون بالمجد التالد ويتمنون لو أن تلك الأيام تعود .

« وشاخ يشوع . تقدم فى الأيام . فقال له الرب : أنت قد شخت . تقدمت فى الأيام » . ولا يعقل بعد هذه المقدمة أن الرب سينسى وعده ، فلا

عمل له فى الأرض إلا تنفيذ ذلك الوعد ، أو هكذا صوره الذين كتبوا التوراة بأيديهم حتى يخيل لقارئ التوراة أنه ليس إلـٰه بنى إسرائيل بل قائدهم الحربى ومؤسس ملكهم بلا سند من عدل وقانون . اسمعه يقول أو إذا أردت الدقة فاسمع بماذا أنطقه الذين كتبوا التوراة فى المنفى : « وقد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك . هذه هى الأرض الباقية . كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشَّجور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة : الغزى والأشدودى والأشقلونى والجتسى والعقرونى والعويين ، من التيمن كل أرض للكنعانيين ومغارة التى للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريين . وأرض الجِبْليين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة . جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم جميع الصيدونيين . أنا أطردهم من أمام بنى إسرائيل ، إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكا كما أمرتك ... » .

لم يكتفوا بأن جعلوا الرب مهندس مساحة بل جعلوه يقسم الأرض بالقرعة ، يستقسم بالأزلام ، سبحان الله عما يصفون .

وإن الذى يقرأ الإصحاح الثالث عشر والإصحاح الرابع عشر والإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع فى إمعان يجد أن الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد أخذوا حدود المناطق التى نزل بها أسباط بنى إسرائيل وجعلوها أوامر من موسى عليه السلام تلقاها من ربه ، فما من شىء فى إسرائيل حتى بناء المذبح وصنع الفطير وتابوت العهد إلا بأوامر من السماء ، فما أيسر أن يضع أحبار اليهود الكلام على لسان الرب أو يجعلوه يهتم بتوافه الأشياء ، فقد زعموا أن الرب علمهم كل شىء ، حتى كيفية وضع الفطير صفوفا على المذبح !

وينتهى سِفر يشوع بموته ويبدأ سفر القضاة يروى ما كان من بنى يهوذا : « وكان بعد موت يشوع أن بَنى إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى

الكنعانيين أولا لمحاربتهم ؟ فقال الرب : يهوذا يصعد . هو ذا قد دفعت الأرض ليده ... » .

الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا من نسل يهوذا أبى اليهود ، وقد بدءوا فى هذا الإصحاح يلقون الأضواء على يهوذا ليمهدوا لمجده ، فجعلوه أو بمعنى أصح جعلوا بنيه يأخذون أورشليم ، وأور معناها مدينة وشليم معناها سلام ، فهى مدينة السلام أو بيت المقدس . و لم تعرف بهذا الاسم إلا فى عهد سليمان لما بنى الهيكل بها فكيف استخدم الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الاسم قبل أن يولد داود وسليمان ؟! كانوا يكتبون تاريخا لا وحيا يوحى ، فكانوا يقولون مرة إن يشوع دفن فى جبل حارس ، وفى إصحاح آخر يقولون إنه دفن فى جبل سارح . ورووا أكثر من رواية فى سبب تسمية بئر سبع ، وسجلوا أحداثا متناقضة ولا لوم عليهم ولا تثريب ما داموا يكتبون ما حفظته الذاكرة من وقائع ماضية مضت عليها سنون طويلة قبل عصر التدوين .

ويعود ملاك الرب فى الإصحاح الثالث يذكر بنى إسرائيل بما أنعم الله عليهم ، ولكن بنى إسرائيل قد اندمجوا فى الكنعانيين : « واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء ، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم . فعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب ونسوا الرب إلـهــهم وعبدوا البعليم والسوارى ، فحمى غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين » .

وبعد ثمانى سنين يتخلص بنو إسرائيل من هذه العبودية ، ولكن ما إن تنقضى أربعون سنة حتى يعودوا إلى الشرك بالله فعبدوا عجلون ملك مؤاب ثمانى عشرة سنة بعد أن هزمهم . إنهم مع الله ما داموا منتصرين أما إذا انهزموا فسرعان ما يعبدون الذى هزمهم ، ولا غرو فهم أهل دنيا لا صلة بينهم وبين الاستشهاد والآخرة وما أعد للمتقين ، فقد زعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى لم يبشروا بالبعث والحياة الآخرة .

وقتل إهود عجلون واستولى بنو إسرائيل على مؤاب واستراحت الأرض ثمانين سنة ، ولعلها قد استراحت من كفرهم وعقوقهم وشرهم .

إنهم لا يستطيعون أن يحافظوا على عبادة الله طويلا فهى عبادة مرتبطة بمنفعة ، فإذا جاءهم النفع عن سبيل آخر فسرعان ما يعبدون الذى جلب لهم النفع أو قهرهم . فبعد أن مات إهود — حسب زعمهم — عادوا يعملون الشر فى عينى الرب فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان حتى قامت دبورة وكانت قاضية بنى إسرائيل فى ذلك الوقت تدعو إلى الثورة على ملك كنعان ، وخرجت مع الخارجين حتى كان النصر ، فصارت دبورة نبية من أنبياء بنى إسرائيل .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يرضون عن الرب إذا نصرهم ، ويولونه ظهورهم إذا حاقت بهم هزيمة . إنهم جعلوا دبورة وباراق اللذين شاركاها فى الحرب يترنمان بمجد الرب : « لأجل قيادة القواد فى إسرائيل ، لأجل انتداب الشعب باركوا الرب . اسمعوا أيها الملوك وأصغوا أيها العظماء . أنا أنا للرب أترنم ، أزمر للرب إلـه إسرائيل . يارب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء أدوم الأرض ارتعدت . السماوات أيضا قطرت . كذلك السحب قطرات ماء . تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إلـه إسرائيل » .

ويستمر الذين كتبوا التوراة يصفون فى النشيد ما كان بين بنى إسرائيل وبين الجبابرة والعماليق ، وما انقضى على ذلك النصر أربعون سنة حتى عاد بنو إسرائيل إلى الجهالة فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين . فيقوم رجل يدعوهم إلى الله ويقودهم إلى النصر فيصبح نبيا من أنبياء بنى إسرائيل . فما من رجل أو امرأة يسدى يدا إلى إسرائيل حتى يصبح نبيا يروى فعاله فى التوراة الكُتّاب الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله .

وسرعان ما يتنكب بنو إسرائيل طريق الرب ويعبدون بعلا إلـه السوريين : ﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[١] . ونسرد إصحاحات القضاة الحروب التي نشبت بين بني إسرائيل وملوك فلسطين ، فما سكتت الحرب بينهم أبدا ، فقد كان بنو إسرائيل مغتصبين للأرض وإن أرادوا أن يلبسوا ذلك الاغتصاب ثوبا دينيا ، جعلوا الرب يعدهم بتلك الأرض وأنطقوه فى كل إصحاح من إصحاحات التوراة التى كتبوها بأيديهم بذلك الوعد .

وكان البابليون يذبحون أبناءهم قربانا لآلهتهم ، وقد رأى إبراهيم خليل الرحمن فى المنام أنه يذبح ابنه ، فلما هم بذبحه فداه الله بذبح عظيم ، وقد انقرضت عادة ذبح الأبناء بين المؤمنين ولكن تلك العادة ظلت راسخة فى أذهان الذين كتبوا التوراة ، أو أنها تجددت لما حملوا إلى المنفى ورأوها فى أرض بابل فاستغلوها عند إعادة كتابة التوراة : « فكان روح الرب على يفتاح فعبر جلعاد ومُنسَّى وعبر مصفات جلعاد ومن مصفاة جلعاد عبر إلى بنى عمون ، ونذر يفتاح نذرا للرب قائلا : إن دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة ، ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم فدفعهم الرب ليده فضربهم من عروعير إلى مجينك إلى منيت : عشرين مدينة وإلى آيل الكروم ضربة عظيمة جدا ، فذل بنو عمون أمام بنى إسرائيل .

ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته ، وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص وهى وحيدة . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها ، وكان لما رآها مزق ثيابه وقال : آه يا بنتى قد أحزنتنى حزنا وصرت بين مكدرى لأنى قد فتحت فمى إلى الرب ولا يمكننى الرجوع . فقالت له : يا أبى هل فتحت فاك إلى الرب فافعل بى كما

---

(١) الصافات ١٢٥ ، ١٢٦ .

خرج من فيك بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك بنى عمون . ثم قالت لأبيها : فليُفعل لى هذا الأمر . اتركنى شهرين فأذهب وأنزل على الجبال وأبكى عذراويّتى أنا وصاحباتى . فقال : اذهبى . وأرسلها إلى شهرين فذهبت هى وصاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال . وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت إلى أبيها ففعل بها نذره الذى نذر . وهى لم تعرف رجلا . فصارت عادة فى إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادى أربعة أيام فى السنة » .

قدماء المصريين يلقون بعذراء كل سنة لإلـٰههم النيل ، والبابليون يقدمون أبكارهم على المذبح قربانا للآلهة ، ويفتاح الجلعادى يحرق ابنته البكر قربانا للرب . إنها أساطير الشعوب قد دسها الذين كتبوا التوراة فى سفر القضاة لكيلا يخلو تاريخ بنى إسرائيل من مأساة عاشها شعب من الشعوب الذين عاشوا بينهم ، أو من حكمة أو لمحة أدبية ، فقد كان هدفهم ألا يكون لشعب من شعوب الأرض فضل يفوق فضلهم ، حتى الجنس أغرقوا توراتهم فيه ليفوق أنبياؤهم عشتار إلـٰهة اللذة البابلية والسورية ، وباسنت إلـٰهة اللذة عند قدماء المصرين .

و لم يكن بنو إسرائيل على وفاق دائما فكثيرا ما كانت تثور حروب بينهم « واجتمع رجال أفرايم وعبروا إلى جهة الشمال وقالوا ليفتاح : لماذا عبرت لمحاربة بنى عمون و لم تدعنا للذهاب معك . نحرق بيتك عليك بنار ، فقال لهم يفتاح : صاحب خصام شديد كنت أنا وشعبى مع بنى عمون وناديتكم فلم تخلصونى من يدهم ، ولما رأيت أنكم لا تخلصون وضعت نفسى فى يدى وعبرت إلى بنى عمون فدفعهم الرب ليدى فلماذا صعدتم على اليوم هذا لمحاربتى ؟

وجمع يفتاح كل رجال جلعاد وحارب أفرايم ، فضرب رجال جلعاد أفرايم

لأنهم قالوا : أنتم منفلتو أفرايم . جلعاد بين أفرايم ومنسَّى . فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن لأفرايم . وكان إذا قال منفلتو أفرايم : دعونى أعبر . كان رجال جلعاد يقولون له : أأنت أفرايمى ؟ فإن قال : لا . كانوا يقولون له : قل إذاً شِبُّولت . فيقول سبولت و لم يتحفظ للفظ بحق ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن . فسقط فى ذلك الوقت من أفرايم إثنان وأربعون ألفا ، وقضى يفتاح لإسرائيل ست سنين ، ومات يفتاح الجلعادى ودفن فى إحدى مدن جلعاد » . « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »(١) .

ويروى الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة ولادة شمشون بعد أن رأت أمه ملاك الرب وبشرها به : « ونزل شمشون إلى تمنة ورأى امرأة فى تمنة من بنات الفلسطينيين ، فصعد وأخبر أباه وأمه وقال : قد رأيت امرأة فى تمنة من بنات الفلسطينيين ، فالآن خذاها لى امرأة . فقال له أبوه وأمه : أليس فى بنات إخوتك وفى كل شعبى امرأة حتى إنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغُلف ؟ فقال شمشون لأبيه : إياها خذ لى لأنها حسنت فى عينى . و لم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب لأنه كان يطلب علة من الفلسطينيين . وفى ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل » .

هذا القول يستحق سؤال . إن موسى عليه السلام أوصى قومه قبل أن يموت — حسب أقوال الذين كتبوا التوراة — بألا يتزوجوا من الفلسطينيين . فكيف لم يطع شمشون الذى اصطفاه الرب للانتقام من الفلسطينيين أوامر موسى رجل الرب ؟ يقول الذين كتبوا التوراة إن شمشون كان يلتمس بذلك الزواج علة للانتقام من الفلسطينيين ، فمتى كان بنو إسرائيل يلتمسون علة إذا آنسوا فى أنفسهم قوة للبطش بأعدائهم ؟ إن دعوى التماس العلة تتنافى مع

---

(١) الحشر ١٤ .

القول بأن المرأة قد حسنت فى عينى شمشون ، فما دامت قد صادفت هوى فى نفسه فقد طلب الزواج منها استجابة لدواعى الهوى لا لأنه كان يلتمس سببا لإنقاذ بنى إسرائيل من الذل المهين .

« فنزل شمشون وأبوه وأمه إلى تمنة وأتوا إلى كروم تمنة ، وإذا بشبل أسد يزمجر للقائه ، فحل عليه روح الرب فشقه كشق الجدى وليس فى يده شىء . ولم يخبر أباه وأمه بما فعل فنزل وكلم المرأة فحسنت فى عينى شمشون ، ولما رجع بعد أيام لكى يأخذها مال لكى يرى رمة الأسد ، وإذا دبرٌ من النحل فى جوف الأسد مع عسل . فاشتار منه على كفه وكان يمشى ويأكل . وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا ، ولم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل .

ونزل أبوه إلى المرأة فعمل هناك شمشون وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان . فلما رأوه أحضروا ثلاثين من الأصحاب فكانوا معه . فقال لهم شمشون : لأحاجينكم أحجية ، فإذا حللتموها لى فى سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . وإن لم تقدروا أن تحلوها لى تعطونى أنتم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . فقالوا له : حاج أحجيتك فنسمعها . فقال لهم : « من الآكل خرج أكل ، ومن الجافى [illegible] حلاوة » .

ألا تذكرك هذه الأحجية بافتتاح مسرحية أوديب ؟ إن بنى إسرائيل كانوا على صلة بأدب اليونان والرومان أن كانوا فى المنفى . إنهم قرءوا ولا ريب الأدب اليونانى والرومانى وقد اطلعوا على حكم الشيخ اليونانى ورموزه وأمثاله فقلدوها وقلدوا « الاسفنكس » فى مسرحية أوديب ، وإن الأسلوب الذى كتب به الذين كتبوا التوراة لما قصوا قصة شمشون لا يختلف عن أسلوب ألف ليلة وليلة : « فلم يستطيعوا أن يحلوا الأحجية فى ثلاثة أيام ، وكان فى اليوم السابع أنهم قالوا لا مرأة شمشون : تملقى رجلك لكى يظهر لنا الأحجية لئلا

نحرقك وبيت أبيك بنار . ألتسلبونا دعوتمونا أم لا ؟ » . أليس الحق فى جانبهم ؟ أيعقل أن نبيا اصطفاه الله يقامر ببعض رموز مستغلا حادثا قد وقع له لا علم لأحد به ؟ : « فبكت امرأة شمشون لديه وقالت : إنما كرهتنى ولا تحبنى ، قد حاجيت بنى شعبى أحجية وإياى لم تخبر . فقال لها : هو ذا أبى وأمى لم أخبرهما فهل إياك أخبر ؟! فبكت لديه السبعة الأيام التى فيها كانت الوليمة ، وكان فى اليوم السابع أنه أخبرها لأنها ضايقته فأظهرت الأحجية لبنى شعبها . فقال له رجال المدينة فى اليوم قبل غروب الشمس أى شىء أحلى من العسل وما أجفى من الأسد ... » .

ولننظر الآن ماذا فعل الرجل الذى اصطفاه الرب : « ... وأمسك ثلاثمائة ابن آوى وأخذ مشاعل وجعل ذنبا إلى ذنب ووضع مشعلا بين كل ذنبين فى الوسط ، ثم أضرم المشاعل نارا وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون ... » .

وأحب شمشون دليلة وعرفت أن سر قوته فى شعره ، لأن الموسى لم تمسه فهو نذير الله . وتخون دليلة حبيبها وتقص شعره ، ومن عجب أن الله يفارقه كأنما كانت الروح تسرى فى شعره ، فأخذه الفلسطينيون وسملوا عينيه ووضعوه فى السجن . وذات يوم بينما كانوا يلعبون فى الملعب أتوا بشمشون ليسخروا منه ، فلما توسط المكان قال للغلام الذى كان يقوده : دعنى ألمس الأعمدة التى يقوم عليها البيت ، وكان البيت مملوءا رجالا ونساء ، وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة .

وقبض شمشون على العمودين اللذين كان البيت قائما عليهما وقال : لتمت نفسى مع الفلسطينيين . وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته .

قصة طريفة مأخوذة من الأدب الإسرائيلى ولكنها لا يمكن أن تكون وحيا ، فلا يعقل أن الرب يروى فى بساطة أن شمشون لما ذهب إلى غزة رأى هناك امرأة زانية فدخل إليها ، ولا يمكن أن نتصور أن الرب يقص قصة لا تخرج منها البشرية بعبرة . إن شمشون لم يضع موسى على رأسه لأنه نذر للرب فهل كل من يطلق شعره وينذر للرب يكون مثل شمشون ؟ إنها قصة من خيال الذين كتبوا التوراة فى المنفى بعد أن قرءوا قصص جلجاميش البابلية ومغامرات آلهة بابل وأساطير أبطالها .

ونترك إصحاحات سفر القضاة وما فيها من أقاصيص والتأرجح بين غضب الرب ورضاه وسفر راعوث ، ولا أدرى حكمة سرد قصتها فى التوراة غير أنها أنجبت عوبيد وهو أبو يسَّى ويسى أبو داود وداود فى نظر الذين كتبوا التوراة فى المنفى هو أول ملك من نسل يهوذا ، وإنه لشيء عظيم عند الذين كتبوا التوراة أن يكون ملكا من أن يكون نبيا ، فما أكثر الأنبياء فى بنى إسرائيل وما أعظم الملوك ما دامت جنتهم أرضية .

ونقرأ معا سفر صموئيل الأول فنعلم أن الرب بعد أن كان إلـٰه إسرائيل أصبح رب الجنود ، وأن ألقانة بن يَرُوحام بن أليهو بن تُوحَوَ بن صوف له امرأتان إحداهما حنة والأخرى فِنِنَّة ، وأن لفننة أولادا أما حنة فلم يرزقها الله الولد ، فابتهلت إلى الرب وقالت : « يا رب الجنود إن نظرت نظرا إلى مذلة أمتِك وذكرتنى و لم تنس أمتك بل أعطيت أمتك زرع بشر فإنى أعطيه للرب كل أيام حياته ، ولا يعلو رأسه موسى » . ووضعت حنة ذكرا ودعتــه صموئيل ، « قائلة لأنى من الرب سألته » .

وبعد أن فطمت حنة صموئيل قدمت للرب ثلاثة ثيران ودقيقا وزق خمر ، ووهبت صموئيل للمعبد ، وكان عالى كاهن المعبد وكان أبناؤه يأخذون لحوم الذبائح ولا يحرقون الشحم للرب : « وشاخ عالى جدا وسمع بكل ما عمله

بنوه بجميع إسرائيل وأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع » ، وكان صموئيل يعبد الرب وينام مع الكاهن فى المعبد . وذات يوم ناداه الرب ثلاث مرات وهو يحسب أن الكاهن عالى يناديه فيذهب إليه ، فيقول له عالى : « لم أدع يا بنى ، ارجع اضطجع . وعاد الرب فدعا صموئيل ثالثة . فقام وذهب إلى عالى وقال هأنذا لأنك دعوتنى . ففهم عالى أن الرب يدعو الصبى ، فقال عالى لصموئيل : اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يا رب لأن عبدك سامع . فذهب صموئيل واضطجع فى مكانه .

فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأولى : صموئيل صموئيل ، فقال صموئيل : تكلم لأن عبدك سامع . فقال الرب لصموئيل : هو ذا أنا فاعل أمرا فى إسرائيل . كل من سمع به تطن أذناه . فى ذلك اليوم أقيم على عالى كل ما تكلمت به على بيته . ابتدىء وأكمل . وقد أخبرته بأنى أقضى على بيته إلى الأبد من أجل الشر الذى يعلم أن بنيه قد أوجبوا به اللعنة على أنفسهم و لم يردعهم ، ولذلك أقسمت لبيت عالى أنه لا يكفر عن شر بيت عالى بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد » .

الرب يقف كما يقف الإنسان وينادى على النائم ويغفر الذنوب لا بتوبة نصوح بل بذبيحة ، وهو يقبل الخمر ، فما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون . « واضطجع صموئيل إلى الصباح وفتح أبواب بيت الرب ، وخاف صموئيل أن يخبر عالى بالرؤيا فدعا عالى صموئيل وقال : يا صموئيل ابنى . فقال : هأنذا . فقال : ما الكلام الذى كلمك به ؟ لا تخف عنى » . وأخبر صموئيل عالى بما أوحى إليه ، وكبر صموئيل وكان الرب معه ، وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أن صموئيل صار نبيا للرب .

ونشبت الحرب بين الفلسطينيين وبين إسرائيل ، وانكسرت إسرائيل :

« وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين ؟ لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل فى وسطنا ويخلصنا من أعدائنا ، فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود ... » .

أصبحت إسرائيل فى أرض اللبن والعسل كما يقول الذين كتبوا التوراة ، فأصبحوا فى غنى عن الرب الرازق ، ولكنهم كانوا فى حرب على الدوام مع الفلسطينيين ، فهم فى حاجة إلى رب ينصرهم على أعدائهم ، فأصبح الرب رب الجنود فهم فى غنى عنه فى كل شىء إلا الحرب .

ودارت الحرب وتابوت عهد الرب مع الإسرائيليين ، وعلى الرغم من ذلك : « انكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته » وكانت الضربة عظيمة جدا وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل ، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالى حفنى وفينحاص » .

ومات عالى لما سمع أن تابوت العهد قد أخذه الفلسطينيون ، ووجمت إسرائيل وقالوا : « قد زال المجد من إسرائيل » .

انهزمت إسرائيل ولكن تابوت العهد الذى وضع فى أشدود انتقم من الأشدوديين ونقل التابوت إلى جت ، فأصاب أهالى جت بالبواسير كما فعل بأهالى أشدود ، فأرسل التابوت إلى عقرون ففزع منه الناس ، خافوا أن يذوقوا الموت بسببه وقد ضربوا بالبواسير ، فأفتى الكهنة والعرافون برد التابوت ورشوة إلـه إسرائيل بذهب ، ففعلوا ذلك ، ففرح إسرائيل برد تابوت الرب ، ولا شك أن فرحهم كان أكبر بالصندوق الذى ملىء ذهبا .

أيعقل إن إسرائيل وتابوت العهد يحاربون وينهزمون ثم ينتصر تابوت العهد وحده على الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه بلا حرب إلى إسرائيل بعد سبعة أشهر ؟! أيمكن أن يصدق مؤمن أن هذا وحى الله ؟ إن الله ينصر من ينصره وما كان ليحارب عن قوم يأتون النساء على باب بيته ، على باب خيمة

الاجتماع ، ولكنها أحلام الذين كتبوا التوراة فى المنفى .

وكان بنو إسرائيل يعبدون بعلا وعشتار فقال لهم صموئيل : إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده ، فينقذكم من يد الفلسطينيين . فنزع بنو إسرائيل البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب وحده » .

وانتصر صموئيل على الفلسطينيين واستعاد المدن التى أخذها الفلسطينيون من إسرائيل ، ولولا ذلك النصر لما كان لصموئيل ذكر فى التوراة ، فكل من انتصر على الفلسطينيين جعلوه نبيا يقضى بين بنى إسرائيل .

وكان لما شاخ صموئيل أن جعل بنيه قضاة لإسرائيل ، وأخذ ابناه الرشوة و لم يحكما بالعدل فجاء شيوخ إسرائيل إلى صموئيل وقالوا له : « هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا فى طريقك . فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكا يقضى لنا ، وصلى صموئيل إلى الرب فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم ، حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركونى وعبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم .

فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب ، وقال : هذا يكون قضاء الملك الذى عليكم ، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبَّازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم

وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملكم لشغله . ويُعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا ، فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى أخذتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون علينا ملك . فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا . فسمع صموئيل كل كلام الشعب وتكلم به فى أذنى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا . فقال صموئيل لرجال إسرائيل اذهبوا كل واحد إلى مدينته » . .

أليس أمر إسرائيل عجبا ؟! تابوت الرب يحارب وحده الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه إلى أعدائهم ثم يطلب بنو إسرائيل ملكا ليخرج أمامهم ويحارب حروبهم ؟ وهل يستطيع ذلك الملك أن يفعل أكثر مما فعل تابوت العهد ؟ وإذا وقع ذلك الملك فى الأسر أيستطيع وحده أن يضرب الفلسطينيين وأن يرغمهم على أن يعيدوه ومعه صندوق ملىء ذهبا ؟! إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عاجزون عن صياغة قصة محبوكة تقود مقدماتها إلى نتائجها الطبيعية ، وإنهم جاهلون ماهية الرب وقدرته ، فقد جعلوا صموئيل يسمع كلام الشعب ويتكلم به فى أذنى الرب ، كأنما الرب فى حاجة إلى من ينقل إليه كلام الناس : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم »[1] .

كان النبى يدعى الرائى ، وقد وقع اختيار صموئيل الرائى بوحى من الله على

---

(١) المجادلة ٧ .

شاؤل ، فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس شاؤل وقبله « واستدعى صموئيل الشعب إلى الرب إلى المصفاة وقال لبنى إسرائيل : هكذا يقول الرب إلـٰه إسرائيل : إنى أصعدت إسرائيل من مصر وأنقذتكم من يد المصريين ومن يد جميع الممالك التى ضايقتكم ، وأنتم قد رفضتم اليوم إلـٰهكم الذى هو مخلصكم من جميع الذين يسيئون إليكم ويضايقونكم وقلتم له بل تجعل علينا ملكا ، فالآن امثلوا أمام الرب حسب أسباطكم وألوفكم . فقدم صموئيل جميع أسباط إسرائيل فأخذ سبط بنيامين ثم قدَّم سبط بنيامين حسب عشائره فأخذت عشيرة مطْرى وأخذ شاؤل بن قيس ، ففتشوا عليه فلم يوجد ، فسألوا أيضا من الرب هل يأتى الرجل أيضا إلى هنا ؟ فقال الرب : هو ذا قد اختبأ بين الأمتعة . فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق . فقال صموئيل لجميع الشعب : أرأيتم الذى اختاره الرب لكم ؟ إنه ليس مثله فى جميع الشعب . فهتف كل الشعب وقالوا : ليحيى الملك . فكلم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه فى السفر ووضعه أمام الرب ... » .

والله إنه لشىء محير . بنو إسرائيل يرفضون إلـٰههم ويطلبون ملكا ، فيستجيب لهم الإلـٰه المرفوض ويختار لهم ذلك الملك ويعاون على اختياره نبى الله صموئيل ! هل يعقل أن نبيا يطيع قومه فى معصية ويا ليتها معصية عادية ، إنها رفض حكم الله والتماس ملك أرضى يقضى بينهم . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يتلهفون على ملك يعيدهم إلى أرض فلسطين فأساءوا الأدب مع ربهم ، ما دام ذلك الرب لا يحملهم إلى الأرض التى يطمعون فيها .

وفى الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الأول بداية التفريق بين بنى إسرائيل ورجال يهوذا وإن كان ذلك التفريق سابقا لأوانه ، فلم يشتد ساعد اليهود وهم بنو يهوذا إلا بعد أن صار الملك لداود ولابنه سليمان من بعده ، فإنه

لما أوشكت الحرب تنشب بين أهل عمان وبنى إسرائيل .. « فوقع رعب الرب على الشعب ، فخرجوا كرجل واحد وعدهم (شاول) فى بازق فكان بنو إسرائيل ثلاثمائة ألف ورجال يهوذا ثلاثين ألفا » .

وانتصر صموئيل وشاول على أعداء بنى إسرائيل ، ونصب شاول ملكا على إسرائيل وصار مسيح الرب « وأخذ شاول الملك على بنى إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه مؤاب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين ، وحيث توجه غلب » .

وقال الذين كتبوا التوراة إن رب الجنود أمر شاول أن يحارب العماليق وأن يقتل رجالهم ونساءهم ، فخرج شاول فى مائتى ألف رجل وعشرة آلاف رجل من يهوذا ، فقتل كل الرجال واستحيى كل ما هو جيد من الغنم والبقر والخراف ، وقتل كل ما هو هزيل وحقير .

وقد بلغ الذين كتبوا التوراة منتهى السفاهة لما كتبوا : « وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا : ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائى ولم يُقم كلامى ، فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله » . علام الغيوب يندم على أنه اختار شاول ملكا ، عالم الغيب والشهادة لم يكن يعرف سريرة الرجل الذى اختاره لملك إسرائيل . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى تخبطوا تخبطا أعمى عندما كتبوا سفر صموئيل الأول ، جعلوا الرب مع علمه أن بنى إسرائيل يرفضون حكمه ويلتمسون حكم ملك يختار ذلك الملك ويأمر نبيه أن يمسحه ثم يعود ويندم على اختياره لذلك الملك .

صورة مضطربة لا تستقيم لمنطق ، ونقائص تنسب إلى رب العزة سبحانه وتعالى عما يصفون . أفليس لهم قلوب يبصرون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ويذهب صموئيل بأمر الرب إلى بيت لحم وهو يرتجف من شاول ، ويزعم

أنه ذاهب ليذبح للرب بينا كان منطلقا ليمسح غلاما من أبناء يسّى . وعرض يسى أبناءه على صموئيل فرفضهم جميعا ، وسأل عما إذا كانوا قد كملوا فقال يسى : « بقى بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم . فقال صموئيل ليسى : أرسل وأت به ، لأننا لا نجلس حتى يأتى إلى هنا . فأرسل وأتى به ، وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر ، فقال الرب : قم امسحه لأن هذا هو . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه فى وسط إخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا ، ثم قام صموئيل وذهب إلى الرامة .

وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب !

(هذا كلام الذين كتبوا التوراة بأيديهم) .

فقال عبيد شاول له : هو ذا روح ردىء من قبل الله يبغتك . فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردىء من قبل الله أنه يضرب بيده فتطيب .

(أهذا وحى أم كلام كهان أم كدية زار ؟) .

فقال شاول لعبيده : انظروا لى رجلا يحسن الضرب وأتوا به إلىّ . فأجاب واحد من الغلمان وقال : هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البتلحمى يحسن الضرب ، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . فأرسل شاول رسلا إلى يسى يقول : أرسل إلى داود ابنك الذى مع الغنم . فأخذ يسى حمارا حاملا خبزا وزق خمر وجدى معزى وأرسلهما بيد داود ابنه إلى شاول .. فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جدا وكان له حامل سلاح . فأرسل شاول إلى يسى يقول : ليقف داود أمامى لأنه وجد نعمة فى عينى . وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء » .

أهذه وظيفة رجل الرب معه ؟! وهل إذا أراد الله بشاول سوءا يستطيع عود

داود أن يرده عنه ؟ إن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بأساطير بابل وبالأرواح الشريرة التى كانت تطرد بالبخور وبالأغانى والأناشيد . ومن أين عرف عبيد شاول أن روحا شريرة من قبل الرب قد حلت به ؟.

ووقف جيش شاول على جبل ووقف جيش الفلسطينيين على جبل والوادى بينهم ، « فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت طوله ست أذرع وشبر ، وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابسا درعا حرشفيا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس ، وجرموقا نحاس على رجليه ، ومزراق نحاس بين كتفيه ، وقناة رمحه كنول النساجين ، وسنان رمحه ستمائة شاقل حديد ، وحامل الترس كان يمشى قدامه . فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم : لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب ؟ أما أنا الفلسطينى وأنتم عبيد لشاول . اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلى فإن قدر أن يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيدا . وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيدا وتخدموننا .

ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى هذا ارتاعوا وخافوا جدا .

وكان الفلسطينى يتقدم ويقف صباحا ومساء أربعين يوما ، فقال يسى لداود ابنه : خذ لإخوتك (وكانوا ثلاثة فى جيش شاول) إيفة من هذا الفريك وهذه العشر خبزات واركض إلى المحلة إلى إخوتك . وهذه العشر القطعات من الخبز قدمها لرئيس الألف وافتقد سلامة إخوتك وخذ منهم عربونا . وكان شاول وهم وجميع رجال إسرائيل فى وادى البطم يحاربون الفلسطينيين .

فبكر داود صباحا وترك الغنم مع حارس وحمل وذهب كما أمر يسى وأتى إلى المتراس والجيش بخارج إلى الاصطفاف وهتفوا للحرب . واصطف

إسرائيل والفلسطينيون صفا مقابل صف . فترك داود الأمتعة التى معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . وفيما هو يتكلم إذا برجل مبارز اسمه جلياث الفلسطينى من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا فقال رجال إسرائيل : أرأيتم هذا الرجل الصاعد ليعيِّر إسرائيل هو صاعد ، فيكون أن الرجل الذى يقتله يغنيه الملك غنى جزيلا . ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرا فى اسرائيل » .

ويضرب داود جلياث بالمقلاع : « ومد داود يده إلى الجراب وأخذ منه حجرا ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطينى فى جبهته فسقط على وجهه ، فأسرع داود إليه فقتله » .

وإن قارئ هذه القصة ليقف حائرا يتساءل : ألم يأخذ شاول داود ليضرب له بالعود ؟ فكيف عاد إلى رعى غنم أبيه ؟ وهل كان داود غلاما أو رجلا لما قتل جلياث ؟ فشاول يقول له : لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطينى لتحاربه لأنك غلام ، بينا يقول غلام شاول لما كلمه عن داود : وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . إن قارئ التوراة كثيرا ما تنتابه حيرة ويتساءل : هل يكتب التوراة أكثر من كاتب ؟ إن كل الدلائل تدل على أن أكثر من واحد قد اشتركوا فى كتابتها وإلا لما وجدت المتناقضات التى تفيض بها التوراة .

إن القرآن الكريم قد روى هذه القصة ، فشاول هو طالوت وجلياث هو جالوت ، وإن عبارات القرآن تنبض بالحياة وتشع إيمانا : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم

والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنّى يكون له المُلك علينا ونحن أحق بالمُلك منه و لم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إنّ فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله المُلك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »(١) .

قتل داود جلياث ، ومع أن داود كان يضرب العود لشاول فإن الذين كتبوا التوراة ينسون ذلك فيقولون عند عودة داود برأس جلياث : « فقال له شاول : ابن من أنت يا غلام ؟ فقال : داود بن عبدك يسى البتلحمى » . عجيب أمر شاول أو عجيب أمر الذين كتبوا التوراة . أنسى شاول الخبز وزق الخمر والجدى كل هذه الأشياء التى حملها داود معه هدية للملك يوم جاءه ليضرب العود ليطرد الروح الشريرة التى كانت تحل به من قبل الرب ؟! ألم يحبه جدا وكان له حامل سلاح ؟! فكيف نسيه وكيف يسأل عنه !

وكعادة كتاب التوراة جعلوا الغدر شيمة الأنبياء ، فقد خرجت النساء من جميع مدن إسرائيل يرقصن احتفالا بالنصر وارتفعت أصواتهن بالغناء . فكان

---

(١) البقرة ٢٤٦ — ٢٥١ .

مديحهن لداود يفوق مديحهن لشاول ، فحقد شاول على داود : « وقال شاول لداود : هو ذا ابنتى الكبيرة مَيرب أعطيك إياها امرأة . إنما كن لى ذا بأس وحارب حروب الرب ، فإن شاول قال لا تكن يدى عليه . بل لتكن عليه يد الفلسطينيين ، فقال داود لشاول : من أنا وما هى حياتى وعشيرة أبى فى إسرائيل حتى أكون صهر الملك ؟ » .

و لم يتزوج داود ميرب وأحبت ميكال ابنة شاول داود : « فأخبروا شاول فحسن الأمر فى عينيه ، وقال شاول : أعطيه إياها فتكون له شركا وتكون يد الفلسطينيين عليه . وقال شاول لداود ثانية تصاهرنى اليوم » . وكان مهر داود مائة غلفة من الفلسطينيين أعداء الملك « وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين » . فخرج داود ورجاله لقتال الفلسطينيين فقتل منهم مائتى رجل ، وأتى داود بغلفهم وتزوج ميكال .

يقول كتاب التوراة فى الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول ، إن أحد غلمان الملك قال له وهو يحدثه عن داود : « قد رأيت ابنًا ليسى البتلحمى يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه » . ثم يعودون ليقولوا فى الإصحاح الثامن عشر : «وكان شاول يخاف داود لأن الرب كان معه » . ولما قتل داود مائتين من الفلسطينيين قالوا : « فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود .. وعاد شاول يخاف داود بعد وصار شاول عدوا لداود كل الأيام » . لقد علم شاول ثلاث مرات أن الرب مع داود فكيف خطر له على قلب أن الرب يتخلى عن رجله ويتركه لأعدائه الغلف يقتلونه تنفيذا لرغبة ملك حقود ! شتان بين شاول فى التوراة وطالوت فى القرآن المجيد . فشاول التوراة اصطفاه الرب وهو كاره لذلك الاصطفاء ثم ندم على أن جعله ملكا على إسرائيل ، أما طالوت فى القرآن فقد اصطفاه الله على

علم والله يعطى ملكه من يشاء وقد زاده بسطة فى العلم والجسم ، وآية علمه أنه لما هم بقتال الأعداء عرف أين يتوجه ومن يدعو فوقف هو ورجاله المؤمنون يدعون ربهم : « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »(١) .

كانت أفئدة الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد ملئت حقدا على كل شىء ، فانعكس ذلك الحقد على كل ما كتبوه فإذا بتصرفات الملوك الذين اصطفاهم الله بل والأنبياء الذين بعثوا لهداية البشر تنبض بالحقد بل بالخسة فى كثير من الأحيان .

« وكلم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود ، وأما يوناثان بن شاول فسر بداود جدا ، فأخبر يوناثان داود قائلا : شاول أبى ملتمس قتلك ، والآن فاحتفظ على نفسك إلى الصباح وأقم فى خفية واختبئ ، وأنا أخرج وأقف بجانب أبى فى الحقل الذى أنت فيه وأكلم أبى عنك وأرى ماذا يصير وأخبرك ، وتكلم يوناثان عن داود حسنا مع شاول أبيه وقال له : لا يخطئ الملك إلى عبده داود لأنه لم يخطئ إليك ، ولأن أعماله حسنة لك جدا فإنه وضع نفسه بيده وقتل الفلسطينى فصنع الرب خلاصا عظيما لجميع إسرائيل . أنت رأيت وفرحت فلماذا تخطئ إلى دم برىء بقتل داود بلا سبب ؟ فسمع شاول لصوت يوناثان وحلف شاول : حى هو الرب لا يقتل . فدعا يوناثان داود وأخبره يوناثان بجميع هذا الكلام ، ثم جاء يوناثان بداود إلى شاول فكان أمامه كأمس وما قبله .

وعادت الحرب تحدث فخرج داود وحارب الفلسطينيين وضربهم ضربة عظيمة فهربوا من أمامه . وكان الروح الردىء من قبل الرب على شاول وهو

---

(١) البقرة ٢٥٠ .

جالس فى بيته ورمحه بيده . وكان داود يضرب بالعود فالتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى إلى الحائط ، ففر من أمام شاول فضرب بالرمح إلى الحائط . فهرب داود ونجا تلك الليلة . فأرسل شاول رسلا إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه فى الصباح . فأخبرت داودَ ميكالُ امرأته قائلة : إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غدا . فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا ونجا » .

« فهرب داود ونجا وجاء إلى صموئيل فى الرامة واخبره بكل ما عمل به شاول ، وذهب هو وصموئيل وأقاما فى نايوت . فأخبر شاول وقيل له : هو ذا داود فى نايوت فى الرامة . فأرسل شاول رسلا لأخذ داود ، ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبئون وصموئيل واقفا رئيسا عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبئوا هم أيضا ، وأخبروا شاول فأرسل رسلا آخرين فتنبئوا هم أيضا ، ثم عاد شاول فأرسل رسلا ثالثة فتنبئوا هم أيضا ، فذهب هو أيضا إلى الرامة وجاء إلى البئر العظيمة التى عند سيخو وسأل وقال : أين صموئيل وداود ؟ فقيل ها هما فى نايوت فى الرامة . فذهب إلى هناك إلى نايوت فى الرامة فكان عليه أيضا روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت فى الرامة . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل ، لذلك يقولون : إن شاول أيضا بين الأنبياء » .

أكانت النبوة عدوى حتى إن كل من يقترب من صموئيل يتنبأ وتحل عليه روح الله ؟ أم كانت النبوة فى نظر الذين كتبوا التوراة الانقطاع للعبادة ؟ وإن كان شاول من الأنبياء أتليق الأفعال التى نسبوها إليه بنبى ؟ وإذا كانت روح الله عليه فلماذا ندم الرب لأنه اصطفاه ملكا لبنى إسرائيل ؟ إنها أقاويل كهان اهتزت فى أذهانهم صفات الله تعالى لما اختلطت بصفات آلهة البابليين وقدماء

المصريين وما وصل إليهم من صفات آلهة اليونان والرومان ، فقد كانوا فى بابل فى تلك العهود الساسانية التى تسربت فيها الآداب اليونانية والرومانية إلى العراق وإيران .

وعلى الرغم من أن شاول قد تنبأ — على زعم الذين كتبوا التوراة — فإن قلبه لم يبرأ من عداوة داود . إنه يريد قتله ، فيرسل يوناثان إلى داود أن يهرب من وجه أبيه فيفر داود إلى أخيمالك الكاهن ، ثم إلى أخيش ملك جت . فلما يحس بالخطر يتظاهر بالجنون أمام الملك ، ثم يلجأ إلى مغارة « فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه هناك واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا ، وكان معه نحو أربعمائة رجل .. » .

شاول — على رأى الذين كتبوا التوراة — كان نبيا ، وكان داود نبيا ، فهل يمكن أن نتصور أن نبيين أرسلهما الله يتنازعان السلطة الأرضية ؟ وهل ذلك النزاع الذى شب بين النبيين يمكن أن يكون قدوة للبشر ؟ إن شاول زوّج داود ابنته ولم تكن نيته خالصة فلم يزوجه إياها لأنه داود النبى . وما أراد بذلك الزواج وجه الله أو حتى وجه يهوه ، بل أراد بذلك الزواج أن يكون داود فى قبضة يده يسحقه أنّى شاء . إنها أخلاق أنبياء بنى إسرائيل كما تصورها الذين كتبوا التوراة فى المنفى .

وراح شاول يتتبع داود : « ... وكان هناك كهف فدخل شاول لكى يغطى رجليه ، وداود ورجاله كانوا جلوسا فى مغابن الكهف ، فقال رجال داود له : هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب : هأنذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن فى عينيك ، فقام داود وقطع طرف جبة شاول سرا ، وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه على قطعه طرف جبة شاول . فقال لرجاله : حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب فأمد يدى إليه لأنه

مسيح الرب هو . فوبخ داود رجاله بالكلام و لم يدعهم يقومون على شاول . وأما شاول فقام من الكهف وذهب فى طريقه ، ثم قام داود بعد ذلك وخرج من الكهف ونادى شاول قائلا : يا سيدى الملك . ولما التفت شاول إلى ورائه خر داود على وجهه إلى الأرض وسجد . وقال داود لشاول : لماذا تسمع كلام الناس ... ؟ » . داود النبى يخر ساجدا لبشر بينا دحية الكلبى لما أرسله رسول الله — ﷺ — إلى هرقل بكتاب وأشاروا عليه أن يسجد لقيصر أبى وقال : لا أسجد إلا لله . إن داود لم يخر ساجدا لشاول ولا ريب ولكنها خيالات الذين كتبوا التوراة فى المنفى الذين كانوا يخرون سجَّدا لقورش ودارا وأخشويروش وكل أكاسرة الفرس الذين أحسنوا إليهم بعد أن علمهم « زرادشت » احترام أهل الكتاب .

وقال شاول لداود : أنت أبر منى . لأن داود أتيحت له فرصة القضاء على شاول ولكنه لم يفعل ، ولم يكن هم شاول إلا الدنيا فقد التمس من داود أن لا ينقطع نسله من بعده ولا يبيد اسمه من بيت أبيه . ومات شاول وقام داود ونزل إلى برية فاران .

وتزوج داود أبيجايل ، امرأة رجل أراد أن يؤدبه داود ولكن أبيجايل خرجت تستعطف داود فقبل شفاعتها ، وبعد أن مات زوجها أرسل إليها رسله يعرض عليها الزواج فتهللت بالفرح وخرجت إليه . ثم اتخذ داود امرأة أخرى زوجة ولم يحرك تعدد أزواج داود أقلام المستشرقين الحاقدين على الإسلام ونبى الإسلام ، فما كتب أحد منهم حرفا واحدا ينتقد أنبياء التوراة الذين أسرفوا فى عدد الزيجات وإن سودوا الصفحات لانتقاد نبى الإسلام الذى جاء ليحدد الزواج الذى كان بلا حدود ، فما كانوا يقصدون وجه الحقيقة وما كانوا محايدين كما يحاولون أن يوهموا الناس على الدوام ، بل كان الغرض يملأ عقولهم والحقد يفيض فى أفئدتهم والافتراء يتدفق من أسنة أقلامهم ، فهم

ألد الخصام .

وجعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى نبيهم شاول يستعين بالجان ويحضر صموئيل الذى مات : « ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل شاول من الرب فلم يجبه لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعبيده : فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها . فقال له عبيده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتنكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك . فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فلماذا تصنع شركا لنفسى لتميتها ؟ فحلف لها شاول بالرب قائلا : حى هو الرب إنه لا يلحقك إثم فى هذا الأمر . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى إلىّ صموئيل . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول ؟ فقال لها الملك : لا تخافى فماذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . فقال لها : ما هى صورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة . فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد . فقال صموئيل لشاول : لماذا أقلقتنى بإصعادك إياى ؟ فقال شاول : لقد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى و لم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع . فقال صموئيل : ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك ؟ وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود . لأنك لم تسمع لصوت الرب و لم تفعل حُمُوَّ غضبه فى عماليق ، لذلك قد فعل الرب بك هذا الأمر اليوم ... » .

ألا يذكرك الاستعانة بالجن لإقامة الميت من قبره بحكايات ألف ليلة

وليلة ؟! وألا يحيرك أمر شاول ؟ إن الله اصطفاه ملكا لبنى إسرائيل ثم ندم على ذلك ، ثم عاد وجعله نبيا ثم فارقه وعاداه ! أيمكن أن يختار الرب نبيا ثم يعزله ؟! إن قصة شاول كما رواها الذين كتبوا التوراة بأيديهم إن دلت على شيء فإنما تدل على أن إلٰه إسرائيل لا يعلم الغيب وأنه يتخبط فى اختيار أنبيائه وأنه يصطفى بعضهم دون علم ، فإذا نطقوا بهوى نفوسهم طردهم من رحمته وناصبهم العداء .

إنهم تصوروا إلٰه إسرائيل كملك أرضى من الملوك الذين عاشوا بالقرب منهم يقدمون إليهم بنات اليهود الجميلات ، إنه يختار ثم يتضح له سوء اختياره فيندم ثم يصب جام غضبه على من وقع عليه الاختيار .

لماذا حقد الذين كتبوا التوراة على شاول ؟ لأنه قد هزم من الفلسطينيين . إنهم يجعلون كل من انتصر منهم على الفلسطينيين نبيا ، أما الذين هزموا فيسلب منهم كل مجد وكل اصطفاء ويطردون من رحمة إلٰه إسرائيل .

تأثر الذين كتبوا التوراة فى بابل بمعتقدات البابليين ومعتقدات المصريين وأخذوا أساطيرهم ودسوها فى توراتهم . ويقول برستد فى كتابه فجر الضمير : « هذا ولدينا الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الدينى الذى أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (فى بابل) كان متأثرا بتعاليم « زروستر » (زرادشت) ، وأنه يجب لذلك أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التى تعرضت لها الخلقيات العبرانية ، التعاليم التى جاء بها هذا النبى « الميدى الفارسى » العظيم « زروستر » (زرادشت) .

وكان قد نما قبل ظهور الملكية العبرانية فى أواخر القرن الحادى عشر مجموعة كبيرة من الأمم المتحضرة على طول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . تقع بين بلاد الحيثيين شمالا وتخوم مصر جنوبا . والأرجح أن أهم هذه الشعوب من وجهة تاريخ المدينة هم الفينيقيون .

وقد كانت بعض العناصر الهامة فى المدنيتين البابلية والمصرية القديمة عاملا جوهريا فى تكييف الحياة والثقافة فى مدن الساحل الفينيقى الزاهرة التى كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية ، ومن ثم كان من السهل أن تدخل هذه الخيوط الأجنبية فى نسيج ثوب الحياة العبرانية ، وعلى أية حال فنحن لا نعلم شيئا تقريبا عن نوع التطور الخلقى عند الفينيقيين .

وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين ، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين . كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد فى فلسطين الكنعانية . وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر البابليين فى الفن والأدب والدين إلى العبرانيين .

يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقى قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م .

ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا فى فتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق . م ، بقيت فلسطين مستعمرة فى أيديهم أكثر من أربعة قرون .

والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية فى القرون التى احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية .

وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التى أنشىء معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية بمرورها فى تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . والواقع الذى لا شك فيه أن اللغة التى وجدها العبرانيون الفاتحون ، وهى اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم ، وهى التى انحدرت إلينا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة . ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى » .

« كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أديب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الجنود المرتزقة . ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا مدة قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى طيبة (الأقصر) « مرنبتاح » (منفتاح) بن رعمسيس الثانى قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة . فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقولة : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » .

وقد كان ذلك الحادث فى « عهد القضاة » وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام القومى ، فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة

التى قضوها فى الرعى وتلمس الكلأ على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل بعض التقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإلٰـه القبيلة » .

واستمرت الحرب مشتعلة الأوار بين الفلسطينيين والعبرانيين فقتل الفلسطينيون شاول وبنيه ، وأسر العمالقة زوجتى داود ، وساقوا النساء والأطفال معهم و لم يقتلوا الرجال كما يفعل اليهود لما ينتصرون على أعدائهم ، فجاء داود وخلص الأسرى من الفلسطينيين . « وكان بعد موت شاول ورجوع داود من مضاربة العمالقة أن داود أقام فى صِقلّغ يومين وفى اليوم الثالث إذا برجل أتى من المحلة من عند شاول وثيابه ممزقة وعلى رأسه تراب ، فلما جاء إلى داود خر إلى الأرض وسجد . فقال له داود : من أين أتيت ؟ فقال له : من محلة إسرائيل نجوت . فقال له داود : كيف كان الأمر ؟ فقال : إن الشعب قد هرب من القتال وسقط أيضا كثيرون من الشعب وماتوا ومات شاول ويوناثان ابنه أيضا . فقال داود للغلام الذى أخبره : كيف عرفت أنه قد مات شاول ويوناثان ابنه ؟ فقال الغلام الذى أخبره : اتفق أنى كنت فى جبل جلبوع وإذا شاول يتوكأ على رمحه وإذا بالمركبات والفرسان يشدون وراءه ، فالتفت إلى ورائه فرآنى ودعانى فقلت : هأنذا . فقال لى : من أنت ؟ فقلت له : عماليقى أنا . فقال لى : قف علىّ واقتلنى لأنه قد اعترانى الدوار لأن كل نفسى بعد فىّ . فوقفت عليه وقتلته لأنى علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه ، وأخذت الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه وأتيت بهما إلى سيدى ههنا » .

هذه رواية الإصحاح الأول من سفر صموئيل الثانى عن موت شاول ، وهى تتناقض مع ما جاء فى الإصحاح الحادى والثلاثين « ... واشتدت

الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسى فانجرح جدا من الرماة ، فقال شاول لحامل سلاحه : استل سيفك واطعنى به لئلا يأتى هؤلاء الغلف ويطعنونى ويقبحونى . فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدا ، فأخذ شاول السيف وسقط عليه ، ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول سقط هو أيضا علىَ سيفه ومات معه . فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله فى ذلك اليوم معا . ولما رأى رجال إسرائيل الذين فى عبر الوادى والذين فى عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا . تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها » .

الرواية الأولى تقول إن غلاما قتل شاول وجاء بالخبر إلى داود ، والرواية الثانية تقول إن شاول قد انتحر خشية أن يمثل به . وهذا التضارب يؤكد أن التوراة التى كتبت فى المنفى قد كتبها أكثر من واحد فتضاربت أقوالهم وإن نهلوا جميعا من الأدب البابلى والأدب المصرى القديم وسلبوا لغة الكنعانيين وأساطير الشعوب .

وأمر داود بضرب عنق العماليقى لأنه قتل مسيح الرب .

ورثا داود بهذه المرثاة شاول ويوناثان ابنه ، وقال إن يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هو ذا مكتوب فى سفر ياشر :

الظبى يا إسرائيل مقتول على شوامخك ، كيف سقط الجبابرة ؟ لا تخبروا فى جت . لا تبشروا فى أسواق أشقلون لئلا تفرح بنات الفلسطينيين ، لئلا تشمت بنات الغلف .

ويعود الذين كتبوا التوراة يذكرون سفر ياشر وإن لم يظهر ذلك السفر بين أسفار التوراة : « وكان بعد ذلك أن داود سأل الرب قائلا : أأصعد إلى إحدى مدائن يهوذا ؟ فقال له الرب : اصعد . فقال داود : إلى أين أصعد ؟ فقال إلى حبرون . فصعد داود إلى هناك وامرأتاه أخينوعم البزرعيلية وأبيجايل امرأة

نابال الكُرملى . وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا فى مدن حبرون . وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا » .

كان داود من نسل يهوذا وكان أول ملك فى بيت يهوذا ، ولما كانت جنة اليهود أرضية فالملك عندهم أفضل من النبوة ، فراح اليهود يؤكدون صفة الملك لداود أكثر من تأكيدهم لنبوته . وقد بدأ بتولية داود انقسام دولة بنى إسرائيل إلى دولتين ، دولة إسرائيل ودولة اليهودية .

أصبح داود ملكا على اليهودية ، « وأما أبنير بن نير رئيس جيش شاول فأخذ ايشبوشت بن شاول وعبر به إلى محنايم وجعله ملكا على جلعاد وعلى الأشوريين وعلى بزرعيل وعلى أفرايم وعلى بنيامين وعلى كل إسرائيل » .

ونشب قتال بين عبيد أبنير وعبيد داود هُزِم فيه أبنير ورجال إسرائيل شر هزيمة ، « وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود وكان داود يذهب يتقوى وبيت شاول يذهب يضعف . وولد لداود بنون فى حبرون وكان بكره أمنون من أخينوعيم البزرعيلية ، وثانيه كبلآب من أبيجايل امرأة نابال الكرملى ، والثالث أبشالوم بن معكة بنت تلماى ملك جَبشُور ، والرابع أدونِّيا ابن حجْيث ، والخامس شفطيا ابن أبطال ، والسادس بترعام من عجلة امرأة داود . هؤلاء ولدوا لداود فى حبرون » .

ولم يغضب المستشرقون الذين دأبوا على مهاجمة نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — لأنه تزوج أكثر من واحدة ، فزواج داود لست زوجات حتى الآن فى حبرون لا يثير تساؤلا ولا دهشة ، أما زواج محمد عليه الصلاة والسلام من أمهات المسلمين صلة للرحم وضنًّا بهن على المهانة فأمر يستحق أن يشرع المستشرقون والحاقدون أسنة أقلامهم لطعنه وتجريحه وافتراءاتهم للنيل من نبى الرحمة ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ذرات من الرماد فى منبع الطهر

وإن تعجب فاعجب لزعمهم أن داود أبى أن يتم صلح بينه وبين أبنير قبل أن يأتيه أبنير بميكال بنت شاول وهو يعلم أنها زوجة رجل آخر : « فأرسل أبنير من فوره رسلا إلى داود قائلا : لمن هي الأرض ، يقولون اقطع عهدك معى وهو ذا يدى معك لرد جميع إسرائيل إليك . فقال حسنا . أنا أقطع معك عهدا إلا انى أطلب منك أمرا واحدا وهو ألا ترى وجهى ما لم تأت أولا بميكال بنت شاول حين تأتى لترى وجهى . وأرسل داود رسلا إلى ايشبوشت بن شاول يقول : أعطنى امرأتى ميكال التى خطبتها لنفسى بمائة غلفة من الفلسطينيين . فأرسل ايشبوشت وأخذها من عند رجلها من فلطيئيل بن لايش . وكان رجلها يسير معها ويبكى وراءها إلى بحوريم . فقال له أبنير : اذهب ، ارجع . فرجع » .

تزوج رسول الله — ﷺ — زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد لحكمة ظاهرة ، للقضاء على عادة جاهلية ظالمة ، لتأكيد معنى سام هو أن الناس سواسية لا فرق بين حر وعبد وشريف ووضيع ، وأن الناس جميعا لآدم لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . فقام الحاقدون على الإسلام منذ ذلك الوقت و لم يقعدوا منددين بذلك الزواج ، أما ما زعمه الذين كتبوا التوراة من أن داود قد انتزع زوجة من أحضان زوجها فلم يحرك منهم ساكنا . وقد تعمدوا أن تخونهم الذاكرة لما هاجموا زواج محمد — ﷺ — من بنت عمته زينب بنت جحش ، فلو أنهم تذكروا هذه الحادثة التى جاءت فى كتابهم المقدس لجفت أقلامهم ولتفصد منهم عرق الخجل لو كانوا يخجلون !

« وكان كلام أبنير إلى شيوخ إسرائيل قائلا : قد كنتم منذ أمس وما قبله تطلبون داود ليكون ملكا عليكم ، فالآن افعلوا ، لأن الرب كلم داود قائلا : إنى بيد داود عبدى أخلص شعبى إسرائيل من يد الفلسطينيين ومن أيدى جميع أعدائهم » .

إسرائيل شعب الله ، هكذا يزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أما الشعوب الأخرى فأم كلاب البشرية ، والرب رب إسرائيل لا هو رب الناس ولا هو إله الناس ولا هو ملك يوم الدين ، فالذين كتبوا التوراة لا يؤمنون باليوم الآخر وهم يعبدون إله إسرائيل ليطيل أيامهم فى الأرض وينصرهم على أعدائهم ويسوق إليهم ثروة الشعوب ليملئوا خزائنهم بالذهب والفضة .

وقتل أبنير غدرا وهو يدعو لداود ، فماذا فعل نبى الله الذى بعثه الله ليعلم الناس مكارم الأخلاق ؟ زعم الذين كتبوا التوراة فى بابل أن داود شق الثياب وأمر الناس أن يشقوا ثيابهم بل وأن يلطموا : « فقال داود ليوآب ولجميع الشعب الذى معه : مزقوا ثيابكم وتنطقوا بالمسوح والطموا أمام أبنير . وكان داود الملك يمشى وراء النعش . ودفنوا أبنير فى حبرون ورفع الملك صوته وبكى على قبر أبنير وبكى جميع الشعب » .

وأصبح داود ملكا على إسرائيل كلها ودخل أورشليم ، وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم إله إسرائيل قائد جيوشهم وراسم خططهم : « وسمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على إسرائيل فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود ، ولما سمع داود نزل إلى الحصن . وجاء الفلسطينيون وانتشروا فى وادى الرفائيين . وسأل داود من الرب قائلا : أأصعد إلى الفلسطينيين . أتدفعهم ليدى ؟ . فقال الرب لداود : أصعد لأنى دفعا أدفع الفلسطينيين ليدك . فجاء داود إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك . وقال : قد اقتحم الرب أعدائى أمامى كاقتحام المياه ، لذلك دعى اسم ذلك الموضع بعل فراصيم وتركوا هناك أصنامهم فنزعها داود ورجاله .

ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا أيضا وانتشروا فى وادى الرفائيين ، فسأل داود من الرب فقال : لا تصعد بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار البكا . وعندما تسمع صوت خطوات فى رءوس البكا حينئذ احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين . ففعل

داود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر » .

إن قارئ التوراة يلمس أن الرب قد خلق الفلسطينيين لعداوته وليبطش بهم إكراما لشعبه إسرائيل ، سواء أحسن بنو إسرائيل إلى الله أو تنكبوا الطريق ، وسواء أكان الفلسطينيون على الهدى أو فى ضلال مبين . إنه إلـه متحيز إلى إسرائيل ، أو بمعنى أصح إنه إلـه فى خدمة إسرائيل . وهذا تصور مريض للذين كتبوا التوراة فى المنفى فقد بلغ بهم الغرور أن سخروا الرب لخدمة مآربهم ، وبلغ بهم السفه وسوء الأدب مع الرب أن جعلوا داود يغتاظ من بعض تصرفات الرب بل ويشك فى نواياه نحوه . ففى الإصحاح السادس من صموئيل الثانى خرج داود وجميع الشعب ليحملوا تابوت الرب من بيت أبيناداب « ... وكان عُزَّة وأخيو ابنا أبيناداب يسوقان العجلة الجديدة فأخذوها من بيت أبيناداب الذى فى الأكمة مع تابوت الله . وكان أخيو يسير أمام التابوت وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج ولما انتهوا إلى بيدر ناخون مد عُزَّة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت . فحمى غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفلة فمات هناك لدى تابوت الله . فاغتاظ داود لأن الرب اقتحم عزة اقتحاما وسمى ذلك الموضع فارص عزة إلى ذلك اليوم ، وخاف داود من الرب فى ذلك اليوم وقال : كيف يأتى إلى تابوت الرب ؟ و لم يشأ داود أن ينقل تابوت الرب إليه فى مدينة داود ، فمال به داود إلى بيت عويد أدوم الجَتى . وبقى تابوت الرب فى بيت عويد أدوم الجتى ثلاثة أشهر وبارك الرب عويد أدوم وكل بيته » .

أكان داود فى شك من بركة تابوت الله ؟ أم أن داود كان يخشى غضب الله عليه لما اغتاظ من الرب لهلاك عزة ؟ إنه لم يطمئن إلى بركة تابوت الله إلا بعد أن أخبر أن البركة حلت ببيت عويد : « فأخبر الملك داود وقيل له : قد بارك

الرب بيت عويد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله . فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عويد أدوم إلى مدينة داود بفرح . وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات تذبح ثورا معلوفا . وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب . وكان داود متنطقا بأفود من كتان . فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق ، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود أشرفت ميكال بنت شاول من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته فى قلبها . فأدخلوا تابوت الرب وأوقفوه فى مكانه فى وسط الخيمة التى نصبها له داود ، وأصعد داود محرقات أمام الرب وذبائح سلامة ، ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم رب الجنود . وقسم على جميع الشعب على كل جمهور إسرائيل رجالا ونساء ، على كل واحد رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب ، ثم ذهب كل الشعب كل واحد إلى بيته ، ورجع داود ليبارك بيته .

فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف اليوم فى أعين إماء عبيده كما يتكشف أحد السفهاء . فقال داود لميكال : إنما أمام الرب الذى اختارنى دون أبيك ودون كل بيته ليقيمنى رئيسا على شعب الرب إسرائيل . فلعبت أمام الرب وإنى أتصاغر دون ذلك وأكون وضيعا فى عينى نفسى . وأما عند الإماء التى ذكرت فأتمجد ، ولم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها » .

جعل الذين كتبوا التوراة ميكال بنت شاول تحتقر داود لأنه رقص من الوجد أمام الرب ولم يجعلوها تحتقره لأنه انتزعها من أحضان زوجها ليتخذها زوجة ، ولا غرو فانتزاع امرأة من زوجها لم يكن شيئا يثير الغضب فى نفوس الذين كانوا يقدمون نساءهم شهوة للأكاسرة ليجلبوا رضاهم على بنى إسرائيل .

واسمع ماذا يقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم عن الرب ، لقد جعلوه يشتهى أن يسكن بيتا عوضا عن الخيمة التى كان يسكنها : « وكان لما سكن الملك فى بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه ، أن الملك قال لناثان النبى : انظر ، إنى ساكن فى بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشُقَق . فقال ناثان للملك : اذهب افعل كل ما بقلبك لأن الرب معك . وفى تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلا : اذهب وقل لعبدى داود هكذا قال الرب : أأنت تبنى لى بيتا لسكناى ، لأنى لم أسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير فى خيمة وفى مسكن . فى كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبى إسرائيل قائلا : لماذا لم تبنوا لى بيتا من الأرز ؟ والآن فهكذا تقول لعبدى داود . هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبى إسرائيل ، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين فى الأرض ... » .

لماذا حدث الرب النبى ناثان ولم يحدث داود مباشرة وقد سبق أن استشاره داود فى حرب الفلسطينيين فأشار عليه ووعده بالنصر بل رسم له خطة الهجوم ؟ وهل يعقل أن الرب يذكر داود بما أكرمه به ليقنع داود ببناء بيت له من الأرز ؟ وهل الرب فى حاجة إلى مسكن من الأرز أو الذهب ؟ « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون »[1] .

وحارب داود أعداءه حتى بلغ دمشق وأقام فى أورشليم ، وأرسل يوآب وعبيده معه وجميع بنى إسرائيل لمحاربة بنى عمون « وكان فى وقت المساء أن

---

(١) الزمر ٦٧ .

داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا . فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت ألبعام امرأة أوريا الحثى ؟ فأرسل داود رسلا وأخذها ، فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إنى حُبلى . فأرسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إلى أوريا الحثى . فأرسل يوآب أوريا إلى داود . فأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك . فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك . ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته . فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ! فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرآتى ، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل .

وفى الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوآب ورسله بيد أوريا ، وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت . وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه . فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثى أيضا . فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب . وأوصى الرسول قائلا : عندما تفرغ من الكلام مع

الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور ؟ من قتل أبيمالك بن بريوشت ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من على السور فمات فى ناباص . لماذا دنوتم من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثى أيضا .

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب ، وقال الرسول لداود : قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب . فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثي أيضا . فقال داود للرسول هكذا تقول ليوآب : لا يسَوِّ فى عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك . شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

ولما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا . وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب » .

زعم الذين كان الدنس مداد أقلامهم أن داود عليه السلام قد زنى بامرأة قائد من قواده أثناء أن كان يجاهد فى سبيل الله فحملت منه سفاحا ، و لم يكتف بذلك بل أرسله فى مقدمة الجيش ليقتل وقد قتل . ونسى هؤلاء المفترون أن الله كلم داود وأوحى إليه ، وأن ما نسبوه إلى الرجل لا يمكن أن يصدر عن رجل صالح لا عن رجل اصطفاه الله ، ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد قبلوا هذا الافتراء ورووا قصة داود كما جاءت فى توراة المنفى ، مع أن الإمام على بن أبى طالب كان يحد الذى يروى هذه الرواية فيجلده ثمانين جلدة ، أربعين لافتراء الزنى وأربعين لأن الافتراء كان فى حق نبى .

وقد أفتى داود فتوى فى حق غنى له تسع وتسعون نعجة ولرجل فقير نعجة واحدة ، وقد أخذ الغنى نعجة الفقير ، فجعلوا تلك الفتوى تخدم قصتهم

المفتراة : « فأرسل الرب ناثان إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان فى مدينة واحدة واحد منهما غنى والآخر فقير ، وكان للغنى غنم وبقر كثيرة جدا ، وأما الفقير فلم يكن له شىء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعا . تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام فى حضنه وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذى جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للرجل الذى جاء إليه فحمى غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان : حى هو الرب : إنه يُقتل الرجل الفاعل ذلك ورد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق .

فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل . هكذا قال الرب إلٰه إسرائيل ، أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا . وإن كان ذلك قليلا كنت أريد كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ؟ قد قتلت أوريا الحثى بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بنى عمون . والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب : هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس ... » .

لندع ما أفتى به داود ، أو بمعنى أصح ما وصفه الذين كتبوا التوراة بأيديهم على لسان داود ، فهى فتوى ملؤها الغضب والثورة ، فهل من يسرق نعجة من جاره يقتل ؟ وفى أى شرع هذا ؟ إن أمر هذه الفتوى هين ولكن الأمر الذى يفزع البشرية جمعاء أن الرب يقابل الفاحشة بالفاحشة ، بل إنه يفوق البشر

فى التردى فى حمأة الرذيلة . إنه يتهم داود — على زعم الذين كتبوا التوراة — أنه ارتكب خطيئته سرا ولكن الرب ينذر داود بأنه سيأخذ نساءه أمام عينيه ويدفعهن إلى قريبه ليزنى بهن على أعين الناس فى عين الشمس . أى جهارا نهارا ، و لم يذكر لنا الذين كتبوا التوراة ما إذا كان سيفعله قريب داود فى نساء داود بأمر الرب وتدبيره سيعتبر زنى أو سيكتب له فى الدنيا حسنات ، فيمد الله فى عمره ويمد خزائنه بالذهب ؟!

إن القرآن الكريم قد رد للرسل والأنبياء كراماتهم التى دنسها كتّاب التوراة فى المنفى عن قصد أو متأثرين بالرذيلة التى كانوا يتمرغون فيها ، فدارس التوراة يخيل إليه أحيانا أن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بالحياة الماجنة التى كانوا يحيونها فى بابل ، وأحيانا أنهم كانوا يبذلون الجهود لينفوا النبوة عن داود وسليمان ويؤكدوا لهما الملك ، فالملك كان حلم المشردين فى بابل ، أما النبوة فقد كانت منتشرة فيهم على حسب ما يزعمون .

وقد مجد القرآن الكريم داود عليه السلام بما هو أهله ، فلا يعقل أن رجلا يصطفيه ربه ويوحى إليه بفعل مثل تلك الأفعال التى افتراها كتاب التوراة : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب . وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط واهدنا إلى سواءالصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعَزّنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخُلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلفَى وحُسن

مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يَضِلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[١]) .

« ... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا »[٢] .

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدِّر فى السَّرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير »[٣] .

وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم داود يصوم للرب ليحقق له أمنية فإذا لم تتحقق يفطر ، فلما مرض الذى ولدته امرأة أوريا لداود نذر لله صوما : « فسأل داود الله من أجل الصبى وصام داود صوما ودخل وبات مضطجعا على الأرض . فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ ولم يأكل معهم خبزا . وكان فى اليوم السابع أن الولد مات . فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حيا كلمناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له قد مات ، ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن الولد قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ فقالوا مات . فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته وطلب فوضعوا له خبزا فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذى فعلت ؟ لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزا ... » .

ترى ماذا كان رد داود ؟ أقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ أحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، إنه قال — على حسب زعم الذين كتبوا التوراة — « لما كان الولد حيا صمت وبكيت لأنى قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمنى الرب

---

(١) ص ١٧ — ٢٦ . (٢) الإسراء ٥٥ .
(٣) سبأ ١٠ ، ١١ .

ويحيا الولد . والآن قد مات فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أرده بعد . أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلىّ » .

أيمكن أن يتصور عقل أن داود صام وبكى من أجل ابنه الذى كان ثمرة الزنى ؟ إن كل ما جاء عن داود فى التوراة من خيال عقول مريضة لا تفرق بين النبوة والملك وإن كانت تفضل الملك على النبوة ، ولا تميز بين الحلال والحرام ولا تعرف حقيقة الرسالة وعصمة الأنبياء .

إن الزانى يرجم فى شريعة موسى ، وقد قام جدل حول ذلك بين محمد — ﷺ — وبين يهود المدينة انتهى بأن اعترف أحبار اليهود برجم الزانى ، فما بال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ووصموا الأنبياء بكل نقيصة مروا على ما زعموه من زنى داود بيتشبع امرأة أوريا مرور العابثين بكل القيم الأخلاقية ؟ فما استنكروا الفعلة ولا حتى أشاروا إلى توبته وأنه ظل يبكى ندما حتى نبت الزرع من دموعه كما زعم بعض المؤرخين الإسلاميين الذين اغترفوا من التوراة دون حرص .

« وعزى داود بتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابنا فدعاه سليمان والرب أحبه ... » .

إن الرب أوحى إلى داود فأبى الذين كتبوا التوراة فى بابل إلا أن يجعلوه ملكا ينتزع الزوجات من أزواجهن ، وأحب الرب بيت داود وأحب سليمان فكيف جعل الذين كتبوا التوراة أحباء الله يتصرفون ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا غارقين فى الذل والعار ، وكان أشراف فارس وبابل يتسرون بنسائهم لا يعرفون حلالا من حرام ، فكانوا متأثرين بالبيئة التى وجدوا فيها لما كتبوا قصص الأنبياء ، فما ارتفع نبى من أنبيائهم عن الدنس الذى كانوا فيه يلغون ، وما هام نبى منهم فى عالم الطهر وقرع أبواب ملكوت الله لأن الذين كتبوا التوراة كانوا يخوضون فى الخطايا فهل ننتظر من فاقد الشىء أن يعطيه ؟!

« وجرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها أمنون بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عذراء ، وعسر فى عينى أمنون أن يفعل لها شيئا . وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن مشمعى أخي داود . وكان يوناداب رجلا حكيما جدا ، فقال له : لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح ؟ أما تخبرنى ؟ فقال له أمنون : إنى أحب ثامار أخت أبشالوم أخى . فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى خبزا وتعمل أمامى الطعام لأرى فآكل من يدها .

واضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك : دع ثامار أختى فتأتى وتصنع أمامى كعكتين فآكل من يدها . فأرسل داود إلى ثامار قائلا : اذهبى إلى بيت أمنون أخيك واعملى له طعاما .

فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت كعكا أمامه وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامه فأبى أن يأكل . وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عنى . فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : إيتى بالطعام إلى المخدع ، فآكل من يديك ، فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجعى معى يا أختى ، فقالت له : لا يا أخى لا تذلنى ، لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل . لا تعمل هذه القباحة . أما أنا فأين أذهب بعارى ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء فى إسرائيل . والآن كلم الملك فإنه لا يمنعنى منك . فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها » .

أستغفر الله العظيم . إن قلمى ليضطرب فى يدى وأنا أكتب قصة ابن داود مع أخته بنت داود ، ولكن ما حيلتى وأنا أنقل عن كتاب مقدس يحترمه كل

اليهود وكل المسيحيين . أأقول إن زواج الأخ من الأخت كان معروفا عند الفراعين ، وأن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بتلك العادة الفرعونية ؟ إنها كانت مقصورة على الملوك للحفاظ على الدم الملكي النبيل ، وما كانت سائدة بين سواد الشعب ، وكان الأخ يتزوج أخته ولا يغتصبها . وإن تعجب فاعجب لقول الذين كتبوا التوراة إن الرجل الذى وسوس لابن داود طريقة استدراج أخته إلى الخطيئة قد وصف بأنه كان رجلا حكيما جدا . أهذه إحدى حكمه يا كتاب التوراة فى المنفى ؟ الحمد لله أننا لم نعرف عنه إلا حكمة واحدة .

وإن قول الأخت لأخيها : « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك » . يثير سؤالا : أكان زواج الأخ من الأخت معترفا به فى البلاط الملكى اليهودى أم أن ذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة فى بابل وكانوا متأثرين بعادات المجوس التى تجيز زواج المحارم ؟ وفى رأيى أن قصة ابن داود مع أخته بنت داود من وضع كتاب التوراة الذين كانوا يرون زواج الأخ من الأخت أمرا مشروعا فى أرض السبى .

واغتصب الأخ أخته واستمرأت الأخت ذلك الاغتصاب ، « ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جدا حتى أن البغضة التى أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التى أحبها إياها . وقال لها أمنون : قومى انطلقى . فقالت له : لأى سبب ؟ هذا الشر بطردك إياى هو أعظم من الآخر الذى عملته بى ، فلم يشأ أن يسمع لها . بل دعا غلامه الذى كان يخدمه وقال له : اطرد هذه عنى خارجا وأقفل الباب وراءها . وكان عليها ثوب ملون لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جُبَّات مثل هذه . فأخرجها خادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها . فجعلت ثامار رمادا على رأسها ومزقت الثوب الملون الذى عليها ووضعت يدها على رأسها وكانت تذهب صارخة ، فقال لها أبشالوم أخوها : هل كان

أمنون أخوك معك ؟ فالآن يا أختى اسكتى ... » .

وعلم الملك داود بما فعل ابنه بابنته فلم يحرك ساكنا ، وقتل أبشالوم أخاه أمنون بما فعل بأخته . فناح داود على أمنون الذى يستحق أكثر من الرجم لو كان هناك ما هو أقسى من الرجم ، وهرب أبشالوم من وجه أبيه ، وكما هى عادة كتاب التوراة أغلقوا قلب داود عن رؤية الصواب وجعلوا امرأة ترشده إلى طريق الحق فعفا عن أبشالوم . وأراد أبشالوم أن يكون قاضيا لإسرائيل فوقف على باب الملك داود يفصل فى قضايا بنى إسرائيل بالعدل فأحبه الشعب . ولما انقضت أربعون سنة طلب أبشالوم من أبيه الملك أن يذهب من أورشليم إلى حبرون لينقطع لعبادة الرب فقبل طلبه ، وما كان أبشالوم الذى صوره الذين كتبوا التوراة فى المنفى لينقطع للعبادة فلا بد من أن يرتكب خيانه ، فالعقول المريضة التى كتبت التوراة لا تعرف الاستقامة : « وأرسل أبشالوم جواسيس فى جميع أسباط إسرائيل قائلا إذا سمعتم البوق فقولوا : قد ملك أبشالوم فى حبرون . وانطلق مع أبشالوم مائتا رجل من أورشليم قد دعوا وذهبوا ببساطة و لم يكونوا يعلمون شيئا ... » .

وعلم داود بمؤامرة أبشالوم ففر هو وعبيده وترك عشر نساء سرارى لحفظ القصر ، وحمل الشعب تابوت الرب وتركوا أورشليم ، ولكن داود أمر صادوق الكاهن أن يعود بتابوت الرب إلى المدينة « وأما داود فصعد فى مصعد جبل الزيتون . كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشى حافيا وجميع الشعب الذين معه غطى كل واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم يبكون » .

ونشبت الحرب بين داود وابنه أبشالوم ، فانتصر داود وقتل أبشالوم ، و جاء الخبر إلى داود : « فانزعج الملك وصعد إلى علية الباب وكان يبكى ويقول هكذا وهو يتمشى : « يا ابنى أبشالوم ! يا ابنى يا ابنى أبشالوم ! يا ليتنى مت عوضا عنك يا أبشالوم ، ابنى ابنى » .

أيمكن أن نصدق أن داود قد جزع مثل ذلك الجزع لموت ابنه الذى شق عصا الطاعة وجعل قلوب إسرائيل شتى ؟ أين هذا الموقف الذى إن دل على شىء فإنما يدل على عدم إيمان بقضاء الله وقدره من موقف محمد — ﷺ — لما مات ابنه إبراهيم ، كان لداود أبناء غير أبشالوم و لم يكن لمحمد — عليه صلوات الله وسلامه — من البنين غير إبراهيم . كان محمد عليه السلام واثقا من أن الأبناء وديعة يستردها صاحبها فى أى وقت يشاء ، وكانت العين تدمع ولا ينطق اللسان بما يغضب الرب . أما الذين كتبوا التوراة بأيديهم فقد كانت الدنيا هى الحياة ولا حياة بعدها فكان الموت فى أعينهم أبشع ما يمكن أن يصيب إنسانا ، فبالموت الذى لا بعث بعده تنقضى الآلام والآمال ، وعلى حسب فهمهم لهذه الحياة جعلوا داود يجزع جزعا لموت ابنه لا يليق بنبى بله بحكيم لا يوحى إليه يفهم حقيقة الوجود وكنه الحياة .

ومنذ عهد داود بدأ كتاب التوراة يفرقون بين إسرائيل واليهودية ، فقد انقسمت المملكة إلى مملكتين : مملكة إسرائيل وهى تناهض داود ، ومملكة يهوذا وهى تؤيد داود لأن داود كان أول ملك من نسل يهوذا .

وقد اضطربت قصة داود فى أيدى الذين كتبوا التوراة اضطرابا محيرا ، فبينا هو ينتزع النساء من أحضان أزواجهن ، وبينا هو يسطو على الأعراض ويبكى ابنه الذى كان ثمرة الزنى ، إذا به يناجى الرب كما يناجيه الصالحون الذين تكاد تنفطر أفئدتهم رهبة من الله : « وكلم داود الرب بكلام هذا النشيد فى اليوم الذى أنقذه فيه الرب من أيدى كل أعدائه ومن يد شاول فقال : الرب صخرتى وحصنى ومنقذى . إنه صخرتى به أحتمى . ترسى وقرن خلاصى . ملجئى ومناصى . مخلصى من الظلم تخلصنى ، أدعو الرب الحميد فأتخلص من أعدائى ، لأن أمواج الموت اكتنفتنى . سيول الهلاك أفزعتنى . جبال الهاوية أحاطت بى . شرك الموت أصابتنى . فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلٰهى

صرخت فسمع من هيكله صوتى وصراخى دخل أذنيه ، فارتجت الأرض وارتعشت . أسس السماوات ارتعدت وارتجت لأنه غضب . صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه . ركب على كروب وطار ورئى على أجنحة الريح ... » .

جسّم الذين كتبوا التوراة فى بابل الإلٰه ووصفوه لكأنما كانوا يصفون مردوخ أو نانا أو شماش أو أيا من آلهة البابليين ، الدخان يصعد من أنفه والكلام ينفذ إليه من أذنيه ، وينزل من السماء والضباب تحت قدميه ، ويركب متن الريح . وما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وإن أعجب ما فى دعاء داود أن الذين افتروا عليه وجعلوه يغتصب بتشبع امرأة أوريا راحوا يرددون عبارات رضا الرب عليه وطهارة اليد وحفظ العهد وإطاعة الله . وإنه لتناقض عجيب بين أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، ولا غرو فما برأت توراتهم من التناقض وما عرفت الأخذ عن ينابيع طهر الرسالات وعصمة الأنبياء . وكيف يغترفون من معين طاهر وهم يسبحون فى بحور الرجس ويضربون فى سبل الضلال ؟!

قال داود فى دعائه : « ... خلصنى لأنه سر بى . يكافئنى الرب حسب برى . حسب طهارة يدى يرد علىّ . لأنى حفظت طرق الرب و لم أعص إلٰهى . لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها . وأكون كاملا لديه وأتحفظ من إثمى . فيرد الله على كبرّى وطهارتى أمام عينيه » .

إن داود يقول إنه لم يعص إلٰهه وهو صادق ، ويقول إنه طاهر وهو صادق ، ويقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم إنه اغتصب امرأة أوريا واغتصب امرأة أخرى قبلها ، وأنه سكت على فعلة ابنه الشنعاء يوم اغتصب أخته وهم كاذبون ، فقد كانوا يصورون حياتهم التى يحيونها فى قصور الملوك فى العراق

ويلصقونها ظلما بأنبياء الله ليوهموا أنفسهم أنهم والأنبياء سواء ، وليخففوا عن اليهود الذين كانوا فى المنفى وطأة العار .

نالت توراة المنفى من جميع الأنبياء بلا استثناء وجعلتهم يرتكبون حماقات يرتفع عنها المتقون من عباد الله . وجاء القرآن المجيد ليعيد إلى أنبياء الله كرامتهم وعصمتهم فقد اصطفاهم علام الغيوب لرسالاته ، وما كان القدير العليم ليصطفى من الناس رسلا يشركون به ويعبدون معه آلهة أخرى أو رسلا يغرقون فى الحرام حتى الآذان . إن الله يقول فى محكم كتابه . « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[1] . فلم يتبع داود عليه السلام الهوى ولكن الذين كتبوا التوراة بأيديهم ضلوا عن سبيل الله .

وبنى داود مذبحا للرب وذبح القرابين ليرش الكهنة الدم إرضاء للرب ، وليحرقوا الذبائح لأن الرب تسره رائحة الشواء ، وهذا كله من زعم الذين كتبوا التوراة ، فداود عليه السلام يعلم أن الله لا ينال دماء الذبائح ولا لحومها ولكن يناله التقوى من عباده ، وليس من المعقول أن يكون الملك الأهناسى المجهول الاسم الذى أوصى ابنه « مريكارع » قبل عهد داود عليه السلام بأكثر من ألف عام أشد معرفة بالله من أنبياء بنى إسرائيل إذ يقول له : « إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولا من ثور الرجل الذى يرتكب الظلم » .

وتستمر أساطير الذين كتبوا التوراة فى إفساد عقول البشر ، فانظروا كيف يجلبون الدفء لداود عليه السلام لما شاخ « وشاخ الملك داود ، تقدم فى الأيام ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ ، فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك

---

(١) سورة ص ٢٦ .

على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع فى حضنك فيدفأ سيدنا الملك . ففتشوا على فتاة جميلة فى جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك ، وكانت الفتاة جميلة جدا فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها » .

هكذا كان استهلال الإصحاح الأول من سفر الملوك ، فالذين كتبوا التوراة يعز عليهم أن يموت داود وقلبه يهوى إلى الرفيق الأعلى ، بل يأبون إلا أن يموت فى أحضان عذراء ، وحاول أدونيا بن داود أن يكون ملكا على إسرائيل ويهوذا ، ولكن بتشبع تدخل على داود وتسجد له وتستطيع بمعاونة ناثان النبى أن تنصب سليمان ملكا فى عهد أبيه ، و لم تذكر التوراة سببا معقولا لتولية سليمان الملك و لم يكن أكبر أبناء داود ، ولكن القرآن الكريم يذكر أن سليمان أوتى من الحكمة ما يؤهله للحكم : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . »[1] .

ونسى الذين كتبوا التوراة الآخرة ويوم الدين ، وتأثروا بالبابليين الذين يقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها ، فلما مات داود لم يقولوا إنه ذهب إلى ربه بل لم يقولوا إنه ذهب ليرقد فى حضن أبيه إبراهيم كما يرقد الصالحون من بنى إسرائيل واليهود ، بل قالوا : « ولما قربت أيام وفاة داود أوصى سليمان ابنه قائلا : أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها ، فتشدد وكن رجلا . احفظ شعائر الرب إلـهك إذ تسير فى طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب فى شريعة موسى لكى تفلح فى كل ما تفعل وحيثما توجهت ... » .

---

(١) الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ .

إن الناس يدعون ربهم خوفا وطمعا بيد أن الذين كتبوا التوراة فى بابل يدعون ربهم — على لسان أنبيائهم — طمعا فحسب ، يطلبون منه أن يطعمهم ويكسوهم وأن يهزم أعداءهم وأن يثبت ملكهم ، فإن فعل عبدوه وإن لم يفعل بخلوا بعبادته وأعرضوا عنه .

وقد طلب أدونيا من بتشبع أن تتوسط له لدى سليمان ليزوجه أبيشج الشونمية التى كانت تدفىء أباه ، فلم يقبل سليمان الطلب وقتل أخاه . وإن زواج الابن من امرأة أبيه كان معروفا فى الجاهلية وكان يطلق عليه زواج المقت وقد حرمه الإسلام . وبطش سليمان بيوآب قائد جيش أبيه وهو متعلق بقرون المذبح فى خيمة الرب .

« وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها ، إلا أن الشعب كانوا يذبحون فى المرتفعات (عادة بابلية) لأنه لم يبن بيت لاسم الرب إلى تلك الأيام . وأحب سليمان الرب سائرا فى فرائض داود أبيه إلا أنه كان يذبح ويوقد فى المرتفعات . وذهب الملك إلى جبعون ليذبح هناك ، لأنها هى المرتفعة العظمى . وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح ، فى جبعون تراءى الرب لسليمان فى حلم ليلا ، وقال الله : اسأل ماذا أعطيك ، فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابنا يجلس على كرسيه كهذا اليوم ، والآن أيها الرب إلـٰهى أنت ملّكت عبدك مكان داود أبى وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول ، وعبدك فى وسط شعبك الذى اخترته شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا ؟ فحسن الكلام فى عينى الرب لأن سليمان سأل هذا

الأمر ، فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر و لم تسأل لنفسك أياما كثيرة ولا سألت لنفسك غنى ولا سألت أنفس أعدائك بل سألت لنفسك تمييزا لتفهم الحكم ، هو ذا قد فعلت حسب كلامك ، هو ذا أعطيتك قلبا حكيما مميزا حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك ، وقد أعطيتك أيضا ما لم تسأله : غنى وكرامة حتى إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك ، فإن سلكت فى طريقى وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك .

فاستيقظ سليمان وإذا هو حلم . وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرب ذبائح سلامة وعمل وليمة لكل عبيده » .

إن أمر الذين كتبوا التوراة بأيديهم يحير أولى الألباب ، فقد جعلوا الرب يقول لسليمان عن أبيه داود : « فإن سلكت فى طريقى وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك » . فهل اغتصاب زوجة قائده الذى زعموه يتفق مع قولهم إن داود سلك طريق الرب كما شهد الله بذلك؟ إنهم افتروا على داود ــ عليه السلام ــ بغير حق وألصقوا به نقائض كانوا يقاسون منها فى المنفى ليخرسوا صوت الضمير ، إن كانت لهم ضمائر تؤنبهم على ارتكاب الفواحش وعصيان الله .

و لم يعد الله سليمان بجنات عرضها السماوات والأرض بل اكتفى بأن وعده بإطالة أيامه على الأرض ، وهذا غاية مراد كتبة التوراة من رب العباد .

وروى كتاب التوراة قصة المرأتين اللتين احتكمتا إلى سليمان فى ولد تدعيه كل منهما لنفسها : « فقال الملك : هذه تقول هذا ابنى الحى وابنك الميت . وتلك تقول : لا بل ابنك الميت وابنى الحى . فقال الملك : ايتونى بسيف . فأتوا بسيف إلى بين يدى الملك . فقال الملك : اشطروا الولد الحى اثنين وأعطوا نصفا للواحدة ونصفا للأخرى . فتكلمت المرأة التى ابنها الحى

إلى الملك ، لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها وقالت : استمع يا سيدى . أعطوها الولد الحى ولا تميتوه ، وأما تلك فقالت : لا يكون لى ولا لك . اشطروه . فأجاب الملك وقال : أعطوها الولد الحى ولا تميتوه فإنها أمه ، ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذى حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم » .

كتاب التوراة فى المنفى قالوا إن الله خاطب سليمان فى الحلم وقالوا إن الله آتى سليمان الحكمة . ترى هل سينجو سليمان من حقدهم على الأنبياء جميعا ومن افتراءاتهم على الأنبياء جميعا دون تفريق ؟ سنقرأ معا ما كتبوه فى سفر الملوك الأول ، فسليمان عندهم ملك فحسب ، يفعل ما يفعله ملوك الساسانيين : « وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر . كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته . وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كُرٍّ سميذ ، وستين كر دقيق ، وعشرين ثيران مسمنة ، وعشرين ثورا من المراعى ، ومائة خروف ، وما عدا الأيائل والظباء واليحامير والأوز المسمن . لأنه كان متسلطا على كل عبر النهر من تفسج إلى غزة على كل ملوك عبر النهر ، وكان له صلح مع جميع جوانبه حوليه ، وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان ، وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مركباته ، واثنا عشر ألف فارس . وهؤلاء الوكلاء كانوا يمتارون للملك سليمان ولكل من تقدم إلى مائدة الملك سليمان كل واحد فى شهره ، لم يكونوا يحتاجون إلى شيء وكانوا يأتون بشعير وتبن للخيل والجياد إلى الموضع الذى يكون فيه كل واحد حسب قضائه .

وأعطى الله سليمان حكمة وفهما كثيرا جدا ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطئ البحر ، وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل

حكمة مصر وكان أحكم من جميع الناس ، من إيثان الأزراحي وهيمان وكلكول ودردع بني ما حول ، وكان صيته فى جميع الأمم حواليه . وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفا وخمسا ، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان إلى الزوفا النابت فى الحائط ، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك . وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته » .

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يأيها الناس عُلّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين . وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »[1] .

إن الله قال لسليمان فى التوراة : « إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك » . وجاء فى القرآن الكريم : « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »[2] .

إن ملك سليمان فى توراة المنفى من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر ، وهى رقعة من الأرض ملكها كثير من الملوك قبل سليمان وبعده . بل

---

(١) النمل ١٥ — ١٩ .   (٢) سورة ص ٣٥ — ٤٠ .

إن عمر بن الخطاب كان يحكم رقعة من الأرض أوسع من تلك الرقعة بكثير ، فإذا كانت الأرض هى المقصودة بملك سليمان فعبارة التوراة تصبح لا معنى لها ، أما القرآن فقد أوضح الملك الذى لا ينبغى لأحد بعد سليمان ، إنه تسخير الريح ومعرفة منطق الطير وتسخير الشياطين ، وهو ملك لا ينبغى لأحد حتى لو ملك العالم .

ويذكر كتاب التوراة فى فخر طعام سليمان فى اليوم ، أنه لا يقل فخامة عن طعام بختنصر أو أخشويرش وهذا هو بيت القصيد من ذكر ذلك الطعام ، فهم يحلمون بملك أكثر من حلمهم بنبوة أو رسالة ، فالملك يوطد سلطانهم فى الأرض وهى دنياهم وأخراهم وجنتهم وجحيمهم ومحور آمالهم وآلامهم ، أما النبوة فتقتصر على التنبؤ بما سيكون وإرشادهم إلى طريق الرب ، وهم ليسوا فى حاجة إلى ذلك الرب ما دام سلطانهم فى الأرض قويا .

كان إلـٰه إسرائيل يعيش فى خيمة وكان يتحرق شوقا إلى أن يبنى له مسكن من خشب الأرز وأن يكون له قصر كقصور الأغنياء ، وقد بث داود هذه الرغبة ، فلما ملك سليمان بدأ فى بناية بيت الرب : « وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكا مكان أبيه ، لأن حيرام كان محبا لداود كل الأيام فأرسل سليمان إلى حيرام يقول : أنت تعلم داود أبى أنه يستطع أن يبنى بيتا لاسم الرب إلـٰهه بسبب الحروب التى أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه ، والآن قد أراحنى الرب إلـٰهى من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر . وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب إلـٰهى كما كلم الرب داود أبى قائلا : إن ابنك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى . والآن فأمُر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ويكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب من الصيدونيين .

فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدا وقال : مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنا حكيما على هذا الشعب الكثير . وأرسل حيرام إلى سليمان قائلا : قد سمعت ما أرسلت به إلىّ أنا أفعل كل مسرتك فى خشب الأرز وخشب السرو . عبيدى ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماثا فى البحر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله ، وأن تعمل مرضاتى بإعطائك طعاما لبيتى ، فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته ، وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كُر حنطة طعاما لبيته وعشرين كر زيت رض . هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فسنة والرب أعطى سليمان حكمة كما كلمه ، وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهدا .

وسخَّر الملك سليمان من جميع إسرائيل وكانت السخرة ثلاثين ألف رجل . فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر بالنوبة . يكونون شهرا فى لبنان وشهرين فى بيوتهم . وكان أدونيرام على التسخير . وكان لسليمان سبعون ألفا يحملون وثمانون ألفا يقطعون فى الجبل . ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل : ثلاثة آلاف وثلاثة مائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل . وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة ؛ حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة ، فنحتها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجبليون وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت » .

يقول كتاب التوراة إن سليمان سخر ثلاثين ألف رجل لبناء هيكل الرب ، والأقرب إلى المنطق — إن كان شعب إسرائيل شعبا متدينا — أن يتطوع المؤمنون لبناء بيت الله التماسا للثواب . وإن قدماء المصريين قد بنوا الأهرام لتكون مثوى للآلهة الفراعين ، وفى رأيى أنهم كانوا يتهللون بالفرح لاشتراكهم فى بناء مقابر الآلهة . إن فكرة السخرة فى بناء بيوت الآلهة فكرة

خاطئة ، فالناس يتطوعون لهذا العمل طمعا فى رضا الرب . ولكن لما كانت فكرة المثوبة قد التوت فى أذهان كتاب التوراة بعد أن نسوا ثواب الآخرة ، فإن أى عمل فى بناء بيت الرب لا يمكن من وجهة نظرهم إلا أن يكون سخرة ، ما دام الأجر الذى يناله العامل فى دنياه هو الأكل والشرب والمأوى ؛ جزاء الإنعام .

ووصف كتاب التوراة أبعاد الهيكل ثم قالوا : « وكان كلام الرب إلى سليمان قائلا : هذا البيت الذى أنت بانيه إن سلكت فى فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فإنى أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أبيك ، وأسكن فى وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبى إسرائيل » .

ما هو مدلول هذا الكلام ؟ هل اصطفاه ربه أو وضعه تحت الاختبار ؟! وهل يمكن أن يكون وحى الله لغير الأنبياء ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الله يحدث الناس حديث بعضهم إلى بعض . إنهم جعلوا داود ملكا يرتكب المعاصى ولا يقام عليه الحد ثم جعلوا الله يحدثه فى ود كأنما قد رضى الله عن معاصيه المفتراة . أقوال متضاربة لا يمكن أن تستقيم مع مكارم الأخلاق ، بله النبوة وعصمة الأنبياء .

ووصف كتاب التوراة الهيكل وصفا دقيقا ، والذى يوقف النظر فى ذلك الوصف أن صحن الهيكل « كان قائما على اثنى عشر ثورا : ثلاثة متوجهة إلى الشمال وثلاثة متوجهة إلى الغرب وثلاثة متوجهة إلى الجنوب وثلاثة متوجهة إلى الشرق » . فما صلة اليهود بالثيران ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بالعجول المجنحة التى كانت تزين مدن آشور ، وقد وصفوا الهيكل بعد أن أشعل بختنصر فيه النيران فاختلط عليهم الأمر ، فوصفوا هيكلا من هياكل الآشوريين أو البابليين وهم يحسبون أنهم يصفون هيكل سليمان . فمن

غير المقبول أن يقيم سليمان بحر هيكله على اثنى عشر ثورا إلا إذا كان بنو إسرائيل ظلوا يعبدون العجل حتى بعد أن غادروا أرض الفراعين .

وفى وصف الهيكل نجد كتاب التوراة يذكرون فى زهو ما فى بيت الرب من ذهب ، فالذهب معبود اليهود الحق فى كل عصر . وإن ادّعوا أن ربهم يهوه أو أى رب آخر يسهر على مصالحهم ثمنا للحوم القرابين التى تحرق له لأن رائحة الشواء تسره أو ثمنا للدماء التى يتعطش لها على الدوام : « وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب فى المذبح من ذهب ، والمائدة التى عليها خبز الوجوه من ذهب ، والمنائر خمسا عن اليمين وخمسا عن اليسار أمام المحراب من ذهب خالص ، والأزهار والسرج والملاقط من ذهب ، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص » .

ويبدأ احتفال نقل تابوت العهد من صهيون مدينة داود إلى الهيكل : « حيث جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رءوس الأسباط رؤساء الآباء من بنى إسرائيل إلى الملك سليمان فى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب فى مدينة داود وهى صهيون . فاجتمع إلى الملك سليمان جميع رجال إسرائيل فى العيد فى شهر أيتانيم ، هو الشهر السابع . وجاء جميع شيوخ إسرائيل وحمل الكهنة التابوت وأصعدوا تابوت الرب وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى فى الخيمة فأصعدها الكهنة واللاويون . والملك سليمان وكل جماعة إسرائيل المجتمعين إليه معه أمام التابوت كانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت فى قدس الأقداس إلى تحت جناحى الكروبين ، لأن الكروبين بسطا أجنحتهما على موضع التابوت ، وظلل الكروبان التابوت وعصيه من فوق ، وجذبوا العصى فتراءت رءوس العصى من القدس أمام المحراب ولم تـرى خارجا ، وهى هناك إلى هذا اليوم . لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان

وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر ، وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب و لم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب .

حينئذ تكلم سليمان . قال الرب إنه يسكن فى الضباب إنى قد بنيت لك بيت سُكنى مكانا لسكناك إلى الأبد .. » .

هذا زعم الذين كتبوا التوراة ، فسليمان الذى أوتى الحكمة لا يمكن أن يتصور أن الله يعيش فى السحاب وأنه بعد أن بنى الهيكل أصبح للرب مسكن يأوى إليه ، فما قدروا الله حق قدره ، ومن هذا الزعم جاء اعتقاد اليهود أن من يعيش فى القدس يعيش مع الله ، وأن الذى يبيت خارج بيت المقدس فهو بعيد عن الله . وهنا يثور سؤال : هل يحاسب الله الذين يعيشون فى بيت المقدس وحدهم فإن أحسنوا أحسن إليهم وإن أساءوا أساء إليهم أو يحاسب الناس كافة ؟ وإن كان يحاسب الناس جميعا فمن أين له العلم بأعمالهم ما دام يعيش فى الهيكل ؟ كان الملك أمل الذين فى المنفى فجعلوا إلٰههم ملكا يعيش فى قصر موشى بالذهب ، وقد أطلقوا على ذلك القصر الهيكل !

إن صورة سليمان فى التوراة مادية بينا صورته فى القرآن روحية وإن منحه الله ملكا لا ينبغى لأحد بعده . لم تطغ أبهة الملك وتسخير الرياح والشياطين له على نقاوة روحه و لم تطفىء نور الله الذى أشرق فى قلبه .

ولما كان التضارب هو سمة الذين كتبوا التوراة فإنهم جعلوا سليمان فى مناجاته لربه يقرر أن السماوات لا تسع الله فبالحرى البيت الذى بناه ، وإنها مناجاة لا تتسق مع ما سبقها من القول بأن الرب يعيش فى السحاب ، وأن سليمان قد بنى الهيكل ليكون مسكنا للرب إلى الأبد ، ولا تتساوق مع ما بعدها من أن سليمان بعد أن كلمه الله وبعد أن بنى لله بيتا قد مال إلى نساء

الأمم وزاغ قلبه عن الإيمان وعبد آلهة الأمم ، ولنقرأ معا دعاء سليمان : « ووقف سليمان أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه إلى السماء وقال : أيها الرب إلـٰه إسرائيل ليس إلـٰه مثلك فى السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم . الذى قد حفظت لعبدك داود أبى ما كلمته به فتكلمت بفمك وأكملت بيدك هكذا اليوم ، والآن أيها الرب إلـٰه إسرائيل احفظ لعبدك داود أبى ما كلمته به قائلا لا يعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسى إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرقهم حتى يسيروا أمامى كما سرت أنت أمامى ، والآن يا إلـٰه إسرائيل فليتحقق كلامك الذى كلمت به عبدك داود أبى ، لأنه هل يسكن الله حقا على الأرض ؟ هو ذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت . فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلـٰهى . واسمع الصراخ والصلاة التى يصليها عبدك أمامك اليوم.. لتكون عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت إن اسمى يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع ، واسمع تضرع عبدك وشعب إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع ، واسمع أنت فى موضع سكناك فى السماء وإذا سمعت فاغفر ، إذا أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حَلفا ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت ، فاسمع أنت فى السماء واعمل واقض بين عبيدك إذ تحكم على المذنب فتجعل طريقه على رأسه ، وتبرر البار إذ تعطيه حسب بره . إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التى أعطيتها لآبائهم » .

الذين كتبوا التوراة بأيديهم جعلوا داود ينتزع النساء من أحضان

أزواجهن ثم عادوا يقولون إن الرب قال لداود : لا يعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسى إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرقهم حتى يسيروا أمامى كما سرت أنت أمامى . فهل الزعم بان داود اعتدى على بتشبع زوجة أوريا وأنها حبلت منه وهى فى عصمة رجل آخر من دلائل السير فى طريق الله ، أم أن السير فى سبيل الله عند الذين كتبوا التوراة هو انتصار داود على أعدائه وذلك يغفر له كل خطاياه المزعومة ؟ وهل ينتظر الرب أن يسير سليمان فى نفس الطريق ليباركه ويبارك خطاياه ؟ فما أقل الطهر فى كل ما كتبه كتاب توراة المنفى .

كان شاغلهم الأكبر تأكيد وعد الله فى كل صفحة من صفحات التوراة ، فجعلوا سليمان يبتهل إلى ربه قائلا : إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطية شعبك وأرجعهم إلى الأرض التى أعطيتها لآبائهم . فهل يعقل أن سليمان ناجى ربه ليرجع شعبا إلى أرض لم يخرجوا منها بعد ؟! إنهم خرجوا بعد عصر سليمان الزاهر ، وما خطر الخروج لهم على قلب وهم فى أوج مجدهم ، ولكنهم عندما وضعوا التوراة وهم فى المنفى كانوا يتحرقون شوقا إلى العودة إلى فلسطين فوضعوا على ألسنة أنبيائهم ابتهالات تفضح التزوير .

خلق الله الإنسان وهو أعلم بما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، لذلك يدعو الناس الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم وفى كل مكان ، ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى قصروا دعاء التوبة على الهيكل : « إذا أغلقت السماء و لم يكن مطر لأنهم أخطأوا إليك ثم صلوا فى هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لأنك ضايقتهم ، فأسمع أنت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك إسرائيل فتعلمهم الطريق الصالح الذى يسلكون

فيه ، وأعط مطرا على أرضك التى أعطيتها لشعبك ميراثا . إذا صار فى الأرض جوع إذا صار وباء إذا صار لفح أو يرقان أو جردا جردم ، أو إذا حاصره عدوه فى أرض مدنه فى كل ضربة وكل مرض . فكل صلاة وكل تضرع تكون من أى إنسان كان من كل شعبك إسرائيل الذين يعرفون كل واحد ضربة قلبه فيبسط يديه نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر واعمل وأعط كل إنسان حسب كل طرقه كما تعرف قلبه ، لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب بنى البشر لكى يخافوك كل الأيام التى يحيون فيها على وجه الأرض التى أعطيت لآبائنا » .

إصرار من الذين كتبوا التوراة على أن السماء سكن الله وعلى أن الهيكل مكان الدعاء الوحيد الذى يستجيب الله فيه للداعين . ﴿ الله لا إلـٰه إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[١] .

ويستمر سليمان فى الابتهال لربه على لسان الذين كتبوا التوراة ، فيقرر أن إسرائيل هم شعب الله وأن على الله أن يغفر لهم خطاياهم ما دام الله قد اصطفاهم لما كلم موسى عليه السلام : « إذا خرج شعبك لمحاربة عدوه فى الطريق الذى ترسلهم فيه وصلُّوا إلى الرب نحو المدينة التى اخترتها والبيت الذى بنيته لاسمك ، فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم إذا أخطأوا إليك ، لأنه ليس إنسان لا يخطىء ، وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم سابوهم إلى أرض العدو بعيدة أو قريبة ، فإذا ردوا إلى قلوبهم فى الأرض التى يسبون إليها ورجعوا وتضرعوا إليك فى أرض سابيهم قائلين قد

---

(١) البقرة ٢٥٥ .

أخطأنا وعوَّجنا وأذنبنا ، ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم فى أرض أعدائهم الذين سبوهم وصلوا إليك نحو أرضهم التى أعطيت لآبائهم نحو المدينة التى أخطرت والبيت الذى بنيت لاسمك ، فاسمع فى السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم ، واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك وجميع ذنوبهم التى أذنبوا بها إليك وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم ، لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر من وسط كور الحديد ، لتكون عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل فتصغى إليهم فى كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثا من جميع شعوب الأرض كما تكلمت عن يد موسى عبدك عند اخراجك آباءنا من مصر يا سيدى الرب » .

أهذه ابتهالات سليمان أم ابتهالات الذين كانوا فى المنفى ؟ من أين جاءت لسليمان فكرة سبى الشعب الإسرائيلى و لم يكن السبى قد وقع بعد ؟ وهل يخطر السبى على قلب رجل دانت له الشعوب من حوله ؟ إنها أمانى الذين كتبوا التوراة فى المنفى وضعوها على لسان سليمان ، إنها دعواتهم التى كانوا يتمنون أن يستجيب الله لها ، وإنها دعواهم العريضة بأنهم ميراث الله وأنهم شعب الله وأن أرض فلسطين قد منحها الله لهم مكافأة على شرورهم وعلى كفرهم وعلى آثامهم التى تندى لها جباه البشرية خجلا ، ولكنه الغرور قاتله الله .

كان سليمان يعلم أن الله رب العالمين وليس رب إسرائيل وحدهم ، وأن الناس كلهم من آدم وأن لا فرق بين بنى إسرائيل وبين الأمم ، ولكن الذين عبدوا أنفسهم غرورا فى المنفى راحوا يعبرون عن خفايا نفوسهم على ألسنة أنبياء الله . وقد تطاولوا فى الافتراء فوضعوا على لسان رب العزة أقوالا لا تتسم بالعدل ولا بالمنطق ولا بمكارم الأخلاق ، سبحان الله عما يصفون وتعالى علوا

كبيرا .

وانتهت صلاة سليمان وتصرمت أيام الاحتفالات : « وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سر أن يعمل ، أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له فى جبعون وقال له الرب : قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرعت به أمامى . قدست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عيناى وقلبى هناك كل الأيام ، وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فإنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك قائلا : لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل » .

أين عقول الذين كتبوا التوراة ؟! يقولون على لسان الرب وهو يخاطب سليمان : وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة . يقولون ذلك دون أن تضطرب الأقلام فى أيديهم بعد أن زعموا أن داود ارتكب معصية الزنا جهارا نهارا ، فهل ما زعموه من أنه اغتصب بتشبع يدل على سلامة القلب والاستقامة ؟ إن كانت عقول الذين كتبوا التوراة قد طاشت فأين عقول الذين قرأوا التوراة منذ زمن السبى إلى الآن ؟ هل أغلقوا عقولهم أم قبلوا تلك المزاعم على أنها شيء مقدس لا يناقش ؟ إن الأخلاق الفاضلة هى الأخلاق الفاضلة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، فلماذا يريد المتحمسون لتوراة المنفى أن نكيل الأخلاق الفاضلة بمكيالين وأن نقيسها بمقياسين ، مقياس البيئة فى أيام أنبياء بنى إسرائيل والعادات والتقاليد فى تلك الأزمنة ، ومقياس البيئة فى زماننا وما ورثناه من أخلاق فاضلة على مر العصور ؟

إن مستوى الأخلاق عند الفرعونى حتى قبل عصر أنبياء قدماء المصريين

كان أرفع من ذلك المستوى الهابط الذى تنضح به توراة المنفى ، فالحقيقة التى لا تحتمل الجدل أن الذين كتبوا التوراة كانوا أذلاء فى بابل وكانوا يلغون فى الخطايا وكانت نساؤهم محظيات للملوك والأغنياء ، فأرادوا أن يعزوا أنفسهم فألصقوا التهم الدنيئة بأنبياء بنى إسرائيل ليصبح الجميع فى الانحلال سواء ..

« إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها ، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلا وهزأة فى جميع الشعوب ، وهذا البيت يكون عبرة ، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون : لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ؟ فيقولون : من أجل أنهم تركوا الرب إلـٰههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر » .

هذا وصف حال الذين حاربهم بختنصر وحملهم من فلسطين إلى العراق بعد عصر سليمان . وقد وضع الذين كتبوا التوراة ذلك الوصف الذى وقع فعلا على لسان إلـٰههم ليوهموا بنى إسرائيل أن ذلك كان وعيد ربهم وليوحوا إليهم العودة إلى طريق الرب ، ليعود إليهم هيكلهم الذى أهانه بختنصر ، وإن تلك العبارات إن أكدت شيئا فإنها تؤكد أن الشعب الذى عبد نفسه غرورا قد عبد آلهة البابليين كما عبد آلهة الفراعين من قبل ، وأنه شعب ليس معصوما وأنه سرعان ما يحيد عن طريق الله ، فلماذا لا تحمر وجوههم خجلا لما يزعمون أنهم شعب الله المختار ؟!

« وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة ، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها ، فأخبرها سليمان بكل

كلامها . لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به . فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد . فقالت للملك : صحيحا كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى ، فهو ذا النصف لم أخبر به . زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعته . طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك . ليكن مباركا الرب إلٰهك الذى سر بك وجعلك على كرسى إسرائيل ، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجزى حُكما وبرا . وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة ، لم يأت بعد ذلك مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان ، وكذا سفن حيرام التى حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة ، فعمل سليمان خشب الصندل درابزينا لبيت الرب وبيت الملك وأعوادا وربابا للمغنين ، لم يأت ولم يُر مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم . وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان ، فانصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبيدها » .

هذه صورة للقاء بين سليمان وملكة سبأ فى التوراة ، وهو لقاء مادى بين ملك وملكة . إنها أخذت بطعام سليمان ومائدته وملابس جنده ولم تر حكمة سليمان أو سلطانه وقد عرف منطق الطير وأعطاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . أما لقاء سليمان وملكة سبأ فى القرآن فإنه لقاء مثير ، يبرز الناحية الروحية ويؤكد سلطان سليمان وحكمته وتسخير الجن وقدرة من عنده علم من الكتاب ، وكلها برهان مبين على أن مُلك سليمان لا ينبغى لأحد من بعده

حتى لو حكم الدنيا بأسرها : « وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينِّى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إلـه إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدوننِ بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل

لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لُجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين »(١) .

سليمان فى القرآن نبى مرسل وفى التوراة ملك أوتى الحكمة وقد حدثه الله وباركه لأنه بنى فى القدس هيكل الرب . وقد ناجى سليمان فى الهيكل ربه مناجاة صادرة من قلب مؤمن ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عز عليهم أن يستمر الرجل الذى أوتى الحكمة عبدا مؤمنا لربه حتى آخر أيامه بل جعلوه يكفر بالله ، و لم يشفع له عندهم أنه الذى بنى بيت الرب ، فهم قد عبدوا آلهة الأمم فى أرض بابل وأشركوا بالله فحق على الأنبياء جميعا أن يشركوا بالله مثلهم . إنهم كانوا يعكسون شرك أفئدتهم على ما كانوا يكتبون : « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ومؤابيات وعمونيات وأشوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل : لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السرارى . فأمالت نساؤه قلبه وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، و لم يكن قلبه كاملا مع الرب إلٰـهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتورت (عشتار) إلٰـهة الصيدونيين وملكوم ربة العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب و لم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابين على الجبل الذى تجاه أورشليم ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إلٰـه إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن

---

(١) النمل ٢٠ ــ ٤٤ .

لا يتبع آلهة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب . فقال الرب لسليمان : من أجل أن ذلك عندك و لم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك . إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها . على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطا واحدا لابنك لأجل داود عبدى ولأجل أورشليم التى اخترتها » .

حتى سليمان الذى بنى هيكل الرب لم ينج من حقد الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فقد زعموا أنه مال إلى آلهة نسائه اللاتى تزوجهن من غير بنى إسرائيل ، وإنه لقول عجيب . فهل يعقل أن يعبد سليمان عشتار إلٰهة اللذة والقسوة بعد أن خاطبه الرب مرتين حسب زعمهم ؟ وهل يعقل أنه بعد أن بنى لله بيتا أن يبنى بيوتا للأصنام فى المرتفعات كما كان يفعل البابليون ؟ ولماذا لم يحاول سليمان أن يهدى أزواجه إلى عبادة إلٰهه وهو الذى ناجى ربه مناجاة حارة لا تصدر إلا عن قلب سليم ؟ وكيف يزعمون أن الرب قال لسليمان إنه لا يمزق مملكته جزاء على شركه به فى أيامه إكراما لأبيه داود وهم الذين زعموا أن داود قد زنى بامرأة أوريا وبامرأة أخرى قبلها ، فهل رب إسرائيل يرضى عن الزنى ويباركه ؟ لقد تضاربت أقوالهم ، قالوا مرة إن الله غضب على ما فعله داود وأنه قد رأى أن ينتقم من داود بأن يسمح للرجال بأن يزنوا فى بيت داود فى عين الشمس ، وحاشا لله أن يرضى عن أن تشيع الفاحشة بين الناس أو أن يجازى الفاحشة بالفاحشة . وقالوا مرات إن الله قد أخر عذابه إكراما لداود الذى عرف طريق الرب ، فهل اغتصاب نساء الآخرين هو السبيل إلى رضا الله ؟!

إن القرآن الكريم قد أخبر أن ملكة سبأ قد أسلمت مع سليمان لله رب

العالمين[١] ، وهو قول يتساوق مع شخصية سليمان الذى أوحى الله إليه أن يبنى له بيتا ، فالمقدمات تتفق مع النتائج ، أما أن يكفر سليمان بعد أن يبنى بيت الله فهو قول لا يسيغه عقل وهو اتهام لله سبحانه وتعالى بالجهل بالغيب . فكيف يصطفى الله رجلا ليبنى بيته وهو يعلم أن ذلك الرجل سينحرف عن طريقه إكراما لزوجاته وسراريه الألف ؟!

إن محمدا — ﷺ — تزوج مشركات ويهودية ونصرانية وقد هداهن جميعا إلى الصراط المستقيم ، فكيف يميل قلب سليمان إلى آلهة نسائه بعد أن عرف قلبه النور ؟ وكيف يكفر سليمان بعد أن أوحى الله إليه ما أوحى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ... »[٢] . « ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب »[٣] .

كتبت التوراة فى المنفى بعد عهد داود وسليمان ، فكان التدوين بعد أن وقعت الأحداث فى إسرائيل وبعد أن حمل بختنصر اليهود إلى العراق ، فأراد الذين كتبوا التوراة أن يكون لكل حدث تاريخى سبب دينى . فإذا كان ملك سليمان قد انتقل من بعده إلى آخرين فلا بد أن يكون سبب ذلك أن سليمان كفر بربه حتى أذهب الملك من بيته إلى أحد عبيده ، فرضا الرب لا يكون فى إسرائيل إلا بالتمكين فى الأرض ، ما دامت جنتهم أرضية .

« وأقام الرب خصما لسليمان هدد الأدومى ، كان من نسل الملك فى أدوم . وحدث لما كان داود فى أدوم عند صعود يوآب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر فى أدوم — لأن يوآب وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة

---

(١) جاء ذلك فى سورة النمل ٤٤ .

(٢) البقرة ١٠٢ .　　　　(٣) سورة ص ٣٠ .

أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى أدوم — أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر وكان هدد غلاما صغيرا . وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر فأعطاه بيتا وعين له طعاما وأعطاه أرضا . فوجد هدد نعمة فى عينى فرعون جدا وزوجه أخت امرأته أخت تحفنبس الملكة . فولدت له أخت تحفنبس حنوبث ابنه ، وفطمته تحفنبس فى وسط بيت فرعون . وكان حنوبث فى بيت فرعون بين بنى فرعون . فسمع هدد فى مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه وبأن يوآب رئيس الجيش قد مات ، فقال هدد أطلقنى فأنطلق إلى أرضى . فقال له فرعون : ماذا أعوزك عندى حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك ؟ فقال : لا شيء وإنما أطلقنى .

وأقام الله له خصما آخر رزون بن اليداع الذى هرب من عند سيده هدد عزر ملك صوبة . فجمع إليه رجالا فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم ، فانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا فى دمشق ، وكان خصما لإسرائيل كل أيام سليمان مع شر هدد ، فكره إسرائيل وملك على أرام .

ويربعام بن ناباط أفرايمى من صردة عبد لسليمان واسم أمه صروعة ، وهى امرأة أرملة رفع يده على الملك ، وهذا هو سبب رفعه يده على الملك : أن سليمان بنى القلعة وسد شقوق مدينة داود أبيه . وكان الرجل يربعام جبار بأس . فلما رأى سليمان الغلام أنه عامل شغلا أقامه على كل أعمال بيت يوسف ، وكان فى ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه أخيًّا الشيلونى النبى فى الطريق وهو لابس رداء جديدا وهما وحدهما فى الحقل ، فقبض أخيًّا على الرداء الجديد الذى عليه ومزقه اثنتى عشرة قطعة . وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل ، هأنذا أفرق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط واحد من أجل

عبدى داود ومن أجل أورشليم المدينة التى اخترتها من كل أسباط إسرائيل ، لأنهم تركونى وسجدوا لعشتورت إلٰهة الصيدونيين وليكموش إله الموآبيين ولملكوم إلٰه بنى عمون ولم يسلكوا فى طرقى ليعملوا المستقيم فى عينى وفرائضى وأحكامى كداود أبيه . ولا آخذ كل المملكة من يده بل أصيره رئيسا كل أيام حياته لأجل داود عبدى الذى اخترته الذى حفظ وصاياى وفرائضى . وآخذ المملكة من يد ابنه وأعطيك إياها أى الأسباط العشرة وأعطى ابنه سبطا واحدا ليكون سراج لداود عبدى كل الأيام أمامى فى أورشليم المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع اسمى فيها . وآخذك تملك حسب كل ما تشتهى نفسك وتكون ملكا على إسرائيل . فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت فى طرقى وفعلت ما هو مستقيم فى عينى وحفظت فرائضى ووصاياى كما فعل داود عبدى ، أكون معك وأبنى لك بيتا آمنا كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل ، وأذل نسل داود من أجل هذا ولكن لا كل الأيام » .

هل نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى ما زعموه من أن داود أغضب الرب واغتصب بتشبع زوجة أوريا الحثى وأن الرب قد هدد داود بأن يُزنى فى أهل بيته فى عين الشمس ؟ وهل كان ما زعموه هو سبيل الله الذى لا يفتأ رب إسرائيل يذكره لداود كلما أراد أن يكافئ بيت داود على استقامة داود ، ام ان أكثر من كاتب كتب التوراة دون أن يطلع على ما كتبه غيره ؟!

أقوال لا تستقيم مع منطق الأحداث ولو صدرت عن قصاص لا نتقد على تخبطه وعلى عدم وضوح تصرف شخوص روايته وتناقض تصرفاتها .

وزعموا أن سليمان كفر فهل يمكن أن يرتد إلى الوثنية ؟! إن الله — فى زعمهم — حدث سليمان مرتين فهل يعقل أن المرء يكفر بعد وحى الله ؟ وهل يعقل أن الله يحدث عبدا من عباده دون اصطفاء ؟!

إن مزاعم الذين كتبوا التوراة فى المنفى تطعن فى علم رب إسرائيل

بالغيب ، فلو كان يعلم الغيب لما اصطفى أناسا لبناء بيته يرتدون عن دينه ويكفرون به ، ولما صب غضبه عليهم بعد إذ هداهم .

دونت أحداث هذا العصر فى المنفى بعد أن مات سليمان وبعد أن انتزع يربعام الملك من رحبعام بن سليمان وبعد أن وقعت وقائع ذلك الزمان ، فجعلوا أخيًا النبى يتنبأ بكل ما وقع بعد أن صبغوه بأفكارهم الحاقدة وما وقر فى أذهانهم من كفر سليمان ، فلولا ذلك الكفر الذى زعموه ما خرج الملك من بيته وما نزعه رب إسرائيل من يد ذريته ، فالمُلك والملك وحده هو آية رضا الرب فى عرف الذين كتبوا توراة المنفى .

« وطلب سليمان قتل يربعام فقام يربعام وهرب إلى مصر إلى شيشنق ملك مصر ، وكان فى مصر إلى وفاة سليمان . وبقية أمور سليمان وكل ما صنع وحكمته أما هى مكتوبة فى سفر أمور سليمان » .

هل الحكمة تقود إلى عبادة عشتار وآلهة الوثنيين بعد أن يشرق فى القلب نور الله ؟ إن كل ما ألصقه كتبة التوراة بسليمان يبعده عن الحكمة ، فمن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . وإن ما نسب إلى سليمان يجعله يحيد عن طريق الخير ويغرق فى الشر حتى أذنيه ، فهل أخطأ كتبة التوراة لما نسبوا إليه الحكمة أو أخطأوا لما زعموا أنه كفر ؟ فالحكمة والكفران بعد إشراق أنوار اليقين فى القلب لا يتفقان .

وذكر كتبة التوراة أن حكمة سليمان مكتوبة فى سفر أمور سليمان ، ولا يوجد فى التوراة سفر بهذا الاسم . فهل كانت التوراة تضم ذلك السفر ثم رفع منها ؟ وإذا كان قد رفع فما سبب رفعه ومن ذا الذى يملك عدم إثباته إن كان ما فى التوراة من وحى الله ؟!

وكل ما ذكره كتاب التوراة أن سليمان قد مات بعد أن حكم أربعين عاما : « وكانت الأيام التى ملك فيها سليمان فى أورشليم على كل إسرائيل

أربعين سنة ، ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن فى مدينة داود أبيه وملك رحبعام ابنه عوضا عنه » . أما موت سليمان فى القرآن فيختلف كل الاختلاف عن موته فى التوراة واضطجاعه مع آبائه : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »[1] .

ولنترك سليمان عليه السلام فى رحاب الله يترقب نزول القرآن الكريم ليبرئه من افتراءات كتاب التوراة الذين كانت أفئدتهم مفعمة بالحقد على الأنبياء جميعا وكان مداد أقلامهم الصديد ، ولا غرو فقد كانوا أسرى فى بابل فكانوا يرسفون فى العبودية والعذاب المهين ، ولنر ماذا كان مصير يربعام الذى وعد الله أن يعطيه عشرة أسباط من أسباط إسرائيل ؟ وهل نجا من مرض قلوب كتاب التوراة؟

« وذهب رحبعام إلى شكيم لأنه جاء إلى شكيم جميع إسرائيل ليملكوه ، ولما سمع يربعام بن نباط وهو فى مصر — لأنه هرب من وجه سليمان الملك وأقام يربعام فى مصر — وأرسلوا فدعوه . أتى يربعام وكل جماعة إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين : إن أباك قسّى نيرنا وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا فنخدُمك . فقال لهم اذهبوا إلى ثلاثة أيام أيضا ثم ارجعوا إلى . فذهب الشعب . فاستشار الملك رحبُعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حى قائلا كيف تشيرون أن أرد جوابا إلى هذا الشعب ؟ فكلموه قائلين : إن صرت اليوم عبدا لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلاما حسنا يكونون لك عبيدا كل الأيام ، فترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ووقفوا أمامه ، وقال لهم : بماذا تشيرون أنتم فنردّ جوابا على هذا الشعب الذين كلمونى

---

(١) سبأ ١٤ .

قائلين : خفف من النير الذى جعله علينا أبوك ؟ فكلمه الأحداث الذين نشأوا معه قائلين : هكذا تقول لهذا الشعب الذين كلموك قائلين إن آباك ثقّل نيرنا وأما أنت فخفف من نيرنا . هكذا تقول لهم : إن خنصرى أغلظ من متنَى أبى . والآن أبى حمّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم . أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب .

فجاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام فى اليوم الثالث كما تكلم الملك قائلا ارجعوا إلىّ فى اليوم الثالث . فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه . وكلمهم حسب مشورة الأحداث قائلا : أبى ثقّل نيركم وأنا أزيدكم على نيركم . أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب . ولم يسمع الملك للشعب لأن السبب كان من قبل الرب ليقيم كلامه الذى تكلم به الرب عن يد أخيًّا الشيلونى إلى يربعام بن نباط . فلما رأى كل إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم رد الشعب جوابا على الملك قائلين : أى قسم لنا فى داود ولا نصيب لنا فى ابن يسى ؟ إلى خيامك يا إسرائيل . الآن انظر إلى بيتك يا داود . وذهب إسرائيل إلى خيامهم . وأما بنو إسرائيل الساكنون فى مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ، ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذى على التسخير فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات . فبادر الملك رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم . فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع إسرائيل ، ولم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده » .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين مملكة إسرائيل وعليها يربعام الذى اختاره الله حسب زعم كتبة التوراة ، ومملكة يهوذا ، وكانت مملكة إسرائيل تضمر العداوة لبيت داود حتى عصر التدوين ، وقد كانت كراهية إسرائيل لبيت داود هى الباعث على الافتراءات التى ألصقها كتاب التوراة بداود وسليمان ،

فالدافع إلى تلويث داود وسليمان دافع سياسى ، وإن ذلك الانقسام الذى حدث فى إسرائيل هو آية الاضطراب الذى تموج به توراة المنفى ، فالإسرائيلى الذى كان يشترك فى كتابة التوراة فى بابل كان ينفث حقده على بيت داود ، بينا اليهودى يسكب عواطف الحب على كتاباته ، فجاءت شخصية داود مضطربة كل الاضطراب . ففى بعض الإصحاحات نجد داود زانيا يغتصب النساء من أحضان أزواجهن ، وفى إصحاحات أُخر نجده رجل الرب الذى يحمد له الله أنه يسير فى طريق الرب والرشاد . وكان سليمان عجيبا غريبا فهو يبنى الهيكل للرب إلـه إسرائيل ، ثم يرتد بعد أن أوحى إليه ليعبد الأوثان والأصنام ! صفات متضاربة لا يمكن أن تتصف بها نفس مطمئنة اتصلت بالله أو عرفت نور السماوات والأرض .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين وبدأت بينهما الحروب : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ؛ فسبط يهوذا حارب باقى الأسباط ليمكن لابن سليمان فى الأرض : « ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين مائة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة لرحبعام ابن سليمان ، وكان كلام الله إلى شمعيا رجل الله قائلا : كلِّم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلا : هكذا قال الرب : لا تصعدوا ولا تحاربوا إخوتكم بنى إسرائيل ، ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر . فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب » .

زعم الذين كتبوا التوراة أن الرب أمر اليهود بعدم محاربة إسرائيل لأُنه اختار يربعام لحكم إسرائيل فما دام الله يعلم الغيب فلا شك فى أنه اختار الرجل الصالح الذى يعرف طريقه وسيقود إسرائيل إلى الصراط المستقيم . ولكن يربعام لم ينج من لعنة كتبة التوراة ، جعلوه — بعد أن اختاره الله — يعبد

الأصنام ، وإن هذا الأمر ليحير قارئ التوراة فما يدرى حكمة تكفير كل من اختاره الله ليحكم إسرائيل . أيريد هؤلاء الأحبار أن يؤكدوا أن رب إسرائيل لا يعلم الغيب ، أم يريدون أن يقولوا إنهم وقد عبدوا الأصنام فى المنفى وأنبياء بنى إسرائيل وأصفياء الله سواء بسواء !

« وبنى يربعام شكيم فى جبل أفريم وسكن بها ، ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل . وقال يربعام فى قلبه : الآن ترجع المملكة إلى بيت داود . إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح فى بيت أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلونى ويرجعوا إلى رحبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عِجْلَى ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم . هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحدا فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان . وكان هذا الأمر خطية ، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان . وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بنى لاوى ، وعمل يربعام فى الشهر الثامن فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهوذا وأصعد على المذبح . هكذا فعل فى بيت إيل بذبحه للعجلين اللذين عملهما ، وأوقف فى بيت إيل كهنة المرتفعات التى عملها ، وأصعد على المذبح الذى عمل فى بيت إيل فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن الذى ابتدعه من قلبه فعمل عيدا لبنى إسرائيل وصعد على المذبح ليوقد » .

مسكين أنت يا يربعام ، فرق الرب ملك سليمان وأعطاك عشرة أسباط وترك لابن سليمان سبط يهوذا وسبط بنيامين . وقد أخبرك نبى الله بإرادة الرب ثم تخشى بعد ذلك أن يعود الملك إلى بيت داود فتكفر بالرب وتعبد الأصنام . هكذا أراد لك الذين كتبوا التوراة فى المنفى فقلوبهم تخفق بالحقد على كل الناس ، لم ينج من مرض أفئدتهم نبى أوحى إليه أو ملك اختاره الرب

وطعنوا إيمان كل الناس لأن إيمانهم تزعزع فى قصور ملوك بابل وإيران ، واضطربت فى أيديهم الموازين فبخسوا كل أعمال الصالحين . وعجزوا عن أن يذوقوا حلاوة الإيمان ما دامت سرائرهم قد فاضت بالمرارة والحقد على أنبياء إسرائيل ورب إسرائيل الذين لم يمنعوا كارثة السبى » .

لم تكن وحدك الذى تنكب طريق الله فى التوراة ، لقد حاد عنه من سبقوك من أنبياء وملوك اختارهم الله لبنى إسرائيل وسيحيد عنه أنبياء وملوك بعدك ، فالسلوك ليس سلوك الأنبياء والملوك ولكنه مرض قلوب الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى .

ولنر الآن ما هو مآل رجل الرب الذى جاء ليعنف يربعام على شركه وحرق المحرقات لغير الله : « وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت إيل ويربعام واقف لدى المذبح لكى يوقد . فنادى نحو المذبح بكلام الرب وقال : يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب : هو ذا سيولد فى بيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتحرق عليك عظام الناس . وأعطى فى ذلك اليوم علامة قائلا : هذه هى العلامة التى تكلم بها الرب ، هو ذا المذبح ينشق ويذرى الرماد الذى عليه . فلما سمع الملك كلام رجل الله الذى نادى نحو المذبح فى بيت إيل مد يربعام يده عن المذبح قائلا : أمسكوه . فيبست يده التى مدها نحوه و لم يستطع أن يردها إليه . وانشق المذبح وذرى الرماد من على المذبح حسب العلامة التى أعطاها رجل الله بكلام الرب . فأجاب الملك وقال لرجل الله : تضرع إلى وجه الرب إلٰهك وصل من أجلى فترجع يدى إلىّ . فتضرع رجل الله إلى وجه الرب فرجعت يد الملك إليه وكانت كما فى الأول . ثم قال الملك لرجل الله : ادخل معى إلى البيت وتقوت فأعطيك أجرة . فقال رجل الله للملك : لو أعطيتنى نصف بيتك لا أدخل معك ولا اكل خبزا ولا أشرب ماء فى هذا الموضع ، لأنى هكذا

أوصيت بكلام الرب قائلا : لا تأكل خبزا ولا تشرب ماء ولا ترجع فى الطريق الذى ذهبت فيه . فذهب فى طريق آخر و لم يرجع فى الطريق الذى جاء فيه إلى بيت إيل .

وكان نبى شيخ ساكنا فى بيت إيل ، فأتى بنوه وقصوا عليه كل العمل الذى عمله رجل الله ذلك اليوم فى بيت إيل وقصوا على أبيهم الكلام الذى تكلم به إلى الملك ، فقال لهم أبوهم : من أى طريق ذهب ؟ وكان بنوه قد رأوا الطريق الذى سار فيه رجل الله الذى جاء من يهوذا . فقال لبنيه : شدوا لى على الحمار . فشدوا له على الحمار فركب عليه وسار وراء رجل الله فوجده جالسا تحت البلوطة فقال له : أنت رجل الله الذى جاء من يهوذا ؟ فقال : أنا هو . فقال له : سر معى إلى البيت وكل خبزا . فقال : لا أقدر أن أرجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزا ولا أشرب معك ماء فى هذا الموضع ، لأنه قيل لى بكلام الرب : لا تأكل خبزا ولا تشرب هناك ماء ولا ترجع سائرا فى الطريق الذى ذهبت فيه.فقال له : أنا أيضا نبى مثلك وقد كلمنى ملاك الرب قائلا : ارجع به معك إلى بيتك فيأكل خبزا ويشرب ماء . كذب عليه فرجع معه وأكل خبزا فى بيته وشرب ماء » .

أسلوب فى التفكير لا يتغير ، نبى يكذب على رجل الله ويمكر به حتى يقع فى الخطيئة . لماذا كذب النبى ؟ وما حكمة كذبه إن كان للكذب حكمة ؟ وإذا كان النبى يكذب فمن ذا الذى لا يكذب؟ وما هى الحكمة الأخلاقية التى يريد كتاب التوراة فى المنفى أن يسوقوها للمؤمنين بتوراتهم ؟ ولماذا مكر النبى برجل الله ، وما هو ثواب هذا العمل الدنىء ؟ رجل الله نفذ وصية الله — على فرض أن ذلك قد حدث — فلماذا يخرج النبى الشيخ فى أثره ليخدعه ويزعم له أنه أوحى إليه وأن الله يأمره بأن يدخل معه ويأكل ويشرب فى الموضع الذى نهى عن الأكل والشرب فيه ؟

حكايات تنضح بخبث نفوس الذين كتبوها ، وحاشا لله أن يرسل أنبياء يكذبون على الناس ويكذبون على الله ويمكرون بالناس ليوقعوهم فى الخطايا عامدين . ومادية طاغية نسبوها إلى الرب ، فأى إلٰه هذا الذى لا يهتم إلا بالأكل والشرب وينهى عن الأكل والشرب فى مكان ما ولا ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؟ إلٰه تشوى له لحوم الذبائح ويناله الدماء ولا يهتم بتقوى عباده !

تفكير أفسده ذل الأسر وعادات البابليين الذين عاش كتاب التوراة فى وسطهم وتأثروا بدياناتهم . مادية طغت على الروح بعد أن نسى كتاب التوراة اليوم الآخر وآمنوا بأن ثواب أعمالهم فى إطالة أعمارهم على الأرض ورغد العيش ، وأسلوب واحد فى التفكير لا هم له إلا تعقب الصالحين لتمريغهم فى نفس الوحل الذى كانوا فيه يتمرغون .

كذب نبى الله على رجل الله و لم ينقطع الوحى عنه جزاء وفاقا على ذلك الكذب بل استمر الرب يوحى إليه ، كأنما كان الرب راضيا عن ذلك الكذب ، ومن الغريب أن الرب أنزل غضبه على رجل الله المخدوع و لم ينزل غضبه على الكاذب الخادع : « وبينما هما جالسان على المائدة كان كلام الرب إلى النبى الذى أرجعه . فصاح إلى رجل الله الذى جاء من يهوذا قائلا : هكذا قال الرب : من أجل أنك خالفت قول الرب و لم تحفظ الوصية التى أوصاك بها الرب إلٰهك ، فرجعت وأكلت خبزا وشربت ماء فى الموضع الذى قال لا تأكل فيه خبزا ولا تشرب ماء ولا تدخل جثتك قبر آبائك . ثم بعد ما أكل خبزا وبعد أن شرب شد له على الحمار — أى للنبى الذى أرجعه — وانطلق . فصادفه أسد فى الطريق وقتله وكانت جثته مطروحة فى الطريق والحمار واقف بجانب والأسد واقف بجانب الجثة ، وإذا بقوم يعبرون فرأوا الجثة مطروحة فى الطريق والأسد واقف بجانب الجثة ، فأتوا وأخبروا فى المدينة التى كان النبى

الشيخ ساكنا بها . ولما سمع النبي الذى أرجعه عن الطريق قال : هو رجل الله الذى خالف قول الرب ، فدفعه الرب للأسد فافترسه وقتله حسب كلام الرب الذى كلمه به ، وكلم بنيه قائلا : شدوا لى على الحمار ، فشدوا ، فذهب ووجد جثة مطروحة فى الطريق والحمار والأسد واقفين بجانب الجثة ولم يأكل الأسد الجثة ولا افترس الحمار . فرفع النبى جثة رجل الله ووضعها على الحمار ، ورجع بها ودخل النبى الشيخ المدينة ليندبه ويدفنه ، فوضع جثته فى قبره وناحوا عليه قائلين : آه يا أخى . وبعد دفنه إياه كلم بنيه قائلا : عند وفاتى ادفنونى فى القبر الذى دفن فيه رجل الله بجانب عظامه ضعوا عظامى ، لأنه تماما سيتم الكلام الذى نادى به بكلام الرب نحو المذبح الذى فى بيت إيل ونحو جميع بيوت المرتفعات التى فى مدن السامرة ، بعد هذا الأمر لم يرجع يربعام عن طريق الردية بل عاد فعمل من أطراف الشعب كهنة مرتفعات من شاء ملأ يده فصار من كهنة المرتفعات ، وكان من هذا الأمر خطية لبيت يربعام وكان لإبادته وخرابه عن وجه الأرض » .

كان السيد المسيح يقول : احذروا الأنبياء الكذبة . وما أكثر الأنبياء الكذبة فى توراة المنفى ! وكان بنو إسرائيل ومن بعدهم اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وإن قارئ التوراة لا يجد فيهم صفة واحدة تؤهلهم لذلك الاختيار ، فما أن يصطفى رب إسرائيل نبيا حتى يرتد ذلك النبى عن طريق الله ويعبد آلهة المرتفعات ، وما من نبى مرت أيامه بسلام وهو متفرح فى الله وبالله . إنهم جميعا تنكبوا الصراط المستقيم ـــ أو بمعنى أصح هكذا صورتهم عقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم ـــ فإذا كانت هذه التوراة التى بين أيدينا هى قياس مقدار تقوى أنبياء إسرائيل وشعب إسرائيل واليهودية ، فما أقل نصيب هذا الشعب من طهارة النفوس ـــ وإن اهتموا بطهارة الملابس والأبدان وقشور الطهارة وماديتها ، وما أقل استحقاق هذا الشعب لما زعم من أنه شعب الله ولكنه

الغرور الذى دفعهم إلى أن يعبدوا أنفسهم وأن يحسبوا أنهم وحدهم الناس :
« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير »[١] . « قل يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون »[٢] .

ولنستمر فى قراءة سفر الملوك الأول : « فى ذلك الزمن مرض أبيًّا بن يربعام ، فقال يربعام لامرأته : قومى غيرى شكلك حتى لا يعلموا أنك امرأة يربعام واذهبى إلى شيلوه ، هو ذا هناك أخيًّا النبى الذى قال عنى إنى أملك على هذا الشعب ، وخذى بيدك عشرة أرغفة وكعكا وجرة عسل وسيرى إليه وهو يخبرك ماذا يكون للغلام » . إنه نبى يهودى لا يتنبأ إلا إذا أخذ أجر تنبؤه ، وما أيسره من أجر يقدمه ملك : عشرة أرغفة وكعك وجرة عسل . « ففعلت امرأة يربعام هكذا وقامت وذهبت إلى شيلوه ودخلت بيت أخيا ، وكان أخيا لا يقدر أن يبصر لأنه قد غامت عيناه بسبب شيخوخته . وقال الرب لأخيا : هو ذا امرأة يربعام آتية لتسأل منك شيئا من جهة ابنها لأنه مريض فقل لها كذا وكذا ، فإنها عند دخولها تتنكر . فلما سمع أخيا جس رجليها وهى داخلة فى الباب قال : ادخلى يا امرأة يربعام ، لماذا تتنكرين وأنا مرسل إليك بقول قاس ؟ اذهبى قولى ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل ، من أجل أنى قد رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيسا على شعبى إسرائيل وشققت المملكة من بيت

---

(١) المائدة ١٨ .

(٢) المائدة ٧٧ — ٨٠ .

داود وأعطيتك إياها و لم تكن كعبدى داود الذى حفظ وصاياى والذى سار ورائى بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط فى عينى ، وقد ساء عملك أكثر من جميع الذين كانوا قبلك فسرت وعملت لنفسك آلهة أخرى ومسبوكات لتغيظنى وقد طرحتنى وراء ظهرك ، لذلك هأنذا جالب شرا على بيت يربعام وأقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزا ومطلقا فى إسرائيل ، وأنزع آخر بيت يربعام كما ينزع البعر حتى يفنى ، من مات ليربعام فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء لأن الرب تكلم . وأنت فقومى وانطلقى إلى بيتك وعند دخول رجلك المدينة يموت الولد ، ويندبه جميع إسرائيل ويدفنونه ... » .

لا تؤاخذوهم عندما يذكرون استقامة داود فقد نسوا الإفك الذى نسبوه إليه أو لعلهم لا يرون فى اغتصاب بتشبع امرأة أوريا الحثى عملا يغضب رب إسرائيل ونساؤهم تغتصب كل ليلة فى بلاط الملوك وقصور الأشراف وبيوت من يملكون الذهب المعبود .

كفر يربعام الذى اختاره رب إسرائيل ليكون ملكا على شعبه إسرائيل ، و لم يكن أحسن حالا من سليمان الذى زعموا أنه كفر — وما كفر سليمان — ففيم كان تمزيق المملكة وتنصيب يربعام على إسرائيل — على عشرة أسباط من بنى إسرائيل — ما دام الكفر هو غاية الجميع ؟! كفر يربعام ملك إسرائيل فماذا كان حال رحبعام بن سليمان ملك اليهودية ؟ : « أما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا ، وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك ، وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل ، واسم أمه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أخطأوا بها ، وبنوا هم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل مرتفع وتحت كل شجرة

خضراء ، وكان أيضا مأبونون فى الأرض . فعلوا كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل » .

كفر يربعام وأشرك بالله فكفرت إسرائيل ، وكفر رحبعام فكفرت اليهودية وصارت إسرائيل بمملكتيها أمة كافرة تعبد الأصنام ، وانتشر فيها الفساد وكثر فيها المأبونون وصاروا كقوم لوط ، وبعد كل ذلك يزعمون أن الله فضلهم على العالمين وأنه اصطفاهم دون الناس : « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[١] .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أفسدوا عقول كثير من الذين آمنوا بتوراتهم ، وإن المؤرخين لا يؤمنون إلا بما هو مكتوب أو محفور قد أخذوا هذه التوراة وحللوها على أنها دليل تطور العبرانيين من الشرك إلى الوحدانية ، ولم يخطر لهم أن الوحدانية كانت دين إبراهيم خليل الرحمن قبل العبرانيين ثم انتقلت إلى بنى إسرائيل واليهود ، فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ارتدوا إلى الوثنية فى عصر تدوين توراة المنفى وإن حسبوا أنهم يعيشون فى عصر انتفاضة دينية .

ومن الذين استقرءوا توراة المنفى عند دراسته للتطور الخلقى عند الشعوب جيمس هنرى برستد فى كتابه « فجر الضمير » ، ففى الفصل السابع عشر من كتابه يتحدث عن مصادر إرثنا الخلقى ، فبعد أن يسهب فى فضل مصر القديمة فى ظهور المبادئ الخلقية ويتحدث عن أثر المدنية البابلية ويخرج بنتيجة أن الفلسطينيين لم يأخذوا عن البابليين شيئا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية ، وأن العبرانيين قد اتصلوا خلال أسرهم فى الشرق — وهم فى مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الدينى — اتصالا وثيقا بالمدنية الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة (زروستر) زرادشت .

---

(١) آل عمران ٨٧ .

إن برستد يسير على نظرية علماء المقارنة بين الأديان القائلة بأن الإنسان يرتقى فى الديانات كما يرتقى فى الصناعات ، فيبدأ بالشرك ثم يرتقى إلى الوحدانية ، وهذه النظرية تخالف النظرية الدينية الإسلامية التى تقول إن الإنسان كان على علم ما دام الله قد خلق آدم وعلمه الأسماء كلها ، ثم يطول على الناس العهد فتقسو قلوبهم فتغمر الأساطير الوحدانية فيشرك الناس بربهم فيبعث الله رسولا يرد الناس إلى الإسلام دين الوحدانية فلما يطول على الناس الأمد تقسو قلوبهم فيرتدون إلى الوثنية فيبعث الله رسولا ليعيدهم إلى جادة الصواب ، أى أن الوحدانية هى الأساس ثم الشرك فالوحدانية ثم الشرك فالوحدانية وهذه النظرية يؤيدها الواقع التاريخى لتطور البشرية .

ويروى برستد أن العبرانيين كانوا أيام يعقوب شعبا متبربرا ، وأن موسى المصرى هو أول زعيم قوى خلص العبرانيين من نير ظلم الفراعين وأنه ليس بنبى مرسل ، وقد يكون معذورا ما دام يعتمد على توراة المنفى فى استقاء معلوماته ؛ أما القرآن الكريم فلا يتفق مع الآراء التى خلص إليها برستد ، فالقرآن يقرر أن يعقوب كان يؤمن بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ، وأن موسى كان نبيا مرسلا يدعو إلى الله وحده ، وأن توراة المنفى إنما هى ردة وأن اليهود كتبوها بأيديهم بعد أن حرق بختنصر توراة الله وأبادها . يقول برستد : « ... وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد ، فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد » .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين ، كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد فى فلسطين الكنعانية ، وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر

البابليين فى الفن والأدب والدين إلى العبرانيين ، يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقى قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م . ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا فى فتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق . م . بقيت فلسطين مستعمرة فى أيديهم أكثر من أربعة قرون . والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية فى القرون التى احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية ، وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التى أنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية بمرورها فى تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . الواقع الذى لا شك فيه أن اللغة التى وجدها العبرانيون والفاتحون هى اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم وهى التى انحدرت إلينا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة ، ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى .

وبتلخيصنا لموقف فلسطين من نواحيه المختلفة ، نرى أن تلك البلاد من الوجهة الجغرافية تقع على جسر طبيعى ضيق بين البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء الغربية من جهة أخرى ، وهو جسر يقع بين قارتين طالما اتخذ طريقا عاما لربط إفريقية بآسيا منذ عهد ما قبل التاريخ .

أما من الوجهة السياسية فإن فلسطين كانت قديما كما هى الآن كرة

قدم دولية .

أما من الناحية الثقافية فإنها كما أوضحنا الآن كانت داخلة ضمن الإقليم التجارى الذى طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه ، كما كانت فى الوقت نفسه تقع مباشرة فى ظل صرح المدنية المصرية العظيمة . فالقوم الذين استقروا فى أرض فلسطين لم يجدوا أنفسهم فى وسط حضارة قديمة تكونت بالإقليم نفسه ومصبوغة إلى حد كبير بالصبغة المصرية القديمة فحسب ، بل كانوا يطلُّون أيضا على مدنيات أعرض منها بكثير على كلا الجانبين فى آسيا وأفريقية ، فمن هذه البيئة الدولية البعيدة الأثر بالشرق الأدنى الذى كان يضم فلسطين بين جوانحه نشأت تلك الأفكار الخلقية التى غذّت العالم الغربى فى النهاية بالآراء الخلقية السائدة فيه الآن ؛ إذ وصلت إلينا عن طريق بقايا الأدب العبرانى وهو الذى كانت محتوياته الخلقية كما أسلفنا بعيدة كل البعد عن أن تكون من أصل عبرانى محض .

ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقى العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو فى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن هذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق . م . ، ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير . وعلى أثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الجزأين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء ، فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبا ، وأما الجزء الآخر فإنه بعد أن مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها فى حياة قلقة شبه مستقلة تداولته فيها أيدى ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق . م . بزمن قليل ، بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القومية المستقلة — أو حياة جزء منهم — التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م .

ـــ قد مكثت حوالى أربعة قرون وربع قرن وختمت فى باكورة القرن السادس قبل الميلاد . أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القومية قد وقع بأكمله تقريبا فى النصف الأول من الألف السنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحى ، وفى تلك الفترة كان تقدم الثقافة فى مصر وفى بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من أخبار التاريخ القديم .

وإنه لمن المستحيل علينا طبعا أن نضمِّن هذا الكتاب المحدود الحجم التاريخ الدينى والخلقى للعبرانيين القدامى حتى ولو بطريق التلخيص . على أن مهمتنا فى هذا الكتاب تضطرنا إلى الكشف عن العوامل الأجنبية الهامة التى عملت فى التطور الخلقى عندهم . ولكى نتمكن من القيام بذلك يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا بعض الحقائق البارزة فى التاريخ العبرانى . إذا كنا نريد حقا معرفة العناصر الأجنبية فى التطور الخلقى العبرانى .

كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تـــل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م . بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أدب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الجنود المرتزقة ، ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا منذ قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى « طيبة » (الأقصر) « مرنبتاح » بن « رعمسيس الثانى » قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة ، فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » .

وقد كان هذا الحادث فى عهد القضاة وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام

القومى ؛ فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة التى قضوها فى الرعى وتلمس الكلأ على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل ببعض التقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإلـٰه القبيلة . وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذى كان فى ظنهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير الماء ، على غرار جنّى الليل المعتم الذى صارعه يعقوب (عليه السلام) عند غدير «جابوك » حتى أجبره على الفرار فزعا قبل انبثاق الفجر .

ومثل هذا الجنّى المحلى كان يطلق عليه فى الصحراء الواقعة جنوبى « يهوده » اسم « إيل » ، وهذا اللفظ ليس اسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التى كانت تطلق على أى إلـٰه محلى . وقد انحدر إلينا فى اسم « إسرائيل » وهو الاسم الذى أطلقه على « يعقوب » الكائن الذى صارعه . وقد بقى لنا كذلك فى طائفة من الأسماء مثل « ميخائيل » ومعناه الذى يشبه الإلـٰه . « وفى الأنحاء الشمالية من كنعان » كانت الآلهة المحلية عند الكنعانيين تسمى « بعولا » أو « أربابا » .

يقول برستد إن يعقوب صارع جنى الليل عند غدير « جابوك » وأن ذلك الجنى يطلق عليه اسم « إيل » ، وبرستد معذور فهو لم يستطع أن يتصور أن إنسانا يصارع إلـٰها فى كتاب مقدس ، وإن كانت الأساطير البابلية تفيض بمثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر ، فالإيل هو الله وكان الصراع بين الله وبين يعقوب فى توراة المنفى المتأثرة بأساطير البابليين وكان النصر ليعقوب .

كان برستد يقرأ التوراة التى بين يديه دون أن يخطر له على قلب أنها كتبت على أنقاض توراة الله التى اندثرت يوم غزا بختنصر إسرائيل ، وكان مستريحا إلى النتائج التى خلص إليها لأنها تتفق مع مبادئ علماء المقارنة بين الأديان وإن

اختلفت مع السنن الدينية التى قامت عليها كل الأديان ، وهى المعرفة فطول العهد فالردة إلى الوثنية فإرسال رسول ينفض عن الحقيقة ركام الأساطير ، حتى إذا ما أشرقت الحقيقة وطال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادت الأساطير لتطمر الحقيقة فردة إلى الوثنية فإرسال رسول من لدن رب العالمين لتبدأ الدورة الدينية ، حتى كان الإسلام وكان وعد الله بحفظ الذكر الحكيم .

ولنعد إلى ما كتبه برستد فى كتابه فجر الضمير : « ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد استعبدوا بعد لجوئهم إلى مصر فى زمن قحط حدث عندهم ، وقد قام من بينهم عبرانى امتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البارعة ، ونصب نفسه عليهم وخلصهم من العبودية ، وبذلك صار يعد أول قائد عبرانى عظيم وصل إلينا اسمه .

ومن المهم أن نلاحظ أن موسى — وهو اسم ذلك القائد — كان اسما مصريا ، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة « مُس » ومعناها « طفل » وهى مختصرة من اسم مركب كامل كالأسماء « أمن مس » ومعناها « آمون طفل » أو « بتاح مس » ومعناها « بتاح طفل » وهذه الأسماء المركبة نفسها هى الأخرى مختصرات للتركيب الكامل « آمون أعطى طفلا » أو « بتاح أعطى طفلا » . وقد لقى اختصار الاسم إلى كلمة « طفل » قبولا منذ زمن مبكر ، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل .

على أن الاسم « مس » (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة . ولا شك فى أن والد « موسى » كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل « آمون » أو « بتاح » ، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجيا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى « موسى » .

هذا هو رأى برستد فى تسمية موسى (عليه السلام) ، وهناك آراء أخرى تخالف هذا الرأى ، فقد قيل إن مو معناها ماء وشا معناها شجر ، ولما كان

الطفل قد وجد فى الماء بين الشجر فقد أطلق عليه موشى ، وعلى أى حال فقد صار موسى فى الإسلام رسولا من ذوى العزم . ويقول برستد : « على أن ما أظهره « موسى » من الحذق فى القيادة مع الشجاعة والمهارة فى تخليص شعبه من العبودية الأجنبية ، وكذلك حادثة التخليص نفسها التى صاحبتها بعض الكوارث الطبيعية التى قضت على الجيش المصرى المقتفى لآثار « موسى » ومن تبعه — كل ذلك لقى مكانة لا تمحى فى المعتقدات العبرانية ، وجعل للعبرانيين إرثا أصليا من الفخار كان هو أقدم الأسباب التى ألفت بينهم وجعلت منهم أمة واحدة » .

توراة المنفى لا توحى بأكثر مما استخلصه برستد منها ، فموسى فيها لا يزيد على قائد عبرانى خلص قومه من ذل العبودية ، فقد عجزت تلك التوراة على أن تصور حياة موسى الروحية . ولولا القرآن الكريم الذى وضح رسالة موسى وصلته الطيبة برب الكون لما كان موسى أكثر من زعيم من بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن برستد يستعمل كلمة « عبرانى » عوضا عن كلمة بنى إسرائيل واليهود ، فهو لا يريد أن يدخل فى تحديد الفرق بين بنى إسرائيل واليهود ، وإن لفظة « عبرانى » لا تدل دلالة أكيدة علمية صحيحة على بنى إسرائيل واليهود ، فقد استعملت لكل من عبر النهر من العراق إلى الشام قبل عبور إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام من بنى إسرائيل ولا يهوديا فهو أبو إسماعيل وإسحاق ، أبو العرب وبنى إسرائيل جميعا ، وما اليهود إلا سبط من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

ويقول برستد : « وفى خلال مرحلة مبكرة من مراحل تلك الأحداث تخلف « موسى » فى الصحراء جنوبى فلسطين عند قبيلة من القبائل البدوية التى تعرف بأهل « مدين » ، وكان مكثه هناك كثيرا وبخاصة مع أحد خدامهم المقدسين الذى يدعى شعيب Jethro حتى إنه عرف عنه شيئا عن

إلٰههم المحلى « يهوه »[1] .

وهذا الإقليم الممتد من « سيناء » شمالا ، وبخاصة على طول الأخدود العظيم الذى نتج فيه « البحر الميت » ووادى نهر الأردن ، تتوافر فيه البيئـات الجيولوجية الدالة على وقوع ثوران بركانى حديث نوعا . ولا شك فى أن الرواية العبرانية التى ذكرت فى سفر التكوين (١٩ : ٢٣ — ٢٨) عن تخريب « سدوم » و « عمورة » ، وهما مدينتان كانتا فى تلك البقعة بالنار والكبريت » من السماء ، ليست إلا إشارة مبهمة عن حدوث انفجار بركانى لم تنس ذكراه القبائل المحلية فى العهد العبرانى المبكر .

وقد صحب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم ، لا شك فى أنها ذات صبغة بركانية ، فالمظهر الغريب الذى ظهر به « يهوه » فى صورة « عمود نار » أو « عمود من دخان » ، ثم تجليه فوق « طور سيناء » نهارا محدثا « للرعد والبرق والسحاب الكثيف » هى بالبداهة ظواهر بركانية ، وعلى ذلك كان من المعترف به منذ زمن أن « يهوه » ليس إلا إلٰها محليا للبراكين وكان مقره المختار « طور سيناء » ، ولكن العبرانيين تخلوا بتأثير من « موسى » عن آلهتهم « الوهيم »[2] القدامى واتخذوا « يهوه » لهم إلٰها واحدا .

---

(١) وقد أدى ازدياد تقديس هذا الإسم عند اليهود إلى أنهم لفظوا بكلمة عبرانية تدل على « رب » بدل كلمة «يهوه » وهذا الاستعمال أدى فى النهاية إلى فقدان النطق القديم لكلمة « يهوه » وصارت حروفها الأربعة ساكنة « ى هـ ف ه » تلفظ بإضافة الحركات التى تستعمل مع كلمة « رب » فى العبرية ، وبذلك أصبحت كلمة « يهوه » تلفظ جهوفه « يهوفاه » وهو صورة لهذا الاسم ليس له أصل قديم قط .

(فجر التاريخ : بريستد — ترجمة سليم حسن)

(٢) ألوهيم : جمع كلمة إيل .

على أنه لا بد من باعث آخر دعا إلى ذلك الانقلاب العظيم أقوى من تأثير « موسى » قائدهم الكبير . فمن الواضح أن التخلص من النير المصرى كان مصحوبا ببعض الظواهر الرهيبة التى عزيت إلى بطش « يهوه » الشديد . وإن الرأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى « سيناء » حينما ضاق الخناق على العبرانيين فى خروجهم يجد من الأسباب ما يبرره ، إذ يمكن أن نفرض أن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار وموجة المد التى نتجت عن ذلك ، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون أثر القـوم الفارين .

ومهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بأن العبرانيين عندما دخلوا منطقة « يهوه » الواقعة بالقرب من جبل سيناء نجاهم هو ببعض المظاهر العظيمة لقوته وعطفه قد احتل مكانة ثابتة فى المعتقدات العبرانية المأثورة ، وحينما أقيم محراب ذلك الإلـٰه بعد مضى زمان طويل على ذلك فى « بيت المقدس » صوره عباده من الإسرائيليين بأنه آت من « سينا » فى قوة وأبهة ليتخذ مثواه فوق جبل « صهيون » .

يفترض برستد افتراضات ليواكب بين مذهبه المادى فى تحليل التاريخ الدينى وأحداث التوراة ، و لم يبد أى شك فى توراة المنفى و لم يناقش موضوع تدوين التوراة بعد موت موسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة ، و لم يكشف عن أثر الأساطير البابلية والفرعونية فى عقلية الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، وعيب الذين يستنطقون الكتب المقدسة التى كتبت بعد موت أصحاب الرسالات بمئات السنين أنهم يفترضون أن تلك الكتب لا يأتيها الباطل من بين يديها فيصمون أحيانا رسل الله بالشرك ، ولا يرفعون أصابع الاتهام فى وجه الذين دونوا تلك الكتب بعد أن زاغت قلوبهم عن الإيمان الصحيح .

جعلوا موسى عليه السلام يستعين بثعبان من نحاس ليشفى الناس ، وجعلوا السيد المسيح الذى جاء ليسخر من عقيدة القرابين أكبر قربان فى تاريخ البشرية ، فالذين عبثوا بالكتب المقدسة كانوا متأثرين بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه وبعقائد ذلك المجتمع . وكل دراسة عن الكتب المقدسة بعيدة عن دراسة الزمن الذى دونت فيه ومعتقدات الناس فى ذلك الزمن والأساطير التى كانت ذائعة وقت التدوين فهى دراسة مبتورة تشوه الحقيقة ولا تخدم التاريخ .

ولا يعرف القرآن الكريم يهوه ولا الإيل بل يقرر فى وضوح أن للكون ربا واحدا هو رب آدم ورب نوح ورب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء جميعا والمرسلين ، ورب الناس رب العالمين ، له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فهو الذى نجى بنى إسرائيل من آل فرعون ، فإن كانت الزلازل والبراكين قد ثارت وأغرقت فرعون وجنوده فقد أتى ذلك بأمر الله ، وإلا كيف نعلل هذه الدقة فى التوقيت ؟ ولماذا ننسب الخوارق إلى الصدفة إذا كنا نؤمن بأن لهذا الكون ربا يدبر أمره وأن له الأمر جميعا ؟!

إن برستد لا يرى فى شرك بنى إسرائيل بالله ردة عن التوحيد الذى عرفه آباؤهم ، لأنه لو اعترف بذلك لهدم نظرية علماء المقابلة بين الأديان القائلة بترق الإنسان فى الدين . ويثور سؤال : هل كان إبراهيم موحدا أو كان من المشركين ؟ والجواب : كان إبراهيم خليل الرحمن يعبد الله وحده ، وقد اعترفت توراة المنفى بهذه الحقيقة ، وعلى ذلك سبق التوحيد الشرك ، فإن كان بنو إسرائيل قد أشركوا بالله بعد أن عرفوا الواحد القهار ، فهذه ردة لا تتفق مع نظرية علماء المقابلة بين الأديان وإن اتفقت كل الاتفاق مع النظرية القرآنية القائلة بالتوحيد فالشرك فإرسال رسول يعيد الناس إلى التوحيد ، وقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل بعد أن عبدوا العجل أسوة بقدماء

المصريين ليعيدهم أولا إلى التوحيد ثم يخلصهم من ذل آل فرعون المهين .

ويقول برستد : « أما آلهة العبرانيين القدامى (إيل) التى لم يكن لها لون ولا أسماء أعلام يستدل بها على كل منها وليس لها شخصية ولا أصل تاريخى ، فإنهم استمروا طويلا منافسين ضعفاء لإلـٰههم « يهوه » بعد أن استوطن الإسرائيليون فلسطين . وأما الآلهة التى كانت أشد بأسا فى مناهضة « يهوه » فهم « البعول » الكنعانيون ، وبالرغم من أن العبرانيين كانوا قد اتخذوا « يهوه » إلـٰههم القومى فإنه كان يوجد الكثير من بينهم من تمسك باعتقاده فى الآلهة الأخرى مثل البعول ، وكثيرا ما كانوا يتخذونها معبودات لهم من دون إلـٰههم . على أن وجود نفس اسم « يهوه » كأنه علم مثل « أبوللـو » أو « المريخ » لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثله ، ونجد فى التعليم الأول الذى وضعه « يهوه » نفسه لبنى إسرائيل أنه كان يعلم بوجود الآلهة الأخرى ولذلك قال : « لن تكون لكم آلهة أخرى قبلى » .

وزعم برستيد بأن « الإيل » كانت آلهة العبرانيين القدامى فهو زعم مردود إن كان يقصد بالعبرانيين بنى إسرائيل واليهود وحدهم ، « فالإيل » كان رب إبراهيم وقد نسب إليه ابنه إسماعيل قبل أن يعرف يعقوب باسم إسرائيل ، والإيل عند إبراهيم هو الله وحده رب الناس إلـٰه الناس ، ولا أعتقد أنه كانت هناك منافسة بين « الإيل » و « يهوه » ولا يمكن تصور مثل هذه المنافسة إلا إذا أمكن أن نتصور أن هناك منافسة بين الله والرحمن . ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . لقد عبد بنو إسرائيل البعول آلهة الكنعانيين والقرآن المجيد يؤيد هذه الحقيقة : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين »[1] .

إن المتصوفين عند ذكر الله يقولون : هو ، فهل يعقل أن نقول أن هناك منافسة بين الله وبين هو ، وأن الله وهو إلـٰهان متنافسان فى دين الإسلام ؟! وإذا

---

(١) الصافات ١٢٥ .

نادى المسلمون ربهم بقولهم يا ألله ونادى المتصوفون ربهم بقولهم يا هو ، فهل يقال إن المسلمين يعبدون ربا غير رب المتصوفين ؟! إن ما فعله موسى — إن كان قد أطلق على ربه اسم « يهوه » — لا يختلف فى كثير عما فعله المتصوفون المسلمون ، وإن « الإيل » و« يهوه » و« الرب » فى كل لغات العالم ما دامت تشير إلى خالق السماوات والأرض وما بينهما فهى من أسماء الله ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام .

ويسير برستد على هدى نظرية علماء المقارنة بين الأديان فيقول : « وقد كان سير الإسرائيليين فى الانتقال من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إلٰه واحد لجميع العالم بطيئا تدريجيا حتى لقد استغرق عدة قرون . كما نجد كذلك أن تصور العبرانيين فيما يختص بأخلاق إلٰههم قد مر فى عدة أطوار منذ الوقت الذى كانوا فيه مبتهجين بقوة إلٰههم الطبيعى التى كانت تحطم الكنعانيين وتذبحهم ، إلى أن وصلوا إلى تصور الإله أبا رحيما عادلا . وإن الذى يجعل فى استطاعتنا للآن أن نتعرف بعض الخطوات فى ذلك التطور الذى به تخطى الإسرائيليون فى تفكيرهم إلٰه الطبيعة ، هو كتابات الأنبياء العبرانيين بوجه خاص ، حيث يتبين لنا أن ذلك الإلٰه مع استمراره فى حمل إلٰه البركان القديم « يهوه » فإن الشعب العبرانى أخذ ينظر إليه تدريجيا بمثابة قوة فعالة فى المجتمع البشرى .

ولا بد أن النشأة المصرية القديمة التى يرجع إليها الفضل فى جعل موسى قائدا عظيما قد ساهمت فى إدراكه لتلك الصور الواجبة (ليهوه) فى حياة قومه ، فإننا نرى مثلا أن نشأة « موسى » فى مصر وتسميته باسم مصرى جعلاه يحض مواطنيه على الأخذ بشعيرة الختان وهى عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل ، ويرجع عهدها إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره ، وتنسب المعتقدات العبرانية

دائما أصل تلك الشعيرة إلى « موسى » (عليه السلام) . هذا وإن اتخاذ موسى لعادة مصرية مقدسة واعتبارها علامة لبنى إسرائيل مع أنها شعيرة ألفها بداهة فى مصر منذ نعومة أظفاره ، يعد فى الوقت نفسه برهانا قاطعا على أنه كان يستقى تعاليم مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة . على أن « موسى » لم يكن عبدا لمحاكاة التقليد المصرى القديم ، ويظهر لنا ذلك عندما نراه اتخذ عن أهل « مدين » يهوه إلـٰها له . ولما كان أهل « مدين » قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة فى الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لآلهتهم ، فإنه ترك « يهوه » دون أن يصنع له صورة أو تمثالا ما ، كما كان الحال عند أهل « مدين » من قبل » .

وللأسف فإن برستد يغالط فى حقائق وردت فى التوراة — وإن كانت هى نبراس دراسته — ليبرهن على نظريته القائلة بأن موسى عليه السلام أخذ تعاليمه عن قدماء المصريين ، فهو يزعم أن الختان شعيرة اتخذها موسى عليه السلام عند قدماء المصريين لتكون علامة بين بنى إسرائيل ، بينما تقول التوراة إن الختان شعيرة إبراهيم خليل الرحمن وأنه أمر بختان الذكور فى اليوم السابع من مولدهم ، وقد ختن إسماعيل وهو ابن ثلاث عشر سنة ، وختن إسحاق فى السابع من مولده ، وقد سبق أن قلت إن الختان كان معروفا عند البابليين وإنها عادة كانت منتشرة بين قوم إبراهيم ، وأن خليل الرحمن لا بد أنه اختتن قبل أن يهاجر إلى ربه ، وأن دعوى أن الختان علامة بين الرب وبين بنى إسرائيل إن هى إلا من ثمرة عقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى ليكون لبنى إسرائيل فضل على العالمين .

وزعم أن أهل مدين لم يصنعوا لإلـٰههم تمثالا لأنهم قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة فى الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلـٰههم ، وأن موسى لم يصنع تمثالا لإلـٰهه اقتداء بأهل مدين ، ودارس التوراة يكتشف هذا الزيف ، فرب إسرائيل قد نهى عن صنع التماثيل حتى لا يرتد عباده إلى الوثنية وعبادة الأصنام

والأوثان ، فعدم صنع موسى تمثالا لربه يعود إلى أن صناعة التماثيل كانت محرمة عليه ، و لم تمنع عدم المهارة الفنية الأقوام السذج من اتخاذ صخرة رمزا للإلٰـه ، وإن ما فعله بنو إسرائيل بعد موسى من صنع تمثال لإلٰـههم إن هو إلا ردة ، فالمطلق لا يمكن تجسيده وإذا جسد لم يعد مطلقا ، فصنع التماثيل للإلٰـه ليس تقدما دينيا بل هو نكسة فى المفهوم الدينى الذى يقرر أن كل ما خطر على بالك فالله على خلاف ذلك .

لم يصنع موسى تمثالا لربه فقد كان يقدر الله حق قدره ، ولكن برستد وجد فيما كتبه كتَّاب التوراة عن موسى شيئا من الوثنية فلم يحاول أن ينفى عن موسى عليه السلام تلك المزاعم بل سارع يفسر ذلك بأن موسى لم ينس التماثيل الدينية المصرية : « على أننا نجد أن « موسى » كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية ، فقد كان هو نفسه يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك فى أنها كانت فى صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » ، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة فى مصر . وقد بقيت صورة ذلك الإلٰـه المصرى القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل ، واستمروا فى إطلاق البخور لـه مـدة خمسة قـرون بعـد عهـد « موسى » ، و لم يبعد من البيت المقدس إلا فى حكم « حزقيائيل » فى أواخر القرن الثامن ق . م . (سفر الملوك الثانى ١٨ : ٤) .

على أنه قد احتفظ العبرانيون إلى العهد المسيحى بقول مأثور عندهم يقرر أن « موسى » كان متفقها « فى كل حكمة المصريين » (الإصحاح السابع الآية ٢٢) ، وهو قول لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الشك فى صحته ، على أنه لم يكن فى مقدورنا إلا فى السنين الأخيرة أن نفهم المصادر التى وصلت إلينا عن حياة المصريين القدماء فهما كافيا ندرك به أن « حكمة المصريين » كانت

قبل كل شيء عبارة عن التأملات والتدبرات الاجتماعيــة ، ولا شك أن « موسى » كان ملما بأقوال أولئك الأنبياء الاجتماعيين الذين كانت أقدم كتاباتهم — كما ذكرنا فيما سبق — متداولة بين المصريين منذ ١٥٠٠ سنة عندما ابتدأ موسى فى تعليم قومه . ومن البديهى أن رجلا مثله نشأ محاطا بمثل ذلك النوع من الأدب كان لزاما عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود به قومه » .

إن برستد يقرر أشياء يحاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فهو يقول إن موسى كان يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك فى أنها كانت فى صورة ثعبان ، فمن أين جاء بهذا التأكيد ؟ إنه كان يحمل عصا ليهش بها على غنمه ، عصا مثل كل عصى الرعاة ، فمن ذا الذى حول العصا إلى صورة ثعبان ؟ وإن كان بين أصحاب موسى فنان قادر على تحويل العصا إلى هيئة ثعبان فهل كان موسى عليه السلام يسمح له بذلك وهو الذى قال لبنى إسرائيل فى وصاياه : « محظور عليك أن تصنع لنفسك تمثالا منحوتا أو (صورة) أى شكل فى السماء أو فى الأرض أو الماء » .

إنه يحاول أن يربط بين العصا وبين تحولها إلى ثعبان بقدرة الله تتلقف ثعابين السحرة ، فجعل العصا على صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » . « وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى »[1] .

وزعم برستد أن موسى عليه السلام كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وقد يكون معذورا فى هذا الزعم فهذا ما تقرره توراة المنفى ، ولكن كان عليه أن يناقش هذه الدعوى الظالمة وبين يديه نفس توراة

---

(١) طه ١٩ — ٢١ .

المنفى التى تعترف بأن موسى عليه السلام حظر على بنى إسرائيل صنع التماثيل ، فكيف ينهى عن شيء ثم يفعله ؟!

إن فكرة الثعبان النحاسى التى جاءت فى التوراة استهوت برستد لأنها أتاحت له فرصة الربط بين ذلك الثعبان والثعابين المقدسة المصرية ، فلم يحاول أن يميط اللثام عن زيف الفكرة بل تلقفها ليدلل بها على نظريته بأن موسى عليه السلام كان متأثرا فى كل تعاليمه بالديانة المصرية القديمة .

عبد بنو إسرائيل العجل وموسى عليه السلام بينهم ، فهل نستدل من ذلك أن موسى عليه السلام قد عبد العجل ؟ كان بنو إسرائيل متأثرين بالديانة المصرية القديمة وقد بعث الله إليهم موسى عليه السلام ليعيدهم إلى عبادة الله وحده ، ولولا دعوته إلى عبادة رب الناس إلـٰه الناس لما كان هناك من سبب لنشوب العداوة بينه وبين فرعون ما دام كان يدعو إلىٰ ديانة الفراعين .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بديانة المصريين القدماء وقد زعموا أن موسى عليه السلام قد اتخذ ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وهو زعم لا يمكن لعقل سليم أن يتصوره إذا ما عرف أن موسى عليه السلام كان ينهى عن صنع التماثيل ، وأن ذلك جاء فى توراة المنفى التى عادت تقرر اتخاذ موسى لتمثال ثعبان . وإنه لزعم لا يقبله عقل إذا عرف أن موسى الذى يدعو إلى عبادة الله وحده يتخذ ثعبانا دون أن يدرى أن ذلك شرك بربه . وأن حزقيال يكتشف بعده بمئات السنين أن ذلك الثعبان ليس من الدين فى شيء فيرفعه من بيت المقدس .

موسى عليه السلام ينهى عن صنع التماثيل ثم يحول عصاه إلى صورة ثعبان ، وليس ذلك فقط بل يصنع تمثالا من النحاس البراق ليشفى به الناس . مزاعم متهافتة لا تتفق مع المنطق وإن كانت تتواكب مع أفكار الكهان الذين حوروا توراة الله إلى سجل يبخس قدر الأنبياء ويلطخهم بعار الشرك وعار الجنس

ويحض الناس على التمسك بتوافه المظاهر المادية ويبشرهم برضا الرب ما داموا محافظين على حقوق الكهنة من لحوم وهدايا وأنفال .

ولندع برستد مؤقتا ونعود إلى التوراة نستأنف معها رحلتنا لنرى أن دولة إسرائيل انقسمت إلى دولتين وأصبح لكل منهما ملك . ففى السنة الثانية عشرة للملك يربعام ملك أبيام على يهوذا ، « وفى السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك آسا على يهوذا ، ملك إحدى وأربعين سنة فى أورشليم واسم أمه معكة ابنة أبشالوم ، وعمل آسا ما هو مستقيم فى عينى الرب كداود أبيه ، وأزال المأبونين من الأرض ونزع جميع الأصنام التى عمل آباؤه ، حتى إن معكة أمه خلعها من أن تكون ملكة لأنها عملت تمثالا لسارية ، وقطع آسا تمثالها وأحرقه فى وادى قدرون ، وأما المرتفعات فلم تنزع إلا أن قلب آسا كان كاملا مع الرب كل أيامه . وأدخل أقداس أبيه وأقداسه إلى بيت الرب من الفضة والذهب والآنية . وكانت حرب بين آسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما . وصعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكيلا يدع أحدا يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا ، وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية فى خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده : وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حربون ملك آرام الساكن فى دمشق قائلا : إن بينى وبينك وبين أبى وأبيك عهدا ، هو ذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عنى . فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن إسرائيل وضرب عيون ودان وآيل بيت معكة وكل كنَّروت مع كل أرض نفتالى . ولما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وأقام فى تِرصة . فاستدعى الملك آسا كل يهوذا . لم يكن برىء . فحملوا كل حجارة الرامة وأخشابها التى بناها بعشا وبنى بها الملك آسا جميع بنيامين والمصفاة ، وبقية كل أمور آسا وكل جبروته وكل ما فعل والمدن التى

بناها أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا . غير أنه فى زمان شيخوخته مرض فى رجليه ، ثم اضطجع آسا مع آبائه ودفن مع آبائه فى مدينة داود أبيه وملك يهو شافاط ابنه عوضا عنه » .

كانت قلوبهم شتى حتى قبل أن تنقسم دولتهم إلى دولتين ، أما وقد صارت إسرائيل دولة واليهودية دولة أخرى فقد تجاوزت العداوة القلوب إلى إعلان الحرب واستغاثة ملك اليهودية بملك دمشق . ولم يتعال ملك يهوذا على ملك دمشق ولم يقل إنه من الأمم من كلاب البشرية ، بل انحنى له فى ود وقدم إليه الهدايا ليحقق مآربه الدنيوية . واستمرت الحروب بين إسرائيل واليهودية ، وما من ملك من ملوكهم سار فى طريق الرب ، أصابتهم جميعا لعنة كتّاب التوراة التى صبوها بلا حساب على أنبياء الله وكل الملوك بلا تفريق . وقد جعلوا الله يقول عن بعشا : « من أجل أنى قد رفعتك من التراب وجعلتك رئيسا على شعبى إسرائيل ، فسرت فى طريق يربعام وجعلت شعبى إسرائيل يخطئون ويغيظوننى بخطاياهم ، هأنذا أنزع نسل بعشا ونسل بيته وأجعل بيتك لبيت يربعام بن نباط ، فمن مات لبعشا فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء ، وبقية أمور بعشا وما عمل وجبروته أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل ؟ واضطجع بعشا مع آبائه ودفن فى نرصة ، وملك أيلة ابنه عوضا عنه » .

لم يستطع الذين كتبوا التوراة أن يفهموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء : فإذا انتقل الملك من بيت إلى بيت فذلك فى زعمهم دليل غضب الله على أهل بيت الملك الذى زال . ولا بد أن الملك قد أغضب الرب حتى نزع منه الملك ، وليس لزوال الملك تفسير آخر عندهم . فالملك هو غاية المراد من الرب ، ما داموا لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا جنة إلا جنتهم الأرضية ، والسلطان هو الأمل المنشود والغاية التى ما بعدها غاية حتى لو جلب الشقاء ، فزوال

ذلك النعيم الأرضى يحمل فى طياته غضبا ربانيا ، والغضب الربانى لا يكون إلا بعصيان الرب وتنكب طريقه . وكان هذا الفهم هو المسيطر على عقول الذين كتبوا التوراة فى المنفي ، وكان جزاء كل من انتزع الملك منه أن « من مات لذلك الملك فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء » . والقرآن الكريم يعارض هذه النظرية الخاطئة : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير »[١] .

ويستمر الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى تسجيل تاريخ إسرائيل واليهودية ، ويلاحظ أن ما من ملك إلا وكان معه نبى . والنبوة عند بنى إسرائيل تختلف فى معناها عن النبوة فى الإسلام ؛ فالنبى فى التوراة هو الملهم الذى يخبر بشيء من أمور الغيب المستقلة ، وقيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، أما النبوة فى الإسلام فهى مقترنة بوحى الله ، والنبى من أوحى الله إليه وحيا ، فإن أمره بتبليغه كان رسولا : فكل رسول نبى وما كل نبى رسول . وقد انقطعت النبوة والرسالة معا بعد محمد ـــ ﷺ .

وجاء فى تفسير « نبى . أنبياء . نبوة » من قاموس الكتاب المقدس المطبوع فى المطبعة الأمريكانية فى بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه :

« النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمى هارون نبيا لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته (خروج ٧ : ١) . أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية وينبئون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم فى أيام صموئيل أقام مدرسة فى الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بنى

---

(١) آل عمران ٢٦ .

الأنبياء ، فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون فى مواضع كثيرة من الكتاب . وتأسست أيضا مدارس أخرى للأنبياء فى بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أباأو سيدا ، وكان يعلم فى هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الأنبياء وبنى الأنبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الأتقياء .

ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا فى تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنباء بما سيأتى ، إنما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا ، فإنه كان راعيا وجانى جميز .

أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ ، وأحيانا كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترن فى رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة ... » .

فالنبوة عند بنى إسرائيل كانت صناعة تعلم موادها فى المدارس ويستعان على الإقناع بها بالتخيلات الشعرية والإلهامات الكلامية والمؤثرات الغنائية والموسيقية والمعلومات المكتسبة ، وكان أنبياؤهم متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الأتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق فى المسلمين . فلا عجب إن فاضت توراة المنفى بمعاصيهم فهم ليسوا معصومين من المعاصى والرذائل ، فالله لم يرسلهم إلى البشر لهدايتهم بل استمدوا نبوتهم من الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات

المبهمة والإخبار عن الأمور المستقبلة ، وما أكثر ما كانت نبوءتهم تخطىء . وقد كانوا لا يفترقون فى كثير أو قليل عن العرافين والمنجمين بله الروحانيين المكاشفين .

ولنعد إلى التوراة لنرى كيف ارتد بنو إسرائيل بعد أن عرفوا التوحيد ، وكيف ذبحوا أبناءهم قربانا لآلهتهم بعد أن قضى إبراهيم الخليل على هذه العادة ، وكيف عادوا لعبادة آلهة الشعوب بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

« وآخاب بن عُمرى ملك على إسرائيل فى السنة الثامنة والثلاثين لآسا ملك يهوذا ، ومَلَك أخاب بن عمرى على إسرائيل فى السامرة اثنتين وعشرين سنة . وعمل آخاب بن عمرى الشر فى عينى الرب أكثر من جميع الذين قبله ، وكأنه كان أمرا زهيدا سلوكه فى خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ إيزابل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له . وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة . وعمل آخاب سوارى وزاد أخآب فى العمل لا غاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله ، فى أيامه بنى حينيل اليتشيلى أريحا ، بأبيرام بِكره وضع أساسها . ويسجوب صغيره نصب أبوابها حسب كلام الرب الذى تكلم به عن يد يشوع بن نون » .

هل كان ذبح الابن البكر عند وضع أساس أريحا بأمر من رب إسرائيل ؟ وهل أوحى الله إلى يشوع بن نون أن يذبح بانى أريحا بكره عند وضع أساسها ؟ يا رب ! ما كل هذا الظلام الذى يخيم على توراة المنفى ؟ إن أنفاسى تضيق وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، وأعوذ بجلال وجهك يا نور السماوات والأرض أن تكون كل هذه الظلمات من وحيك . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عميت قلوبهم التى فى صدورهم عن نورك ، فغمسوا أقلامهم فى

ظلمات أفئدتهم فجاءت توراتهم تنبض بحقدهم وقسوتهم وفساد القصور التى كانوا فيها يتمرغون .

« وقال إيليا التشبى من مستوطنى جلعاد لآخاب : حى هو الرب إلٰه إسرائيل الذى وقفت أمامه : إنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى .

وكان كلام الرب له قائلا : انطلق من هنا واتجه نحو المشرق واختبىء عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر ، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق واعمل حسب كلام الرب . فذهب وأقام عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحا وبخبز ولحم مساء وكان يشرب من النهر . وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض .

وكان له كلام الرب قائلا : قم اذهب إلى صرفة التى لصيدون وأقم هناك ، هو ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة تعولك ، فقام وذهب إلى صرفة ، وجاء إلى باب المدينة وإذا بامرأة أرملة هناك تَقشّ عيدانا فناداها وقال : هاتى لى قليل ماء فى إناء فأشرب ، وفيما هى ذاهبة لتأتى به ناداها وقال : هاتى لى كسرة خبز فى يدك . فقالت : حى هو الرب إلٰهك . إنه ليست عندى كعكة ولكن ملء كف من الدقيق فى الكوّار وقليل من الزيت فى الكوز ، وهأنذا أقش عودين لآتى وأعمله لى ولابنى لنأكله ثم نموت . فقال لها إيليا : لا تخافى ادخلى واعملى كقولك ، ولكن اعملى لى منها كعكة صغيرة أولا واخرجى بها إلى ، ثم اعملى لك ولابنك أخيرا ، لأنه هكذا قال الرب إلٰه إسرائيل : إن كوّار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطرا على وجه الأرض . فذهبت وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وهو وبيتها أياما . كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذى تكلم به عن

يد إيليا .

وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جدا حتى لم تبق فيه نسمة . فقالت لإيليا ما لى ولك يا رجل الله ؟ هل جئت إلى لتذكيرى إثمى وإماتة ابنى ؟ فقال لها : أعطينى ابنك . وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التى كان مقيما بها وأضجعه على سريره ، وصرخ إلى الرب وقال : أيها الربّ إلـٰهى أأيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها . فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال : يا رب إلـٰهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش . فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه ، وقال إيليا : انظرى ابنك حى ، فقالت المرأة لإيليا : هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق » .

فى أى شريعة يصرح لرجل أن يبيت مع امرأة غريبة فى بيت واحد ، سواء أكان يبيت فى العالية أم فى حجرتها ؟ إن الذين كتبوا التوراة زعموا أن الله أوحى إلى إيليا أن ينطلق إلى بيت الأرملة الخاطئة ليعيش عندها ، فإيليا ليس من خريجى معهد الأنبياء فحسب بل قد أوحى إليه ، فهل يعقل أن نبيا سخر الله له الغربان لتطعمه خبزا ولحما فى الصباح وفى المساء يتهم ربه بالإساءة دائما فيقول له فى قحة : أأيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ إنه قول يكشف رأى رجل الله فى ربه وهو قول تقشعر منه أبدان الذين يتقون الله حق تقاته ، سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون .

« وبعد أيام كثيرة كان كلام الرب إلى إيليا فى السنة الثالثة قائلا : اذهب وتراءَ لأخآب فأعطى مطرا على وجه الأرض . فذهب إيليا ليتراءى لأخآب وكان الجوع شديدا فى السامرة ، فدعا أخآب عوبديا الذى على البيت . وكان

عوبديا يخشى الرب جدا . وكان حينما قطعت إيزابل أنبياء الرب أن عوبديا أخذ مائة نبى وخبأهم خمسين خمسين رجلا فى مغارة وعالهم بخبز وماء . وقال أخآب لعوبديا : اذهب فى الأرض إلى جميع عيون الماء وإلى جميع الأودية لعلنا نجد عشبا فنحيى الخيل والبغال ولا نعدم البهائم كلها . فقسما بينهما الأرض ليعبرا بها ، فذهب أخآب فى طريق واحد وحده وذهب عوبديا فى طريق آخر وحده . وفيما كان عوبديا فى الطريق إذا بإيليا قد لقيه . فعرفه وخر على وجهه وقال : أأنت هو سيدى إيليا ؟ . فقال له : أنا هو . اذهب وقل لسيدك : هو ذا إيليا . فقال : ما هى خطيئتى حتى إنك تدفع عبدك ليد أخآب ليميتنى ! حى هو الرب إلـٰهك ، إنه لا توجد أمَّة ولا مملكة لم يرسل سيدى إليها ليفتش عليك ، وكانوا يقولون إنه لا يوجد ، وكان يستحلف المملكة والأمة إنهم لم يجدوك . والآن أنت تقول اذهب قل لسيدك هو ذا إيليا ، ويكون إذا انطلقت من عندك أن روح الرب يحملك إلى حيث لا أعلم . فإذا أتيت وأخبرت أخآب و لم يجدك فإنه يقتلنى . وأنا عبدك أخشى الرب منذ صباى . ألم يُخبر سيدى بما فعلت حين قتلت إيزابل أنبياء الرب إذ خبأت من أنبياء الرب مائة رجل خمسين خمسين رجلا فى مغارة ، وعالهم بخبز وماء ، وأنت الآن تقول اذهب قل لسيدك هو ذا إيليا ، فيقتلنى . فقال إيليا حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه إلى اليوم أتراءى له ، فذهب عوبديا للقاء أخآب وأخبره ، فذهب أخآب للقاء إيليا » .

قال ـــ ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » . وصدق رسول الله ـــ عليه صلوات الله وسلامه . فعلماء المسلمين يجتهدون فى تفسير القرآن المجيد ويقرض أغلبهم الشعر ، وأنبياء بنى إسرائيل الذين يتخرجون فى معهد الأنبياء فى الرامة أو بيت إيل يجتهدون فى تفسير التوراة التى نزلت على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل قبل أن يحرقها بختنصر ، وقبل أن تكتب توراة المنفى على

أنقاض أساطير الشعوب وديانات الأمم وأقوال الحكماء الأقدمين ، وكانوا يتعلمون الشعر والموسيقى ولا أحسب الموسيقى إلا نوعا من التجويد الذى يتعلمه علماء المسلمين .

كان أنبياء بنى إسرائيل المشتغلون بالتفسير فى مكانة علماء المسلمين ، وقد انحطت مكانة أنبياء بنى إسرائيل الذين عكفوا على تفسير توراة المنفى عن مكانة علماء المسلمين ، فهؤلاء يفسرون مزاعم أناس كتبوا توراتهم بمداد الحقد والدنس والكراهية ، وهؤلاء يفسرون كتابا أحكمت آياته من لدن عزيز خبير .

« ولما رأى أخآب إيليا قال له أخآب : أأنت هو مكدر إسرائيل ؟ فقال : لم أكدر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع إلىّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المائة الذين يأكلون على مائدة إيزابل . فأرسل أخآب إلى جميع بنى إسرائيل ، وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل ، فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال : حتى متى تعرجون بين الفريقين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة ، ثم قال إيليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربع مائة وخمسون رجلا ، فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثورا واحد ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا نارا ، وأنا أقرّب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب ، والإلـٰه الذى يجيب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل : اختاروا لأنفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لأنكم أنتم الأكثر ، وادعوا باسم آلهتكم ولكن لا تضعوا نارا . فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين :

يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب ، وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل . وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال : ادعوا بصوت عال لأنه إلٰه . لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ، ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة و لم يكن صوت ولا مجيب ولا مُصغ ، قال إيليا لجميع الشعب تقدموا إلىّ . فتقدم جميع الشعب إليه . فرمم مذبح الرب المتهدم ، ثم أخذ إيليا اثنى عشر حجرا بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب إليه قائلا : إسرائيل يكون اسمك . وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البَزْر ، ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال : املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ، ثم قال ثنوا . فثنوا ، وقال ثلثوا ، فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضا ماء . وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبى تقدم وقال : أيها الرب إلٰه إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليُعلم اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبنى يا رب . استجبنى ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإلٰه وأنك أنت حولت قلوبهم رجوعا . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا : أمسكوا أنبياء البعل ولا يُفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قشون وذبحهم هناك » .

تطلق هذه الإصحاحات لفظة « نبى » على الذين يخدمون البعل كما تطلقها على الذين يخدمون الله ، فلا فرق بينها وبين الكاهن . وقد قيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة : المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، وعلى ذلك فليس هناك فرق بين أنبياء البعليم وأنبياء بنى إسرائيل

ما دام الجميع يتكلمون بصوت جهورى فى أمور الدين ، ولعل ذلك هو السبب فى أن السيد المسيح قد فرق بين الأنبياء والأنبياء الكذبة ، أما الإسلام فإنه لا يعرف من أنواع الأنبياء إلا الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وحيا . أما الذين يدعون النبوة دون وحى الله فهم فى عرف الإسلام دجالون لا تلقى إليهم الأسماع .

جاء جميع الرسل والأنبياء لتعليم الناس ما به يصلح حالهم ويستعدون لمآلهم بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملا ، بحسن الثواب ، وإنذار من كفر وأفسد عملا ، بالعذاب . وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان ، وما تصلح به الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال ، فتسعد لسعادة الدنيا بقدرها وسعادة الآخرة من بعدها . ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا ذكر لدار الآخرة وما أعد فيها للمتقين ، ولا ذكر للنار التى أعدت للكافرين .

إن إيليا قد ذبح أنبياء البعل الكاذبين و لم يبشرهم بعذاب أليم ؟ وقد يكون القتل جزاء للكافرين فما هو جزاء الشهداء والصالحين ؟ وما هى العقوبة التى تنزل بالظالمين إذا انتهت أيامهم على الأرض دون عقاب ؟ « ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون »(١) .

أتى إيليا بمعجزة على الملأ ، فلما رأى الشعب نار الرب تأكل القربان — كما زعم كتاب التوراة — خر الناس ساجدين وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . عادوا إلى الصراط المستقيم ولكن هذه الهداية لم ترض كتاب التوراة فهم لا يرضون عن النهايات السعيدة بل لا بد من أن تنتهى حياة البشر بمأساة ، وأن ينتهى دور الأنبياء بالإخفاق ، وأن ينتصر الكفر على الإيمان ليكون ذلك سببا

---

(١) المؤمنون ٦٢ .

فى سقوط بيت من بيوت الملك وانتقاله إلى بيت آخر .

« وقال إيليا لأخآب اصعد كل واشرب لأنه حس دوى مطر . فصعد أخآب ليأكل ويشرب ، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وخر إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه : اذهب تطلع نحو البحر . فصعد وتطلع وقال : ليس شيء . فقال : ارجع . سبع مرات . وفى المرة السابعة قال : هو ذا غيمة صغيرة قدر كف إنسان صاعدة من البحر . فقال : اصعد قل لأخآب اشدد وانزل لئلا يمنعك المطر . وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم . فركب أخآب ومضى إلى يزرعيل ، وكانت يد الرب على إيليا فشد حقويه وركض أمام أخآب حتى نجى إلى يزرعيل .

وأخبر أخآب إيزابل بكل ما عمل إيليا وكيف أنه قتل جميع الأنبياء بالسيف . فأرسلت إيزابل رسولا إلى إيليا تقول : هكذا تفعل الآلهة وهكذا تزيد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم فى نحو هذا الوقت غدا . فلما رأى ذلك قام ومضى لأجل نفسه ، وأتى إلى بئر سبع التى ليهوذا وترك غلامه هناك ، ثم سار فى البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب ، خذ نفسى لأننى لست خيرا من آبائى ، واضطجع ونام تحت الرتمة وإذا بملاك قد مسه وقال : قم وكل . فتطلع وإذا كعكة رضف وكوز ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع فاضطجع . ثم عاد ملاك الرب ثانية فمسه وقال : قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب ، ودخل هناك المغارة وبات فيها .

وكان كلام الرب إليه يقول له : ما لك ههنا يا إيليا ؟ فقال : قد غرت غيرة للرب إلٰه الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذبحك وقتلوا أنبياءك بالسيف ، فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها . فقال :

اخرج وقف على الجبل أمام الرب . وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب و لم يكن الرب فى الريح ، و بعد الريح زلزلة و لم يكن الرب فى الزلزلة ، وبعد الزلزلة نار و لم يكن الرب فى النار وبعد النار صوت منخفض خفيف . فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه ووقف فى باب المغارة ، وإذا بصوت إليه يقول : ما لك ههنا يا إيليا ؟ فقال : غرت غيرة للرب إلـه الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى ، وهم يطلبون نفسى ليأخذوها . فقال له الرب : اذهب راجعا فى طريقك إلى برية دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكا على أرام ، وامسح يا هو بن نمشى ملكا على إسرائيل ، وامسح إليشع بن شافاط من آيل محولة نبيا عوضا عنك . فالذى ينجو من سيف حزائيل يقتله يا هو ، والذى ينجو من سيف يا هو يقتله إليشع ، وقد أبقيت فى إسرائيل سبعة آلاف كل الرُّكب التى لم تجثُ للبعل وكل فم لم يقبِّله .

فذهب من هنالك ووجد إليشع بن شافاط يحرث وإثنا عشر فدان بقر قدامه وهو مع الثانى عشر . فمر إيليا به وطرح رداءه عليه . فترك البقر وركض وراء إيليا وقال : دعنى أقبل أبى وأمى وأسير وراءك . فقال له : اذهب راجعا لأنى ماذا فعلت لك . فرجع من ورائه وأخذ فدان بقر وذبحهما وسلق اللحم بأدوات البقر وأعطى الشعب فأكلوا . ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه » .

لم يشفع لإيليا أن النار قد أكلت قربانه وأن الشعب قال وهو يخر ساجدا : الله إلـه إسرائيل . الله إلـه إسرائيل . فإيزابل قد أصرت على قتله ففر من وجهها إلى الله وهو يدعو ربه أن ينهى حياته يأسا وقنوطا ، وما كان لنبى يصطفيه الله أن يضيق بنعمة أنعمها الله عليه فالنبوة أعظم تكريم يكرم به الله عبده ، وما من نبى إلا وقد حمل أعباء النبوة وهو راض عما يحتمل من أذى فى سبيل ربه ، فهو

يعيش مع الله وبالله متفرح بالنظر إلى وجهه ، وإن آلام الأرض كلها لتذوب أمام وحى يوحى ، وظلمات القنوط لا بد أن تتبدد أمام شروق نور الله فى قلبه ، فقول إيليا لربه : قد كفى الآن يا رب خذ نفسى لأننى لست خيرا من آبائى لا يتسق مع النبوة ، فهو فرار من حمل النبوة لا يليق بنبى اصطفاه ربه ، فذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فقد كانوا يتمنون الموت لما كان اليأس من العودة إلى فلسطين يدب فى أفئدتهم ، فوضعوا ما هم فيه من حالة نفسية وأعاروا أنبياءهم ما هم فيه من قلق ويأس وقنوط .

إن يأس إيليا وقنوطه لا يتساوق مع ما هو مفروض فى الأنبياء من امتثال أوامر الله : « ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »(١) .

ويعود كتبة التوراة لتأكيد الصورة الخاطئة التى كونوها فى أذهانهم عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا ، فيصفونه بالعبور وبالمرور ، ويجعلون له مكانا ظلل الغمام والريح والزلزلة والنار : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب »(١) .

ولنعد إلى الإصحاح العشرين من سفر الملوك الأول لنرى أن الذلة والمسكنة قد ضربت على بنى إسرائيل حتى وهم سادة فى فلسطين قبل أن يأخذهم بختنصر سبايا إلى أرض العراق : « وجمع بنهدد ملك آرام كل جيشه واثنين وثلاثين ملكا معه وخيلا ومركبات ، وصعد وحاصر السامرة وحاربها وأرسل رسلا إلى أخآب ملك إسرائيل إلى المدينة وقال له : هكذا يقول بنهدد :

---

(١) الأنعام ٣٤ ، ٣٥ . (٢) هود ١١٠ .

لى فضتك وذهبك ولى نساؤك وبنوك الحسان . فأجاب ملك إسرائيل وقال : حسب قولك يا سيدى الملك أنا وجميع مالى لك » .

إن أخآب ملك إسرائيل يقبل تهديد ملك دمشق ولكن الشيوخ يرفضون ، وتدور معركة بين بنى إسرائيل وبنهدد ويهزم رجال إسرائيل بنهدد والملوك الذين كانوا معه ، وإنه بعيد عن التصور أنه كان هناك اثنان وثلاثون ملكا غير بنهدد فى منطقة الشام إلا إذا كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد أطلقوا على شيوخ القبائل لقب ملوك كما أطلقوا لفظة نبى على الدارسين فى مدارس أبناء الأنبياء فى الرامة وبيت إيل .

وانتهت الحرب بين أخآب وبين بنهدد بعقد معاهدة بينهما اتفق فيها على أن يرد أخآب المدن التى أخذها أبوه إلى بنهدد ، و لم ينج أخآب الذى هزم بنهدد والملوك من لعنة كتاب التوراة فقد جعلوا أخآب يغتصب كرم جاره بتدبير امرأته إيزابل ، فيغضب الرب على أخآب وإيزابل ويقول : « هأنذا أجلب عليك شرا وأبيد نسلك وأقطع لأخآب كل بائل بحائط ، ومحجوز ومطلق فى إسرائيل ، وأجعل بيتك كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيًّا لأجل الإغاظة التى أغظتنى وجعلك إسرائيل يخطىء . وتكلم الرب عن إيزابل أيضا قائلا : إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل ، من مات لأخآب فى المدينة تأكله الكلاب ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء . و لم يكن كأخآب الذى باع نفسه لعمل الشر فى عينى الرب الذى أغوته إيزابل امرأته . ورَجَس جدا بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الآموريون الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل ، ولما سمع أخآب هذا الكلام شق ثيابه وجعل مسحا على جسده ، وصام واضطجع بالمِسح ، ومشى بسكوت . فكان كلام الرب إلى إيليا التشبى قائلا : هل رأيت كيف اتَّضع أخآب أمامى ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه

أجلب الشر على بيته » .

وجعلوا إلـٰه إسرائيل إلـٰها سوداوى المزاج يتربص بعباده ، لا يرحم ولا يقبل التوبة بل يؤجل انتقامه ويقرر أن ينتقم من الابن قبل أن يفعل الابن خيرا أو شرا ، لكأنما كان إلـٰه إسرائيل عدوا لعباده ينصب لهم الشرك ليسقطوا فى الخطيئة ثم يسومهم سوء العذاب على ما اقترفوا من خطأ ، ولا جرم فهو قد ندم على أنه قد خلق البشر وبات يتربص بهم حتى لا ينافسوه فى ملكه !

وتنشب حرب بين أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا من ناحية ، وبين ملك آرام . ويقتل أخآب ويصبح أخزيا بن أخآب ملكا على إسرائيل دون أن يدرى أن إلـٰه إسرائيل يتربص به وأنه سيجلب عليه الشر وعلى بيته جزاء على ما اقترف أبوه من معاصى قبل أن يتوب ، فالتوبة عند إلـٰه إسرائيل لا تغسل الذنوب ، وهو يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الرابع ، وهذا هو عدله إن كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد عرفوا العدل الإلـٰهى .

لا توبة فى التوراة وكيف يتوب إلـٰه ندم على أنه خلق البشر وأصبح يخشى منافستهم إياه ؟ لقد أغلق الذين كتبوا التوراة كل أبواب المغفرة فى وجوه الناس ، وما فائدة التوبة والمغفرة إذا كان الثواب أو العقاب يناله المرء فى هذه الدنيا الفانية ، وأن عمل المرء ينقطع بموته ؟

لم تعرف التوراة — أو بمعنى أصح — الذين كتبوا التوراة بأيديهم التوبة والمغفرة ورحمة الله ، بينما آيات القرآن المجيد تفتح أمام الناس أبواب التوبة على مصاريعها وتتحدث عن رحمة الله ومغفرته حديثا فياضا يجعل حياة البشرية تتألق بالآمال : « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم »[1] . « أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه

---

(١) البقرة ١٨٧ .

غفور رحيم »[١] « ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »[٢] ، « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى »[٣] . « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات »[٤] . « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »[٥] . « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »[٦] .

وينتهى سفر الملوك الأول بالعبارات التقليدية التى ينتهى بها كل سفر وهى عبارات تؤكد دائما كفران مسعى ملوك إسرائيل : « أخزيا بن أخآب ملك على إسرائيل فى السامرة فى السنة السابعة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا ملك على إسرائيل سنتين ، وعمل الشر فى عينى الرب وسار فى طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يخطىء ، وعبد البعل وسجد له وأغاظ الرب إلـٰه إسرائيل حسب كل ما فعل أبوه » .

ويبدأ سفر الملوك الثانى بانتقام إلـٰه إسرائيل من أخزيا بن أخآب وينزل به أقصى عقوبة يمكن أن تنزل فى إسرائيل ، وهى انتزاع الملك من بيته . « وعصى موآب على إسرائيل بعد وفاة أخآب » .

وسقط أخزيا من الكوة التى فى عليته التى فى السامرة فمرض وأرسل رسلا وقال لهم : اذهبوا اسألوا بعل زبوب إلـٰه عفرون إن كنت أبرأ من هذا المرض . فقال ملوك الرب لإيليا التشبى : قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم : أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إلـٰه تذهبون لتسألوا بعل زبوب إلـٰه عفرون ؟ فلذلك هكذا قال الرب : إن السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت ، فانطلق إيليا ورجع الرسل إليه فقال لهم : لماذا رجعتم ؟ فقالوا له : صعد

---

(١) الأنعام ٥٤ . (٢) التوبة ١١٨ .
(٣) طه ٨٢ . (٤) الفرقان ٧٠ .
(٥) الأعراف ١٥٣ . (٦) الحجرات ١١ .

رجل للقائنا وقال لنا اذهبوا راجعين إلى الملك الذى أرسلكم وقولوا له : هكذا قال الرب : أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إلـٰه أرسلت لتسأل بعل زبوب إلـٰه عفرون ؟ لذلك السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فقال لهم : ما هى هيئة الرجل الذى صعد للقائكم وكلمكم بهذا الكلام ؟ فقالوا له : إنه رجل أشعر متمنطق بمنطقة من جلد على حقويه ، فقال : هو إيليا التشبى ، فأرسل إليه رئيس خمسين مع الخمسين الذين له فصعد إليه وإذا هو جالس على رأس الجبل ، فقال له يا رجل الله ! الملك يقول : انزل فأجاب إيليا وقال لرئيس الخمسين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد وأرسل إليه رئيس خمسين أخر والخمسين الذين له ، فأجاب وقال له : يا رجل الله هكذا يقول الملك أسرع وانزل . فأجال إيليا وقال لهم : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء فتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد فأرسل رئيس خمسين ثالثا والخمسين الذين له ، فصعد رئيس الخمسين الثالث وجاء وجثا على ركبتيه أمام إيليا وتضرع إليه وقال له : يا رجل الله لتُكرَم نفسى وأنفس عبيدك هؤلاء الخمسين فى عينيك هو ذا قد نزلت نار من السماء وأكلت رئيس الخمسينين الأولين وخمسينيهما ، والآن فلتكرم نفسى فى عينيك .

فقال ملاك الرب لإيليا : انزل معه ، لا تخف منه . فقام ونزل معه إلى الملك وقال له : هكذا قال الرب : من أجل أنك أرسلت رسلا لتسأل بعل زبوب إلـٰه عفرون أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إلـٰه لتسأل عن كلامه . لذلك السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فمات حسب كلام الرب الذى تكلم به إيليا . وملك يهورام عوضا عنه للسنة الثانية ليهورام بن يهو شافاط ملك يهوذا لأنه لم يكن له ابن . وبقية أمور أخزيا التى عمل أما هى

مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل » .

إلٰـه إسرائيل غضب على أخزيا بن أخآب لأنه أرسل يسأل بعل زبوب إلٰـه عفرون عن مرضه ، وهو الإلٰـه الذى انقطع لشعبه واختار أن يقيم بينهم فى الهيكل دون العالمين ، فلم يكن غضبه للشرك به بل كان غضبه أشبه بغضبة التاجر الذى يحزنه أن يذهب أهله إلى تاجر آخر ليشتروا منه بينا حاجاتهم عنده . وهل كان غضب إلٰـه إسرائيل حقا لأن أخزيا ولاه ظهره واتجه إلى إلٰـه آخر أم كان يتربص به مذ عصاه أخآب ؟ إلم يقل قبل أن يتولى أخزيا الملك وقبل أن يرسل الرسل إلى بعل زبوب لنبيه إيليا : هل رأيت كيف اتضع أخآب أمامى ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه أجلب الشر على بيته ، إنه بيت النية على جلب الشر لبيت أخآب فى أيام ابنه قبل أن يعبد الابن إلٰـها غيره ، وهل كان ذلك الوحى الذى أوحاه إلى نبيه سرا أم أن إيليا قد أذاعه ؟ وإذا كان قد بلغه أم وصل إلى مسامع أخزيا فيأخذ حذره ؟!

تاب أخآب واتضع أمام إلٰـه إسرائيل ، أفما كانت توبته كفارة عن سيئاته ؟ فلماذا يربط إلٰـه إسرائيل بين سيئات رجل قد تاب ومصير ابنه ؟ إنه إلٰـه لا يعرف التوبة ولا الصفح ورحمته تضيق عن المغفرة ، وإن نبيه إيليا لا يقل عن إلٰـهه قسوة . إنه يتلذذ لما تسقط نار من السماء وتأكل رئيس الخمسين مع الخمسين ، إنه لم يقل كما قال أنبياء الله قبله : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . بل قال فى غرور مرتين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك .

لم يقل للناس إن رحمة ربه واسعة ولا ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، بل كان يلوح بالعذاب المهين . ولم يكتف بالتلويح بل كان يسخر ربه لإنزال نار من السماء تأكل أعداءه .

إنه قاس حقود لا يمكن أن يكون له وجود إلا فى عقول مريضة ، وهل كانت عقول الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى سليمة ؟ كانوا أسرى فى قصور ملوك إيران فى العراق ، وكان عزرا ونحميا ودانيال أنبياؤهم الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى سقاة خمر لأرتخشستا ملك بابل بل كانوا مغنين له ، فماذا ننتظر منهم ؟ كانوا مبهورين بالملوك الساسانيين فتخيلوا إلـٰههم كذلك ساسانى ينفعل بانفعالات إنسانية محمومة لا تعرف الصفح ولا المغفرة ، وتتهلل بالفرح إذا ما نزلت نقمتها بأعدائها ، ولا ينبغى أن يغرب عن البال أن كتاب التوراة قد صوروا البشر أعداء الرب مذ تطلعوا إلى المعرفة وأصبحوا ينافسون ربهم فى علمه ، وأنه قد ندم على خلقهم .

وما دامت آفاقهم كانت محدودة بالحقد والبغضاء والعذاب لبنى البشر لما صوروا إلـٰههم ، فماذا ننتظر منهم لما يصورون أنبياءه ؟ فما دام الرب دمويا فأنبياؤه دمويون . وما دام الرب قاسيا فأنبياؤه قساة . وما دام الرب يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الرابع ، فأنبياؤه يباركون مثل ذلك الظلم الذى يصرخ منه كل من فى قلبه ذرة من عدل .

كانت شطحات أخيلتهم مادية ، لم تكن لهم أرواح شفافة ترتفع لتقرع أبواب ملكوت السماء . وكيف تهيم العقول فى رحاب ملك الله إذا كانت الأفئدة مثقلة باللذات الأرضية ؟ ولنقرأ معا الإصحاح الثانى من سفر الملوك الثانى لنرى كيف صوروا ما تصوروه من صعود إيليا فى العاصفة إلى السماء :

« وكان عند إصعاد الرب إيليا فى العاصفة إلى السماء أن إيليا وأليشع ذهبا من الجلجال . فقال إيليا لأليشع : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى بيت إيل فقال أليشع : حى هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك . ونزلا إلى بيت إيل . فخرج بنو الأنبياء الذين فى بيت إيل إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إنى أعلم فاصمتوا . ثم قال له

إيليا : يا أليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى أريحا . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك ، إنى لا أتركك . وأتيا إلى أريحا ، فتقدم بنو الأنبياء الذين فى أريحا إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إنى أعلم فاصمتوا . ثم قال له إيليا : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى الأردن . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك . وانطلقا كلاهما . فذهب خمسون رجلا من بنى الأنبياء ووقفوا قبالتهما من بعيد . ووقف كلاهما بجانب الأردن . وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس . ولما عبرا قال إيليا لأليشع : اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك . فقال أليشع : ليكن نصيب اثنين من روحك علىّ ، فقال : صعبت السؤال . فإن رأيتنى أوخذ منك يكون لك كذلك وإلا فلا يكون . وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء . وكان أليشع يرى وهو يصرخ : يا أبى : يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها . و لم يره بعد . فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين . ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن ، فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال : أين هو الرب إلـه إيليا ؟ ثم ضرب الماء أيضا فانفلق إلى هنا وهناك فعبر أليشع . ولما رآه بنو الأنبياء الذين فى أريحا قبالته قالوا : قد استقرت روح إيليا عن أليشع . فجاءوا للقائه وسجدوا له إلى الأرض . وقالوا له : هو ذا مع عبيدك خمسون رجلا ذوو بأس فدعهم يذهبون ويفتشون على سيدك لئلا يكون قد حمله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . فقال : لا ترسلوا . فألحوا عليه حتى خجل وقال : أرسلوا . فأرسلوا خمسين رجلا ففتشوا ثلاثة أيام و لم يجدوه . ولما رجعوا إليه وهو ماكث فى أريحا قال لهم : أما قلت لكم لا تذهبوا ؟

وقال رجال المدينة لأليشع : هو ذا موقع المدينة حسن كما يرى سيدى . وأما

المياه رَديَّة والأرض مجدبة . فقال : ائتونى بصحن جديد وضعوا فيه ملحا . فأتوه به . فخرج إلى نبع الماء وطرح فيه الملح وقال : هكذا قال الرب قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضا موت ولا جدب . فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذى نطق به .

ثم صعد من هناك إلى بيت إيل ، وفيما هو صاعد فى الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع . اصعد يا أقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب . فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا . وذهب من هناك إلى جبل الكرمل ومن هناك رجع إلى السامرة » .

بنو الأنبياء فى بيت إيل كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء ، وبنو الأنبياء الذين كانوا يتلقون العلم فى معهد الأنبياء بأريحا كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء . ووقف خمسون رجلا من بنى الأنبياء على ضفة الأردن ليروا المعجزة كأنما قد أصدر الرب نشرة ربانية وزعت على معاهد الأنبياء ينبئهم فيها بما سيفعله بنبيه إيليا فى ذلك اليوم .

فلما رفع إيليا — حسب زعمهم — ماذا كان موقف بنى الأنبياء الذين تلقوا النبأ العظيم من إلٰههم قبل أن يقع الرفع ؟ شكوا فى إلٰههم وفى ملائكه فقالوا : هو ذا مع عبدك خمسون رجلا ذوو بأس فدعهم يذهبوا ويفتشوا على سيدك لئلا يكون قد حمله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية .

مقدمات لا تتواكب مع النتائج ، إعلان من رب إسرائيل لبنى الأنبياء بأنه سيرفع إيليا إليه فى العاصفة فى ذلك اليوم ، فلما يرفعه إذا بالشك يملأ أفئدتهم فيعمى قلوبهم فيرسلون من يبحث عن نبيهم خشية أن يكون روح الرب قد طرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . كأنما روح الرب كان نسرا خطف

من خطف دون أن يدرى حقيقة رسالته . إن قصة السندباد تلح على فكرى وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، فهل كان لها أصل بابلى قديم استهوى عقول كتّاب التوراة كما استهوت الفكرة عقل مؤلف قصة السندباد ؟.

قد أصبح أليشع نبيا بعد أن استقرت روح إيليا عليه ، وقد سجد له بنو الأنبياء وإن كان السجود لا يجوز فى جميع الآديان السماوية لغير الله . فماذا فعل الرجل الذى اصطفاه إلـٰه إسرائيل ليكون مبشرا لبنى إسرائيل ونذيرا ؟ كان أول عمل عظيم عمله أن التقى بصبيان وهو فى طريقه إلى بيت إيل سخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع .. أصعد يا أقرع . فلم يكظم غيظه و لم يحاول أن يهدى الصبيان الصغار إلى جادة الصواب بل لعنهم باسم رب إسرائيل . وسرعان ما استجاب الرب القاسى لقسوة قلب نبيه فخرجت دبتان وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا .

كتاب التوراة فى المنفى يسجلون ذلك فى زهو وفخر ، وإنى أتساءل : ما هو حكم القانون الوضعى لو أن غلمانا صغارا ساروا وراء رجل وقالوا : يا أقرع .. يا أقرع . وكان معه كلب وحشى أطلقه عليهم فافترسهم ؟ هل يمجد القانون ذلك الرجل وهل تصدر الصحف وقد زينت صفحاتها الأولى بصورته وكتبت تحتها عبارات المدح والثناء ؟! إنه لا يعرف قلبه الرحمة ولا الصفح الكريم ، ولا جرم فهو نبى إلـٰه يحقد على بنى البشر ويستجيب للعنات أنبيائه ويسارع بإنزال العذاب على الناس حتى ولو كانوا أطفالا لا يعقلون ما يفعلون .

وخرج يهورام بن أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا وملك أدوم لمحاربة موآب وسألوا أليشع أن يسأل ربه عن نتيجة الحرب . فقال أليشع : « والآن فأتونى بعوّاد ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب . فقال : هكذا قال الرب اجعلوا هذا الوادى جبابا جبابا ، لأنه هكذا

قال الرب لا ترون ريحا ولا ترون مطرا ، وهذا الوادى يمتلئ ماء فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم . وذلك يسير فى عينى الرب فيدفع موآب إلى أيديكم . فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمُّون جميع عيون الماء وتفسدون كل حلقة جيدة بالحجارة » .

إلـه إسرائيل يأمر عباده من إسرائيل ويهوذا أن يكونوا مفسدين فى الأرض ، أن يقطعوا كل شجرة طيبة وأن يطموا عيون الماء وأن يرجموا الحقول الجيدة بالحجارة . وإلـه إسرائيل لا يوحى إلى أنبيائه بعلمه إلا بعد أن يشنفوا أذنيه بأحلى الآلحان . ولا غرو فأنبياء بنى إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى كانوا مغنين لملوك إيران فصوروا إلـههم فى صورة الملوك الساسانيين الذين تهزهم أنغام العود فتتحرك أريحيتهم فيجودون على جالبى السرور إلى أفئدتهم بما يطلبون .

ويقول كتَّاب التوراة إن الإسرائيليين واليهود نفذوا وصية ربهم : « وهدموا المدن وكان كل واحد يلقى حجره فى كل حقلة جيدة حتى ملأوها وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة » .

ويروى كتَّاب التوراة بعض معجزات أليشع وكيف أنه أحيا غلاما بعد أن مات ، وكيف أنه كثر الطعام ولم تصدر منه كلمة واحدة تدعو الناس إلى الله ، فهو يشفى الأبرص ولا يشفى أمراض النفوس . إنه يهزم جيوش الأعداء وحده ، يقول لربه : « اضرب هؤلاء الأمم بالعمى » ، فيضربهم بالعمى ، ويقول : « يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصرون » ، فيفتح الرب أعينهم فيبصرون . إنها أحلام الذين كانوا أسرى فى بابل ، إنهم كانوا يتمنون أن يقولوا لربهم : « احملنا إلى أرض فلسطين » فيحملهم دون كفاح أو قتال ، ولماذا يقاتلون ولهم رب يقاتل عنهم ؟!

وينفذ أليشع أمر ربه بأن ينتقم من ابن أخآب عقابا لخطايا أبيه الذى تاب ،

فينقطع بذلك الملك عن بيت أخآب : « ودعا أليشع النبى واحدا من بنى الأنبياء وقال له : شد حقويك وخذ قنينة الدهن هذه بيدك واذهب إلى راموث جلعاد ، وإذا وصلت إلى هناك فانظر يا هو بن يهو شافاط بن نِمشى وادخل وأقمه من وسط إخوته وادخل به إلى مخدع داخل مخدع ، ثم قنينة الدهن وصب على رأسه وقل هكذا قال الرب قد مسحتك ملكا على إسرائيل ، ثم افتح الباب واهرب ولا تنتظر . فانطلق الغلام أى الغلام النبى إلى راموث جلعاد ودخل ، وإذا قواد الجيش جلوس ، فقال : لى كلام معك يا قائد . فقال ياهو : مع من منا كلنا ؟ فقال : معك أيها القائد . فقام ودخل البيت فصب الدهن على رأسه وقال له : هكذا قال الرب إلـٰه إسرائيل قد مسحتك ملكا على شعب الرب إسرائيل . فتضرب بيت أخآب سيدك وانتقم لدماء عبيدى الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل . فيبيد كل بيت أخآب واستأصل لأخآب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق فى إسرائيل ، واجعل أخآب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيًّا . وتأكل الكلاب إيزابل فى حقل يزرعيل وليس من يدفنها ، ثم فتح الباب وهرب » .

انقلاب عسكرى وقع فى إسرائيل ، وقد اشترك فيه أليشع وأبناء الأنبياء الذين يتلقون النبوة فى معاهد الأنبياء . فلما دون كتَّاب التوراة فى المنفى ذلك الحادث جعلوه وحيا من السماء وثمنا لكفران أخآب وزوجته إيزابل . وقد كانوا يقصدون كل حرف دونوه ، كانوا من أبناء الأنبياء فأرادوا أن يوهموا يهود المنفى أنهم يتلقون وحى السماء وأنهم ينطقون بلسان إلـٰه إسرائيل ليتلقى الشعب الذى كان فى المنفى أوامرهم خاشعين ، وليهابهم كل من تسول له نفسه معارضتهم خشية بطش إلـٰه إسرائيل الذى يسارع بإنزال العقاب استجابة لدعوات أنبيائه اللعانين .

ويصبح يا هو ملكا على إسرائيل ويفنى جميع عبدة البعل ويعيد إسرائيل إلى

عبادة إلـٰه إسرائيل . فماذا كان جزاؤه من كتَّاب التوراة : « وقال الرب لياهو : من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم فى عينىَّ وحسب كل ما فى قلبى فعلت ببيت أخآب ، فأبناؤك إلى الجيل الرابع يجلسون على كرسى إسرائيل ، ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك فى شريعة الرب إلـٰه إسرائيل من كل قلبه ، و لم يحد عن خطايا يربعام الذى جعل إسرائيل يخطى » .

أتدرى سبب أختلاف النتيجة عن المقدمة ؟ إن حزائيل ملك أرام ضرب إسرائيل ، وإن كتاب التوراة فى المنفى لا يستطيعون أن يتصوروا ياهو قد هزم فلا بد أنه تنكب طريق الرب ، وإن كان قد قتل جميع أنبياء البعل وعبيده ، وإن كان قد أعاد إسرائيل إلى رب إسرائيل .

ويتولى الملك فى إسرائيل وفى يهوذا ملوك لا عمل لهم إلا الشر ، « وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راء قائلا : إرجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياى فرائضى حسب كل الشريعة التى أوصيت بها آباءكم والتى أرسلتها إليكم عن يد عبيدى الأنبياء ، فلم يسمعوا بل صلَّبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلـٰههم ، ورفضوا فرائضه وعهده الذى قطعه على آبائهم وشهاداته التى شهد بها عليهم ، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا ووراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم ، وتركوا جميع وصايا الرب إلـٰههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين ، وعملوا سوارى وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل ، وعبَّروا بنيهم وبناتهم فى النار وعرفوا عرافة وتفاءلوا وباعوا أنفسهم لعمل الشر فى عينى الرب لإغاظته . فغضب الرب جدًا على إسرائيل ونحاهم من أمامه و لم يبق إلا سبط يهوذا وحده ، ويهوذا أيضا لم يحفظوا وصايا الرب إلـٰههم بل سلكوا فى فرائض إسرائيل التى عملوها . فرذل الرب كل نسل إسرائيل وأذلهم ودفعهم فى يد ناهبين حتى طرحهم من أمامه ، لأنه شق إسرائيل عن بيت داود

فملَّكوا يربعام بن نباط فأبعد يربعام إسرائيل من وراء الرب وجعلهم يخطئون خطية عظيمة . وسلك بنو إسرائيل فى جميع خطايا يربعام التى عمل . لم يحيدوا عنها حتى نحَّى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء . فُسبِى إسرائيل من أرضه أشور إلى هذا اليوم » .

وأنزل الملوك الآشوريون ببنى إسرائيل واليهود ألوان العذاب ، كانوا يسلخونهم أحياء وكانوا يصنعون من جماجمهم أهراما . وانتصر نبوخذنَّصر ملك بابل على أشور وتمرد يهوياقيم ملك يهوذا على نبوخذنصر ودفع الجزية لفرعون مصر « فصعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار ، و جاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها . فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذه ملك بابل فى السنة الثامنة من ملكه ، وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التى عملها سليمان ملك إسرائيل فى هيكل الرب كما تكلم الرب . وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبى وجميع الصناع والأقيان ، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض . وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل . جميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل ، وملك ملك بابل مَّتنيا عمه عوضا عنه وغير اسمه إلى صِدقيًّا .

كان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك . وملك إحدى عشرة سنة فى أورشليم واسم أمه حميطل بنت ارميا مت لِبنة ، وعمل الشر فى عينى الرب حسب كل ما عمل يهوياقيم ، لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا،حتى طرحهم من أمام وجهه كان أن صدقيا تمرد على ملك بابل . وفى

السنة التاسعة لملكه فى الشهر العاشر فى عاشر من الشهر جاء نبوخذنصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجا حولها ، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيا ، فى تاسع الشهر اشتد الجوع بالمدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض . فثُغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك . وكان الكلدانيون حول المدينة مستدبرين ، فذهبوا فى طريق البرية ، فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه فى برية أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه ، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى رَبْلة وكلَّموه بالقضاء عليه وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عينى صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل .

وفى الشهر الخامس فى سابع الشهر وهى السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذنصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم . وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط . وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور ساهم نبوزرادان رئيس الشرطة .. » .

أحرق نبوزرادان الهيكل وأحرق التوراة وحمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل ليعيشوا فى الأسر وبذلك انتهت إسرائيل ويهوذا وتم سفر الملوك الثانى ، وابتدأت أيام المنفى أيام إعادة كتابة التوراة . ولنرجىء الحديث عن هذه الفترة الحاسمة فى تاريخ التوراة إلى التذييل القادم .

القاهرة فى ٤ / ١ / ١٩٧٠ .

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحبلى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينسن ــ ترجمة د . يحيى الخشاب

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى

إحياء علوم الدين — للغزالى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

حقوق الإنسان فى الإسلام — الدكتور على عبد الواحد وافى

محمد رسول الله — مولاى محمد على

الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار

الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى

المستشرقون والإسلام	للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى	للدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد	لعباس محمود العقاد
الروض الأنف	للسهيلى
تاريخ الطبرى	
مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس محمود العقاد
أسباب النزول	للواحدى
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
الملل والنحل	للشهرستانى

محمد رسول الله والذين معه

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب
٣ ـــ بنو إسماعيل
٤ ـــ العدنانيون
٥ ـــ قريش
٦ ـــ مولد الرسول
٧ ـــ اليتيم
٨ ـــ خديجة بنت خويلد
٩ ـــ دعوة إبراهيم
١٠ ـــ عام الحزن
١١ ـــ الهجرة
١٢ ـــ غزوة بدر
١٣ ـــ غزوة أحد
١٤ ـــ غزوة الخندق
١٥ ـــ صلح الحديبية
١٦ ـــ فتح مكة
١٧ ـــ غزوة تبوك
١٨ ـــ عام الوفود
١٩ ـــ حجة الوداع
٢٠ ـــ وفاة الرسول

ثمن الجزء الواحد عادى جنيهان
ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنيهات ونصف
ثمن المجموعة المجلدة تجليدا فاخرا فى ٢٠ مجلدا ٩٥ جنيها

رقم الإيداع ٣٠٢٢
الترقيم الدولى ٩ ـــ ٢٤١ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧